

مرشد

الأعمال الكاملة



كنت جاسوساً في إسرائيل

رافف الهجان

الجزء الأول

كنت جاسوساً في إسرائيل

رافف الهجان

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٨٦ م ١٤٠٧ هـ

الناشر خارج جمهورية مصر العربية



المدار المصرية للنشر والتوزيع
P.O.Box 8559 Nicosia - Cyprus
Tel (02) 498688 - Tlex 5341
نيقوسيا - قبرص ص . ب ٨٥٥٩
ت : ٤٩٨٦٨٨ تلکس ٥٣٤١

الناشر

للنشر والتوزيع



١٦ شارع البورصة - التوفيقية -
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح - عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

طہ سب سے

سید

الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

كلمة الناشر

عزيزى القارىء

تواعدنا يوم قدمت لك « الحفار » أن أتبعه بقصص أخرى حددتها بأنها « الصعود إلى الهاوية » « ثم دموع فى عيون وقحة » وهي أعمال للأستاذ صالح مرسي سبق نشرها وعرضها كفيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني وكنت أراها - كما ذكرت فى كلمتى لك بالحفار - شعاع ضوء يكشف لك حقيقة الأسطورة التى روجت لها إسرائيل عن مخابراتها التى لا تقهر؟! !

يومها كان الأستاذ « صالح مرسي » يخطط لأعمال أدبية أخرى بعيدا عن ميدان صراع المخابرات بعد أن قضى أكثر من عام يُعاش أحداث « الحفار » من خلال الوثائق ولقاءات مع عدد من الأبطال الذين خططوا ونفذوا عملية نسف الحفار الإسرائيلى . . . وحاولت عبثا أن أحرصه لبحث عن عمليات أخرى يقدمها للقارىء لكنه رفض بإصرار لأن معاناته فى كتابة الحفار أجهدهته بعد أن ظل مشدود الأعصاب لأكثر من عام ، فهو لا يكتب الأحداث لكنه يعيشها بكل التفاصيل المثيرة مع أبطالها . . . قضى كل لحظة من هذا العام ترتجف أعصابه مع كل موقف مشير ، وموجات الخوف والفرح والترقب تتدافع مع كل كلمة يقرأها أو يسمعها أو يكتبها . . . لهذا قرر أن يتعد لفترة عن البحث فى ملفات المخابرات ، كما أنه أراد أن يعيد تقديم نفسه للقارىء « روائيا » « وقاصا » صدرت له العديد من الروايات والقصص عن البحر وعن هموم البسطاء . . . وأخذنا بالفعل نعد لإصدار هذه الأعمال مع وعد بأن

نشر معها « الصعود إلى الهاوية » « ودموع في عيون وقحة » . . . ولم يمض وقت حتى انقطعت أخبار الأستاذ صالح عنى لأيام ثم أسابيع . .

وأخيرا ذهبت إليه لأجده غارقا في أكوام من الوثائق وبجانبه جهاز تسجيل يديره ليسمع صوت عزيز الجبالي يحكى قصة « رأفت الهجان » . . . وجدت الأستاذ صالح انسانا آخر . . . اكلمه فلا ينصت . . . كان مشدود الأعصاب تماما لكل كلمة تأتيه من التسجيلات التى ملأت أكثر من ثلاثين شريطا . . . ثم يعود ليقلب الوثائق . . . ويحلق في بعض الصور . . .

انتزعته من هذه الحالة بعد جهد جهيد لأعرف أنه يعيش قصة بطولة نادرة . . . إنسان مصري عربى استطاع أن يخترق الأمن الإسرائيلى للنخاع ، وأن يعيش في إسرائيل وقريبا من مراكز صنع القرار ليقدم البرهان العملى على أن الإنسان المصرى العربى يملك القدرة الفذه على تحقيق النصر الباهر في ميدان المخابرات . . . وبعد شهور المعاناة بدأت قصة « رأفت الهجان » تأخذ طريقها للنشر . . . وأضيفت حلقة رائعة من حلقات انتصار الإنسان المصرى العربى في ميدان حرب الذكاء وانكشفت بفضل الله أولا - وبفضل الرجال أسطورة مخابرات العدو الإسرائيلى . .

وأخيرا هذا هو « رأفت الهجان » بين يديك . . لا أقول « كتابا » لكنه الإنسان المصرى العربى ستحس بنبض قلبه في كل كلمة . . . وتلفح وجهك أنفاسه الحرة . . . وسيصبح آخر الأمر صورة مشرقة تعيش معك ، وتجعلك كلما تذكرت العدو الإسرائيلى تشمخ برأسك فخرا . . . وتتحسس سلاحك دائما لتكون يقظا لغدر هذا العدو الذى لن يتوقف عن تدبير المؤامرات للعدوان على كل ما هو عربى وكل ما هو مسلم . . .

« السيد الضبان »

حديث فاس حول قضية عامة

●● في علم المخبرات ، هناك قاعدة عامة تدرس لهؤلاء الذين يخطون خطواتهم الأولى في هذا الميدان ، هذه القاعدة تقول : لا تدخل للعواطف في العمل !

وهي واحدة من القواعد الذهبية التي كان الاستاذ « إسماعيل » يلقنها للأجيال الأولى من رجال المخبرات الغامة المصرية... والاستاذ « إسماعيل » واحد من أعظم اساتذة هذا العلم... اسمه ليس « إسماعيل » بطبيعة الحال ، ثم... هو لم يمارس العمل كضابط عمليات... لكنه رجل وضعته الظروف - ظروف بناء مصر من فراغ كان ينخر عظامها - في موقف المواطن الخلاق ، الذي أصبح عليه ، بين يوم وليلة ، أن يدرس ويتعلم ويبحث ويحقق ويحلل ويتابع ، ثم يتشرب العلم بجهد أسطوري ، كي يسقيه للشباب كالشراب الطهور!!

« لادخل العواطف في العمل » قاعدة يحتفظ بها رجال المخابرات في صدورهم احتفاظاً يصل الى حد من القسوة - ربما على أنفسهم قبل الآخرين - فوق ما يطيقه البشر . . . ذلك أن مثل هؤلاء الرجال ، لا يتعاملون مع حقائق ذاتية أو فردية ، ولكنهم يتعاملون مع حقائق عامة . . . حقائق لا تمس أشخاصهم ولا عواطفهم ، وإنما تمس دولهم وشعوبهم وأممهم . . . ولقد يدرّب بعضهم نفسه تدريباً شاقاً على مواجهة المأسى والتعامل معها بعقل بارد وقلب ميت . . . ذلك أن خلا بسيطاً ووحيداً ، يحدث نتيجة لتدخل العاطفة في لحظة عشوائية ، قد يدمر عمل سنوات طويلة من التدبير والسهر والصبر ، وقد يجر على الأمة من المخاطر ، مالا يطيقه ضمير فرد ، أو حتى ضمير جهاز بأكمله ! !

غير أن رجل المخابرات ، أيا ما كان عقله بارداً وقلبه ميتاً ، فهو في البداية والنهاية إنسان . . . إنسان له قلب يخفق أراد أم لم يرد ، ووجدان - مهما حاول صياغته - يتّمي بالضرورة الى ما يسمى بالعاطفة . . . هو إنسان قد يستطيع لعام ، أو عامين ، أو ثلاثة . . . وربما لعشرين عاماً كاملة - كما في قصتنا هذه - أن يتعامل بهذا العقل البارد والقلب الميت مع « مادته » أو « موضوعه » أو « قضيته » ، يبذل كل ما يستطيع من جهد لكيلا يخطئ خطأ واحداً ، ولا يسمح بحال من الأحوال ، لعواطفه التي قد تمجش وتفور وتضطرم في صدره ، أن تتدخل ولو لثانية واحدة ، فيما يجب ألا تتدخل فيه . . . قد يستطيع رجل المخابرات أن يصنع هذا . . . ولكن ، هل يستطيع أن يتحكم فيما لاحكم له عليه ؟ !

هناك قاعدة ذهبية أخرى : لقنها الاستاذ « إسماعيل » للرجال أيضا - تقول :

« إياك أن تقع في حب العميل ! »

والعميل هنا هو الجاسوس . . . والجاسوس - رغم بشاعة الكلمة وما تحويه من معان قد تقشعر لها الأبدان - هو في البداية والنهاية - أيضا - إنسان . . . وهو كإنسان ، واحد من ثلاثة أنماط رئيسية . استقر عليها رأى جهابذة هذا العلم منذ أن كان التاريخ والمجتمعات والحروب والصراع وحتى يومنا هذا . . . هذه الانماط الرئيسية هي :

●● إنسان يعمل من أجل المادة .

●● وآخر تستعبده شهواته .

●● وثالث يدفعه المبدأ والعقيدة لركوب المخاطر . . . وهذا النوع

لا يصبح جاسوسا ، بل يطلق عليه اسم « مندوب » .

وقد لا يتعاطف المرء مع هذا الذي يبيع نفسه ووطنه من أجل حفنة من المال . . . وقد لا يحترم هذا الذي تستعبده شهواته وملذاته وعواطفه الدنيا . . . ولكن كيف - حتى وان كنت رجل مخابرات ذا عقل بارد وقلب ميت - كيف لا تتعاطف مع هذا الذي يضع رأسه على كفه كل يوم ، بل كل ساعة ، بل - وبلا أدنى مبالغة - كل دقيقة من نهاره وليله ، من أجل خدمة وطنه وأمته وشعبه ؟ !

ان الرجل الذي يترك حياته الآمنة - متطوعا - في وطنه ووسط عائلته ، كى يخترق مجتمع العدو ، ويزرع نفسه فيه . . . يتدين بدينه ، ويتحدث بلغته ، ويأكل طعامه ، ويشرب شرابه ، ويعيش كما يعيش أعداؤه ، يتظاهر بالفرح لفرحهم ، وبالحزن لحزنهم . . . يحتفل معهم

بنصرهم وقلبه يدمى ، ويبكى لهزائمهم وقلبه يرقص طرباً . . . ويتحول من إنسان الى آلة تصوير وآلة تسجيل تُحْمَلُ كلتاها إلى بلاده ، عبر قنوات سرية وأخطار مخيفة ، كل ما يستطيع أن يحصل عليه من معلومات وأخبار ، أو مخاطر قائمة أو محتملة . . . يحيا وحيدا حتى النخاع ومن حوله العشرات ، وربما المئات ، يحيطونه بالود والاحترام والاحترام ، يستمعون اليه ، ويُسمعونه من أنبائهم كل ما يريد أن يسمعه ، يعيش في ظل يخشى في لحظة عمياء أن يغمره الضوء فيفتضح أمره ، ويتأرجح حبل المشنقة فوق رأسه كل ثانية ، يلزمه في أحلامه ، وفي صحوه . . . مثل هذا الانسان لا يصبح جاسوساً ، بل هو بطل من نوع فريد وفذ !

ومن أجل هذا ، فانهم هناك - في أجهزة المخابرات في العالم - ينظرون الى هذا النوع من الرجال - أو النساء - على أنهم يتربعون فوق قمة لاتدانيها قمة . . . ذلك أن مايقوم به هؤلاء الأبطال المجهولون . . . هو أرفع درجات الوطنية .

من هؤلاء الأبطال من ذهبت ريجهم وطواهم النسيان مع مايطوى من أسرار الدول والشعوب . . . ومنهم من بقى حيا في « أضابير » ختمت بخاتم السرية المطلقة . . . ذلك أن حياتهم - مهما مضى عليها من خطوات الزمن - هي جزء لا يتجزأ من أمن شعوبهم ، يدقون كسطور على ورق في أقبية لاتصل إليها يد . . . وتمضى السنون ، وقد تحدث مصادفة - في عالم لا يخضع لقانون المصادفات - وتُفتح الأقبية ، وتخرج الى النور قصة ينذر أن يطاؤها خيال !

من هؤلاء العظماء السريين : « رأفت الهجان » .

و« رأفت الهجان » ليس اسمه الحقيقي ، ليس اسمه في مصر حيث ولد وعاش وتربى وتشرد وسُجن ، وحيث تعيش أسرته - حتى اليوم - في لهفة لسماح كلمة عنه . . . حتى هو أم ميت ، سجين هو أم طليق ، مشرد هو أم أنه استقر بعد طول ترحال غامض ، ينتقل بين السجون أم أنه ينتقل بين القصور ؟

« رأفت الهجان » ليس اسمه في مصر ، كما أن « ديفيد شارل سمحون » - وهو الاسم الذي سوف نطلقه عليه - ليس اسمه الذي عرف به في إسرائيل ، حيث ذهب إليها منذ ثلاثين عاماً كبطل من أبطال الصهيونية ، وغادرها بعد عشرين عاماً كواحد من أصحاب الملايين ، ورجل من رجال أعمالها البارزين !

« رأفت الهجان » ليس اسمه الحقيقي ، لكنه الاسم الذي اختاره له صديق عمره ، وطوق نجاته ، والخيط الخفى الذي ارتبط به ارتباط الجنين بحبله السرى . . . عشرون عاماً وهما يلتقيان في كل يوم ، يتحدثان ، يتشاجران ، يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ويتناجيان معاً في حب مصر!!

حدث كل هذا دون أن يلتقيا مرة واحدة ، أو يرى أحدهما الآخر ، دون أن يتبادلا الحديث إلا من خلال خطابات كتبت بالحر السرى ، أو صفير متقطع لجهاز إرسال أو استقبال .

« رأفت الهجان » هو الاسم الذي اختاره له « عزيز الجبالي » - وهذا أيضاً ليس اسمه !!! - ضابط المخابرات الذي تعرف عليه وهو في السادسة والعشرين من عمره ، ثم فرقهما القدر وقد تخطى الخمسين .

وإذا كان « عزيز الجبالي » واحداً من أنجب تلاميذ الاستاذ « اسماعيل » ، وإذا كان مؤمناً إيماناً قاطعاً بالقاعدة الذهبية التي تقول إنه « لا دخل للعواطف في العمل » ... كما أنه مؤمن أشد ما يكون بالإيمان بالقاعدة المناسبة التي تقول : « إياك ان تقع في حب العميل » فلقد كانت الأوراق التي كتبها « السيد عزيز » عن هذه « العملية » ليست سوى شحنة عاطفية متفجرة ... تلك الأوراق التي قدمت لي في أحد أيام الصيف الماضي - بالتحديد في يونيو ١٩٨٥ - فاعتذرت عن عدم قراءتها لأسباب شخصية ، ثم قدمت لي مرة ثانية وثالثة في كرم لست أنكره وقد لا استحقه ، واعتذرت أيضاً .. كنت اتملص محاولاً الخروج من شرنقة هذا النوع « الجديد » من الأدب ، وأنا أشعر أنى - بما قدمت منه - قد أدت واجبي نحو وطنى وأمتى العربية !

غير أنى في المرة الرابعة . وما إن وقعت عيناي على أولى الكلمات في تلك الأوراق ، حتى وجدتني أهوى معها الى هوة بلا قرار .. وجدتني أغيب عن الوعي لثلاث ساعات كاملة .. كانت السطور « ملخصاً » كتبه « ضابط الحالة » - CASE OFFICER - لكنها كانت ترفعني الى السماء ، ثم تهوى بي الى الأرض في واقع أسطوري شديد الغرابة .. في سطور بعينها كانت الدموع تتفجر من عيني رغماً عني ، وكنت أحاول جاهداً أن أوقفها ، لا لأنى لا أريد البكاء ، ولكن لأنى أريد المتابعة والدمع يمنعني ... وفي سطور أخرى كنت أصفق كصبي بهر « السجيع » على الشاشة وقد انتصر على أبطال الشرور ... وعندما كنت أقرأ كيف عرض حزب « الماباي » الاسرائيلي على « رأفت الهحان » ، أو « ديفيد شارل سمحون » ، أن يرشح نفسه للكنيست

الإسرائيلي ، أحسست بزهو من أنجب عملاقا... ثم ...
ثم يقول « عزيز الجبالي » في مقدمة تلك الأوراق التي كتبها :

« وأتوقع أن ينبرى البعض في إسرائيل - مدفوعا
بالمكابرة والمغالطة - فيدعى أن السلطات الإسرائيلية كانت على علم
بهذه العملية ، وأنها كانت تسيطر عليها وتوجهها بمعرفتها
ولصالحها وهؤلاء عندي الكثير ، أقله وأبسطه ، أن دواعي السرية
والأمن ، اقتضت - بالضرورة - حجب بعض الوقائع والتفاصيل .
وإنى اتحداهم أن يذكروا ولو واحدة - واحدة فقط - من هذه
الوقائع ! » .

ثم . . .

ثم كان لا بد أن التقى « بعزيز الجبالي » .

والتقيت به ، وجلست اليه لأكثر من أربعين ساعة على مدى ثلاثة
أشهر ، وسجلت له عشرين ساعة وثلاثين دقيقة وكم
ضحكنا معاً ، وفرحنا معاً ، ولفنا الحزن والأسى في أحيان كثيرة . . .
كم دمعنا وهو يحكى في تدفق وحرارة يبعثان على الحيرة والعجب حقاً !

وإذا كانت قصص التجسس في العالم كله ، إذا ما خرجت إلى
النور . . . لا تخرج بنصها وكما حدثت ، لأن هذا يبدو - من وجهة النظر
الفنية - مستحيلاً ، وهو أيضاً يبدو - من وجهة النظر الأمنية - من رابع
المستحيلات . . . وإذا كان الخلق الفني نوعاً من أستار السرية المفروضة
والضرورية ، فهو أيضاً نوع من تجميل تلك الجهامة المروعة التي تحيط
عادة بالعمل السرى . . . إذا كان الأمر كذلك ، فانه لا بد لهذا الخلق
الفنى الوافد والجديد ، أن يمتزج بالواقع « المتاح » للكاتب إمتزاجاً

كيميائيا - إن صح التعبير - يستحيل بعده على القارىء أن يفرق بين الواقع والخيال .. أقول : إذا كان الأمر كذلك فإنى أتساءل قبل أن أخط كلمة واحدة في هذا العمل :

هل يستطيع الخيال أن يرتفع الى مستوى الحقيقة ؟ !
مجرد سؤال لا يمكن أن تكون إجابته عندى ... غير أنى أقول : هذه قصة رجلين من جيل صنع لمصر ، وللأمة العربية كلها ، معجزات .. تحاول بعض قوى الشر أن تطمسها ! ●●

« ص . م . »

الفصل الأول

رسالة فاطمة

كان الزائر قادما من ألمانيا الغربية ، وكان موعد عاجل قد حُدد له مع الفريق محمد سعيد الماحي ، مدير المخابرات العامة المصرية في ذلك الوقت . . . لذلك فما ان وصلت سيارته الى بوابة مبنى الجهاز ، حتى أفسح لها الرجال الطريق الى الداخل ، بعد أن تحقق الحراس من شخصية الضيف .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة صباحا ، وكان اليوم هو أحد أيام يناير عام ١٩٧٩ ، وما ان هبط الشاب الوسيم من سيارته ، يحمل في يمينه حقيبة أوراقه الحديثة والمزودة بأقفال مركبة تنبىء عن حرصه الشديد على ما تحويه من أوراق ، حتى وجد من يقوده فوراً إلى مكتب المدير !

بدا الشاب من هذا النوع الفارع الطول ، الشديد الأناقة ، الأشقر ، الملون العينين ، والذي - مع كل هذا - يبدو مصريا

مغتربا ولقد كان يرتدى فوق بذلته معطفًا أوروبيا كان يحميه من تيار الهواء البارد الذى راح يجتاح تلك المساحة الخالية ، التى تفصل بين بوابة الجهاز ، وباب المبنى الرئيسى .

ولابد أن ذلك اللقاء بين مدير جهاز المخابرات العامة المصرية ، وضييفه ، قد اتسم بكثير من الود ، فلقد ترك المدير مقعده وجلس إلى جوار الضيف فى الصالون الأنيق الملحق بمكتبه . . . وفى الحقيقة ، فإن الفريق الماحى لم يكن يعرف ، حتى لحظة لقائه بهذا الشاب الوسيم ، والذى كان معروفا للمصريين منذ سنوات ، خاصة بعد أن اتسمت أعماله فى الخارج بغير قليل من النجاح ، لم يكن يعرف شيئا عن سبب الزيارة . . . كل ما كان يعرفه ، أن رجل الأعمال المصرى الشاب « نهاد كامل » يحمل رسالة على درجة عالية من السرية من شخصية لا يستطيع أن يبوح باسمها فى التليفون ، وأنه يريد أن يسلم الرسالة ، يدا بيد ، إلى مدير المخابرات العامة المصرية ، ولأحد غيره !

ولقد مضت الدقائق الأولى بين المدير وضييفه فى تبادل كلمات المجاملة التى تسبق عادة تلك الأحاديث التى تتناول أمورا ذات أهمية خاصة . . . بعد دقيقتين ، وضع بين المدير وضييفه ، كأسان من عصير الليمون الذى تفوقت بوفيهات الجهاز فى صنعه . . . ورشف كل منهما رشفة من كأسه ، وانتهت كلمات المجاملة ، ثم ساد الصمت !

توقفت عينا المدير عند وجه الشاب لبرهة . . . بدا له الوجه متناسق التقاطيع ، توحى ملامحه بطيبة صادقة ، كما أوحى نظرات العينين الملونتين بذكاء خفى . . . إذن ، فهذا هو « نهاد كامل » . . . ولقد كان نهاد الآن يتسم ابتسامة بدت للمدير حائرة ، فاعتدل فى جلسته

قائلا :

« إيه حكاية الرسالة دي ياسيد نهاد ؟ ! »

قال الشاب وهو يتناول حقيبة أوراقه ويتلاعب في أقفالها المركبة :

« الرسالة معايا ياافندم ! »

ران الصمت مرة أخرى حتى مزقه صوت الأقفال وهى تفتح ، رفع نهاد غطاء الحقيبة وأخرج منها مظروفاً أنيقاً من ذلك النوع الذى يستعمله الموسرون والارستقراطيون فى أوربا الغربية . . . والتقطت عينا المدير على الفور حرفين بارزين فى ركن المظروف ، كان الحرفان هما : « D.S » - د . س . - تناول المدير المظروف ، وبدا عليه التردد للحظة ، فقال الشاب :

« تقدر سيادتك تفتحه قدامى ! »

رماه المدير بنظرة تساؤل فاستطرد :

« علشان لو فيه أى أستفسار ، أنا مستعد أجاب عليه ! »

امتدت أصابع المدير إلى فتحة المظروف فاستجابت له ، أخرج الرسالة المكتوبة على الآلة الكاتبة ، وباللغة الانجليزية ، ثم فردها أمام عينيه . . . وكانت مكونة من سطر واحد !

« سيدى . . »

فى اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، توفى الهر ديثيد شارل سمحون «

وكان التوقيع بالآلة الكاتبة أيضا : « فراو سمحون » .

قبل أن يهيم المدير بالحديث ، بادره رجل الأعمال المصرى « نهاد كامل » وهو يومئىء نحو الرسالة محاولاً تفسير ماقد يكون قد جال بخاطر المدير :

« أنا طلبت منها تكتب الرسالة بالانجليزى لانه معروف فى مصر أكثر من

الألماني ! »

هز المدير رأسه علامة الفهم ، وكان الشاب قد أغلق حقيبته ، فرفع كوب الليمون الى شفثيه ورشف منه رشفة بدت وكأنها تحية أخيرة ، ثم نهض ، فنهض معه المدير ، وسار الى جواره حتى باب الغرفة وهو يردد كلمات شكر مقتضبة ، دلت على عنف الأفكار التي كانت تضطرب في رأسه .

والذي لاشك فيه ، أن المدير كان - في تلك اللحظات - يفكر في عقد اجتماع عاجل مع واحد من معاونيه... ولذلك ، فلقد صافح ضيفه عند الباب وهو يطلب إلى سكرتيره - الذي أحس بالحركة فنهض لاستقبال الضيف - أن يوصل السيد « نهاد كامل » حتى باب الجهاز الخارجى !
عندما انصرف الضيف ، كانت سبع دقائق ونصف قد انقضت ، منذ دخل الغرفة !



في الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩ ، دخل إلى مطار القاهرة الدولي شابان في مقتبل العمر... وكانا يبدوان من رجال الأعمال الذين اعتادوا - في السنوات الأخيرة - على السفر في فترات متقاربة... ذلك أن جوازي سفرهما كانا يحملان تأشيريات عديدة لأختتام عدد كبير من دول العالم شرقا وغربا... من اليابان ، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية !

أما الأول فكان أسمر الوجه ، ذا ملامح خشنة وملابس شديدة الأناقة تشى بقدر هائل من الثراء المفاجئ... وكانت المهنة المدونة في جواز سفره هى : صاحب محلات كبرى - تحمل اسمه المدون في جواز السفر - فى حى من أكبر أحياء القاهرة التجارية... وكان الثانى وسيما ، ذا ملامح رقيقة وملابس

أنيقة في اعتدال من يعرف معنى الأناقة ، وكانت المهنة المدونة في جواز سفره
هى : « مهندس تبريد » ، بنفس المحلات التى تحمل اسم الأول .

كان واضحا أنها فى طريقها لعقد صفقة هامة للثلاجات وأجهزة
التبريد فى ألمانيا الغربية ، كما كان واضحا أيضا أنها قررا السفر فجأة
فى عصر ذلك اليوم ، حتى يلحقا بموعد هام فى الصباح بمدينة
« هامبورج » . . . ذلك أن تذكريتها كانتا على طائرة الخطوط الجوية
الباكستانية التى تغادر القاهرة فى المساء إلى باريس ، وذلك لتعذر وجود
طيران مباشر إلى ألمانيا فى ذلك الوقت من اليوم وكان عليهما -
بطبيعة الحال - أن يغيرا الطائرة فى باريس ، ليصلا فى فجر اليوم التالى
الى « هامبورج » .

ولقد حدث أثناء انتظارهما لموعد إقلاع الطائرة الباكستانية ، أن فتح
مهندس التبريد حقيبة أوراقه ، وأخرج منها ورقة - كان واضحا تماما أنها
ورقة ت لكس - وراح يقرأها على زميله فى اهتمام ، ثم أخرج تذكرة السفر
مؤكددا أنها سيصلان فى الموعد . . . غير أنها بعد لحظات من المناقشة ،
راحا يقلبان فى بعض الأوراق والكتالوجات التى تحوى رسوما لثلاجات
وأجهزة تبريد من ماركة ألمانية شهيرة ، واستغرقا فى المناقشة تماما ، حتى
نادت فتاه المطار على طائرتيها !



فى ذلك الوقت ، كان مكتب رئيس هيئة الخدمة السرية فى جهاز
المخابرات العامة المصرية ، يشهد اجتماعا برئاسة صاحب المكتب . . .
وكان رجلا ذا شعر رمادى ، عريض الكتفين كبير الرأس ، أظهر مافى
ملاحه هاتان العينان اللتان تبدوان وكأنهما فى حوار دائم مع أشياء
مجهولة . . . فوق المقعدين الوثيرين المواجهين لمكتبه والملاصقين له ،

جلس رجلان يعبران الخطوات الأخيرة من ربيع العمر... على يمين المكتب ، جلس شخص رابع فوق مقعد يسمح له بأن يلقي بظهره الى الوراء ، وأن يعقد ذراعيه أمام صدره ، ويطبق شفثيه بعنف من يعانى فى داخله أزمة حادة !

كان الجالس خلف المكتب يمسك بيده تلك الرسالة الغامضة التى وصلت فى صباح نفس اليوم إلى مدير جهاز المخابرات من « فراو سمحون » !

كانت الرسالة - رغم قصرها البالغ - تحمل للرجال معانى كثيرة فى حاجة إلى تحليل ، وفى حاجة أكثر إلى تقدير موقف . . . كان معنى الرسالة - أولاً وقبل كل شىء - أن « فراو سمحون » قد عرفت الحقيقة... وهى لاتستطيع أن تعرف الحقيقة إلا من « ديثيد » نفسه... وعلى هذا ، فلا بد أنها قد عرفت من قبل وفاته . . . فلماذا لظمت الصمت طوال هذه المدة ؟ !

لماذا لظمت الصمت طوال مايقرب من شهرين ؟ !

كان السؤال فى حاجة الى إجابة حاسمة ودقيقة فى نفس الوقت... . إجابة قد نعثر عليها لو أننا لاحظنا أن أسلوب الرسالة ، وطريقة إرسالها فى نفس الوقت ، ينبئان عن خوف حقيقى وقاطع . . . فالمظروف الذى يحمل « البادج » الخاص باسم « ديثيد سمحون » - د . س . - هو الدليل الوحيد على أن الرسالة قادمة من السيدة سمحون ، ذلك أنه - أى المظروف - لا يحمل اسماً ولا عنواناً . . . فهو مظروف من الممكن لأى أحد أن يحصل عليه من البيت أو المكتب أو حتى من المطبعة... ثم إن الرسالة نفسها مكتوبة على ورقة بيضاء ، وليست ورقة من نفس نوع

ورق المظروف ولا تحمل نفس «البادج» الذى يدل على صاحب الخطاب وحتى التوقيع الذى وضعتة « فراو سمحون » كان مكتوبا بالآلة الكاتبة !

إن المعنى الوحيد لكل هذا ، أنها خائفة الى حد التنصل من الأمر كله إذا اقتضى الأمر !
ألا يكون هذا الخوف ، وهذا الاحساس بالخطر ، هما التفسير المنطقى للسؤال الأول ؟ ! وهو أنها انتظرت طوال تلك الأسابيع ، حتى وجدت من تثق به ، لتحمله هذه الرسالة وما تحويه من أسرار ؟ ! هذا - على كل الأحوال - ما كان الرجال قد توصلوا إليه فى الصباح ولذلك ، كان لابد وأن توضع كل هذه المحاذير نصب الأعين فى محاولة الاتصال بها التى رأى الرجال - فور علمهم بوصول الرسالة - أنها لابد أن تتم بأسرع ما يمكن وبالفعل ، أوكلوا أمر الاتصال الى شابين من شباب الجهاز المشهود لهما بالكفاءة ، وسرعان ما جهزت الأوراق وجواز السفر ولقد قال أحد الرجلين الجالسين على المقعدين المواجهين للمكتب ، إنها - أى الشابين - الآن فى المطار ، وإنهما لم يجدا وسيلة يصلان بها الى هامبورج فى الصباح ، سوى السفر على شركة الخطوط الجوية الباكستانية إلى باريس ، ومن باريس - فى فجر الغد - إلى هامبورج . . . وأن هذا سيكلفهما السهر والسفر طوال الليل بلا راحة . . . لكنها بالتأكيد ، لن يلتقيا بالسيدة سمحون إلا بعد ظهر الغد ، وسيكونان قد حصلا على قدر مناسب من الراحة يجعل ذهنيها صافيين وقادرين على استيعاب الموقف وما قد يترتب عليه من مضاعفات محتملة ! !

وعلى كل - هكذا استطرد الرجل - فلقد زودا بكل ما يحتاجان اليه من معلومات ، وكل ما هو ضروري من تعليمات ، وان « عزيز » - هذا اسم الجالس على يمين المكتب - قد لقنها بكل الاحتمالات القائمة ، والتي قد تحدث اثناء عملية الاتصال التي كان المفروض أن تتم في صباح اليوم التالي !

كان واضحاً من الجدل الدائر ، أن الخبر - خبر وفاة ديفيد شارل سمحون - لم يكن مفاجأة بالنسبة للرجال ، وأنهم عرفوا بخبر الوفاة في نفس اليوم الذي حدثت فيه ... ومن بعض الكلمات التي تناثرث أثناء الحديث ، كان يمكن للمستمع أن يستنتج أن ثمة أزمة قد حدثت في ذلك اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، وأن جدلاً على أعلى مستوى في الجهاز قد ثار حول سفر « عزيز الجبالي » - هذا الجالس إلى يمين المكتب معقود الذراعين مزمووم الشفتين محتقن الوجه - فلقد أصر على الاشتراك في تشييع الجنازة في اليوم التالي ، بحجة أنه : « لازم واحد فينا يكون جنبه قبل ما يغيب جوه الأرض للأبد ! » ... كانت الجملة تبدو حاسمة في منطقتها ، لكن البعض - ممن اشتركوا في الجدل يومها - كان يرى أن الشيء الذي حسم الأمر حسماً نهائياً ، هو قول عزيز الجبالي :

« وعلشان يلاقى اللي يصلى عليه صلاة الجنازة قبل ما يندفن ! »
كان ماطلبه - في واقع الأمر - ضد كل قوانين الأمن وكل الأعراف السارية بصرامة في أجهزة المخابرات في العالم كله ... ولقد كان موضوعاً في الاعتبار ، أن بعض الشخصيات الاسرائيلية ذات المكانة ، قد تطير الى ألمانيا كي تشترك في تشييع الجنازة ، فلم يكن « ديفيد شارل

سمحون « شخصية اسرائيلية عادية ، بل كان رجل أعمال بارزاً ،
توسعت أعماله في السنوات الأخيرة فشملت مجالات حيوية شديدة
الأهمية ، كما كانت له علاقات اجتماعية واقتصادية بل وسياسية على
درجة رفيعة داخل اسرائيل . . ثم ، لقد كان من الممكن أن يسافر أى
انسان آخر غير عزيز الجبالى كى يشيع الصديق الذى ذهب . . وكى
يصلى عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الاسلامية ، لكن المدهش فى
الأمر ، أن عزيز الجبالى - ولم تكن مكانته ولا خبرته ولا مركزه تسمح له بأن
يرتكب حماقة - أصر على الذهاب بنفسه . . ولم يكن أمام جهاز
المخابرات المصرى - كمنظمة - !! - إلا أن يضع فى اعتباره تلك
العوامل الانسانية تحت شرط واحد وصارم ، وهو أن تتوافر كل عناصر
الأمن ، وفى اقصى درجاتها ، لعزيز الجبالى .

.
.

كان عزيز بطبيعة الحال قادراً على أن يوفر هذه العناصر على أعلى
درجة من الكفاءة ولذلك ، فقبل أن تغيب شمس ذلك اليوم
السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، وقبل أن يصعد عزيز الى الطائرة
فى طريقه الى ألمانيا الغربية عبر مسارات مركبة ومدروسة بعناية فائقة . . .
كانت برقية شفرية قد خرجت من القاهرة لتصل إلى مدينة
« دوسلدورف » - حيث محطة الوصول بالنسبة لعزيز - حاملة نبأ
وصوله .

وهو ، عندما هبطت به الطائرة فى مطار « دوسلدورف » كى يركب
خطاً داخلياً إلى مدينة هامبورج القريبة من « بريمن » حيث كان يعيش
« ديفيد شارل سمحون » ، لم يكن شىء قد زاد على هيئته سوى نظارة

طبية ذات تكوين خاص يوحى بأن صاحبها طبيب ظل ينحني على مرضاه طوال سنوات تزيد على ربع القرن . . . في المطار التقى بصديق كان في انتظاره ، حتى إذا ماجاء صباح اليوم التالي كانا معاً في « بريمن » ، وكانت - قبل وصولهما - « زيارة » قد رتبت للسيد عزيز كى يلقي نظرة أخيرة على الفقيد ، وأن يعطى الفرصة كاملة ، وفي أمان تام ، كى يصلى عليه صلاة الجنازة حسب الشريعة الاسلامية !

رغم الحزن البالغ الذى كان يعتصر قلب عزيز على صديقه الراحل ، لم يستطع إلا أن يبدي اعجابه الشديد بأصدقائه وزملائه ورجاله فى ألمانيا الغربية ، الذين استطاعوا - فى زمن فوق القياسى - أن يرتبوا كل شىء بدقة تبعث على الدهشة فى الصباح المبكر لليوم الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ ، كانت هناك سيارة سوداء فاخرة ، تابعة لمحل « الحانوتى » الذى كان مكلفاً بأعداد جثمان المرحوم « ديثيد شارل سمحون » ، وكان عزيز يدلف إليها وقد ارتدى بذلة سوادى أنيقة وغالية الثمن ، من هذا النوع الذى يرتديه الكبار فى مثل هذه المهنة وكان يضم الى صدره كتاباً مقدساً - هو القرآن بالتأكيد - وكان - قبل أن يغادر مكمنه - قد توضأ وصلى ركعتين على روح الفقيد داعياً له بالرحمة وعندما انطلقت السيارة فى شوارع « بريمن » ، كان « السيد » الجالس فى الخلف يتمتم بآيات من القرآن الكريم ، حتى اذا وصلت السيارة الى بيت المرحوم ديثيد شارل سمحون ، وعند الباب الخلفى ، لا الأمامى ، توقفت السيارة ، وهبط منها عزيز يصاحبه المساعد - مساعد الحانوتى - الذى كان معروفاً لأهل البيت والبلدة ، وكان يركب الى جوار السائق ! !
كان المساعد - الذى اشترك فى هذه الزيارة - مرتاح الضمير تماماً ،

لا لأن عدد الماركات الألمانية الذى حصل عليه سرّاً كان مجزياً بحق ، ولكن لأنه كان يؤدى خدمة انسانية ودينية . . . فلقد قيل له - فى مساء اليوم السابق ، وبعد وصول رسالة شفرية كان مصدرها القاهرة - إن المرحوم « ديفيد شارل سمحون » كان يتبع مذهباً خاصاً فى الديانة اليهودية ، يحتاج إلى طقوس معينة ، وإن هذا السيد البادى الحزن الصامت القابض على الكتاب المقدس ، هو واحد من أصدقاء المرحوم ، فوق أنه رجل من رجال الدين . . . وعلى هذا ، فما ان توقفت السيارة السوداء أمام الباب الخلفى حتى فتح هذا الباب وظهر فيه رجل مسن ، أنيق المظهر ، بادره المساعد بالتحية فور رؤيته :

« صباح الخير فرانز ! »

« صباح الخير يوهان ! »

« كيف حال فراو سمحون هذا الصباح ؟ ! »

« لاتزال فى غرفتها ، وان كان الحزن سيقضى عليها ! »

« ماذا عن الصغيرين ؟ ! »

« سوف يحضران من المدرسة بعد قليل ! »

« هل كل شىء جاهز ؟ ! »

أفسح فرانز لهما الطريق :

« تفضلاً من هنا ! »

« أرجو الا تقلق فراو سمحون كما اتفقنا ! »

« لاتخش شيئاً يا صديقى . . تفضلاً ! »

قادهما فرانز العجوز - كبير الخدم فى البيت - إلى حيث الغرفة التى يرقد فيها جثمان الفقيد . . . وعند الباب ، همس المساعد فى أذن كبير

الخدم :

« لم لاتقدم لى فنجانا من القهوة ؟ ! »

ولقد فهم فرانز ، على الفور ، ففتح باب الغرفة موسعا الطريق لـ « السيد » ، ثم أغلق الباب وراءه !

وكانت هذه - ربما - أصعب لحظات مرت بضابط المخابرات المصرى « عزيز الجبالى » فى عمره كله !

ذلك أن « عزيز الجبالى » لم يكن رجلا عاديا ، فلقد قضى من عمره خمسة وعشرين عاما فى مهنته تلك ، وهو ، عندما يتذكر مامر به من أحداث وتجارب ، لا يملك نفسه من الدهشة والتساؤل : كيف يحتمل عمر إنسان واحد كل هذه الاحداث ؟ . . . ولقد عود نفسه وربّاهما - مثله مثل كل ضباط المخابرات فى العالم - على مواجهة كل الاحتمالات مهما كانت ، لكنه - فى ذلك الوقت المبكر من الصباح ، وعندما دخل إلى الغرفة التى تضم جثمان صديقه فى صندوق أنيق من خشب غالى الثمن - كان مستعدا لمواجهة أى موقف يطرأ بين لحظة وأخرى إلا أن يجد نفسه فى مواجهة ، صريحة ، مع « ديفيد » !!

عشرون عاما قضاها معه ... عشرون عاما لم يكف عن الحوار يوما حتى أصبح « ديفيد » جزءا من حياته ، وجزءا هاما وخطيرا من أمن أمته والشعب الذى ينتمى اليه . . . وهو عندما دلف إلى الغرفة ، كان يظن أنه سيقف أمام صندوق مغلق ، لكن المفاجأة كانت أن غطاء الصندوق مرفوع . . . وأن ديفيد كان يرقد هناك بملابسه كاملة !

عاش كل هذه السنوات مع ديفيد دون أن يلتقيا مرة ، وكم تمنى لو أن هذا حدث ، ولكم طالب ديفيد بأن يراه طوال تلك السنين ،



ظريف

بريشة، رضا عند السلام

ولكن ... هاهما يلتقيان - لأول مرة - وقد رحل أحدها إلى العالم الآخر ..

وقف عزيز ينظر الى الوجه الساكن أمامه ، نفس الوجه الذى رآه فى صورة صغير ذات ليلة من ليالى يوليو الحارة فى القاهرة منذ ما يقرب من عشرين عاماً ، نفس الابتسامة التى تدعوك الى الثقة بصاحبها والحذر منه فى نفس الوقت ، نفس السباحة والملامح المنبسطة حتى يصبح من الصعب تحديد هوية صاحبها !!
دمعت عيناه !!!

نعم ... حدث هذا !
لكنه سرعان ما تمالك حزنه ، ووضع نظارته الطبية وفتح المصحف ، وراح يقرأ سورة « يس » !
بعد أن انتهى من القراءة ، وضع المصحف جانبا ، ثم كبر للصلاة ... ووقف يصلى !
عندما سلم عزيز منبها صلواته ، أحس براحة شديدة تغمره وكأنه أزاح عبئا كان يثقل كاهله ... ومالبت أن نظر فى ساعته ، وكان عليه أن ينصرف فهمس :
« مع السلامة يارأفت »

.....

.....

ظل الحوار دائرا فى مكتب رئيس شعبة الخدمة السرية بعض الوقت ... وفى الحقيقة ، فلقد كانت هناك نقطتان دار حولهما الحوار ... أما النقطة الأولى فهى : ما الذى يمكن أن يقال للسيدة سمحون إذا ما سألت عن حقيقة زوجها ؟ ، ولأن الرجال لم يكونوا يعرفون مدى معرفتها بالأمر كله ، فلقد كان القرار الذى اتخذ فى ذلك

الاجتماع هو أنه من الأفضل أن توضع الحقيقة بين يديها كاملة ، إن من حق ولديها أن يعرفا أى رجل كان « ديثيد شارل سمحون » .
أما النقطة الثانية فكانت : ما الذى يمكن أن تقدمه مصر للسيدة سمحون وولديها منه ؟ !... إنها بالطبع لن تكون فى حاجة الى المال ، فلقد ترك لها ديثيد عددا لا بأس به من ملايين الماركات الألمانية والدولارات الأمريكية ، كما أنها - وهى سيدة أعمال - تملك عددا من الملايين لا يقل عما كان يملكه زوجها ... ولذلك ، فلقد استقر الرأى على أن تعامل السيدة سمحون هى وولداها كما لو كان ديثيد نفسه هو الذى يطلب !

وهكذا استقر الأمر ، وانتهى الاجتماع !



فى التاسعة من صباح اليوم التالى لوصول هذه الرسالة الغربية الى القاهرة ... دق جرس التليفون فى بيت المرحوم « ديثيد شارل سمحون » الاسرائيلى الجنسية ، والذى كان يعيش فى مدينة « بريمن » الألمانية ، التى لا تبعد كثيرا عن مدينة هامبورج ، منذ أكثر من خمس سنوات مع زوجته سيدة الأعمال الألمانية التى كانت تحمل اسم « هيلين ريشتر » قبل أن تقترن به ، وولديها اللذين كانا يحملان اسمين غربيين على الأذان فى ألمانيا ... غير أن بعض من تعرف إلى عائلة سمحون فى بريمن ، أرجعوا الاسمين إلى اللغة العبرية ! !

لم يكن بيت اهر « سمحون » قصرا بالمعنى المعروف لهذا الكلمة ، كما أنه لم يكن « قبيلا » صغيرة ... بل كان بيتا ذا طراز خاص ، يوحى لمن يراه ، بأن صاحبه بالقطع من أصحاب الملايين ... وكان أكثر ما يميز حديقته ، تلك النباتات التى تنمو عادة فى الشرق الأوسط ،

والتي كان اهر سمحون يعشقها عشقا بالغاً ، ويصر - خاصة في أيامه الأخير- على رعايتها بنفسه .

في الداخل ... كان بهو البيت واسعاً ، ومكوناً من ثلاثة أقسام ينساب كل قسم منها الى الآخر من خلال تنويعات الأثاث والديكور ، انسياباً ينبىء عن ذوق رفيع ... كان الأثاث فاخراً ، والستائر البيضاء مسدلة على النوافذ الزجاجية فيما عدا الباب المؤدى الى الحديقة ، حيث كانت « فراو سمحون » تجلس الآن ، فلم تكن هناك ستائر تحجب عنها المنظر الجميل لحديقة بيتها ... على الحيطان ، علق عدد بسيط ومتناثر ومتباعداً في نفس الوقت ، من اللوحات الثمينة ، بحيث تبدو كل لوحة وكأنها في معرض قائم بذاته ، لا تشغل العين عنها لوحة أخرى ، أو حتى تحفة غالية الثمن ! ... في الصدر تماماً كان البيانو الأبيض هو أكثر ما يجذب نظر الزائر ، فلقد كانت المساحة المحيطة به ، تكاد تكون خالية الا من مقعدين يرجع طرازهما الى القرن الخامس عشر !

عندما دق جرس التليفون ، كانت فراو سمحون قد انتهت لتوها من قراءة مقال في إحدى المجلات الاقتصادية الشهيرة ... وكان المقال الذي استغرقت في قراءته باهتمام أثناء تناولها لقهوة الصباح ، مليئاً بالأرقام والرسوم البيانية غير أن هذه الرسوم ، مع بعض الصور المنشورة لبعض رجال الأعمال العرب ، كانت توحى بوضوح بأن المقال يدور حول البترول .

ومنذ قرابة شهرين ، عندما توفي اهر « ديفيد شارل سمحون » بعد مرض عانى منه كثيراً ، كانت السيدة سمحون تعيش في دوامة عنيفة

من القلق . . . غير أن هذا القلق ازدادت حدته ، يوم ظنت أنها - بما أقدمت عليه أخيرا - تتخلص منه !!

كان مقاله ديفيد وهو محتضر ، مروعا ومخيفا وهائلا في نفس الوقت ، بدا لها الأمر كله غير مفهوم ، لكنها ، وقد مرت سحابة الحزن قليلا ، وجدت نفسها أمام طريق واحد لا بديل له . . . وازداد خوفها ووقعت في حيرة طالت لأسابيع كانت تتمزق فيها . . . وهي - في البداية - وعندما أفضى ديفيد بما أفضى به اليها ، ظنته يهذى لفرط ما كان يعانيه من الآم وصلت في أيامه الأخيرة الى حد أن عجز الطب عن تسكينها لكن نظرات عينيه ، وذلك الهدوء الغريب الذي سيطر على ملامحه وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئا رهيبا ، ويده التي أمسكت بيدها وكأنه يتوسل توسلا غامضا من أجل هدف غامض كل هذا جعلها تفكر في الأمر مرة ومرة ومرة ، ثم استبعدت فكرة الهذيان نهائيا !

.
.

رحل ديفيد منذ ما يقرب من شهرين ، ولم يكن ممكنا بأى حال من الأحوال ، أن تبوح لأحد بما باح لها به فهي تعرف جيدا ما الذي يمكن أن يفعله الاسرائيليون بها وبالولدين جميعا وهي عندما تعرفت إلى ديفيد أول مرة منذ ما يقرب من سبع سنوات ، وعندما أحست أنها تنزلق الى حب غامض ، ومنذ اللحظة الأولى التي أحست فيها بتلك العاطفة كانت الأزمة التي عانت منها ، ليس أنها تجاوزت سن الحب والزواج وبناء أسرة جديدة ، ولكنها أزمة كانت تتلخص في سؤال ألح عليها طويلا : كيف تقع في حب اسرائيلي ؟ ! .
لم تكن « فراو ريشتر » - كان هذا اسمها في ذلك الوقت - عجوزا

تحمل ذكريات ما كان بين شعبها وبين اليهود من عدااء ، لكنه ذلك الإحساس الغامض والغريب والمترسب في أعماق نفسها ، ذلك الاحساس الذى بدا واضحا أشد ما يكون الوضوح عندما أفضت الى « ليندا » - مديرة مكتبها وصديقتها الحميمة - بما يعتمل في نفسها ، فهتفت ليندا :

« هيلين هل تستطيعين ؟ ! »

« ولكنى أظن أنى أحبه ! »

حذرتها ليندا فى وضوح :

« لاتنسى أنه يهودى ؟ ! »

لوححت بذراعها فى ضيق :

« اللعنة ! »

« واسرائيلى ! »

صاحت فى وجه ليندا :

« هل أنت عنصرية ؟ ! »

هزت ليندا رأسها ضاحكة وقد أدركت انه لاجدوى من المناقشة

وهى تقول ساخرة :

« ليس بالضرورة يا عزيزتى ليس بالضرورة ! »

وتزوجته ! !

وأصبح اسمها « فراو سمحون » وكانت سعيدة بهذا الزواج

الذى أثمر - رغم سنها - ولدين لقد وقعت هيلين فى حب ديثيد

حقا ، غير أنها غاصت فى هذا الحب حتى أذنيها بعد الزواج كان

ديثيد رجلاً يعرف كيف يتعامل مع المرأة ، كيف يدللها ومتى ؟

وكيف ينهرها في الوقت المناسب . . . ومتى يبثها حبه وكيف يجعلها
تشتاق إلى كلمة منه . . . هكذا كان ديفيد ، لكن شيئا ما ، غامضا
وغريبا ، ظل معلقا فوق رأسها طوال حياتها معه . . . شيئا لاتدرية
ولاتعرفه . . . كانت - على سبيل المثال - تداعبه في أحيان كثيرة قائلة :
انه لايمكن أن يكون يهوديا أو اسرائيليا . . . وكان المدهش في الأمر ،
أن هذا لم يكن يغضبه ، بل كانت تبدو على وجهه علامات سعادة
لاتخطئها العين !

لكنه ذهب ! !

ذهب بغموضه وحنانه ورقته ورجولته التي كانت تبدو في بعض
الأحيان وكأنها تاج يتحلى به !

ولقد قاوم ديفيد طويلا قبل أن يذهب ، عانى الأما مبرحة !

وليته ذهب حاملا سره معه !

وليتها ظلت كاتمه لهذا السر وكأنها لم تسمعه . . . ولكن كيف ؟ !
كيف وهى - منذ أن رحل - لم تعرف للراحة طعما . . . كانت تنظر إلى
الصغيرين فتشعر بثقل المسؤولية . . . ولو لم يكن الأمر يعنى ديفيد لما باح
لها به وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وكأنه يحملها أمانة كان عليها أن
تؤديها . . . غير أن مجرد التفكير ، فيما لو عرف الاسرائيليون ، كان
يبعث بالرعب إلى أوصالها ، لاعلى نفسها وحياتها ، بل على حياة
ولديها !

قراءة خمسين يوما منذ أن رحل وهى تدور في دوامة بلا نهاية . . . حتى
كانت تلك الليلة التى التقت فيها برجل الأعمال المصرى « نهاد كامل » !
كان نهاد صديقا قديما تعرفت إليه قبل أن تتعرف إلى ديفيد

تسنوات ، كان دائما ما يظهر ثم يختفى ثم يظهر وكأنه كان دائما هناك هو من هذا النوع من الشباب الذى يتميز بالبرقة والذكاء معا ، ولقد اختفى سنوات طويلة كانت تسمع فيها عنه ، عرفت مرة أنه يعيش فى استراليا ، وسمعت مرة أنه عاد إلى مصر ، ومرة ثالثة قالوا لها انه استقر فى كندا . . . لكنها كانت تدرك سر ابتعاده عنها - كصديق ورجل أعمال معا - منذ أن تزوجت ديفيد . . . وهى قد قدرت هذا الابتعاد ، الذى تحتمه على رجال الأعمال العرب ، تلك الظروف السياسية الشديدة التعقيد التى تولدت فى الشرق الأوسط منذ أن قامت فيه دولة اسرائيل !

ظهر نهاد هذه المرة وكان يسعى لعقد صفقة طائرات لا بأس بها . . . جرت المفاوضات بينها سلسلة سهلة ، حتى إذا ما بدا أن الاتفاق على وشك أن يتم ، دعاها ذات ليلة الى العشاء !

وهى - فى حقيقة الأمر - كانت تسعى الى هذه الدعوة ، بل ربما هى التى دفعته لأن يدعوها . . . كانت تعرف أن « نهاد » ضابط سابق فى الجيش المصرى ، وأن له علاقات طيبة مع بعض المسئولين فى بلاده . . . فسألته فى لحظة جمعت فيها كل ماتملك من شجاعة ، إن كان يستطيع أن يحمل عنها رسالة إلى مصر؟ ! . . . قال نهاد :

« سأطير إلى القاهرة فى الأسبوع القادم وأنا فى طريقى إلى المملكة العربية السعودية ! »

« ولكنى أريد منك وعدا ب »

وصمتت هيلين ، ولا بد أن ملاحظتها عكست ذلك القلق المدمر فى

صدرها ، فلقد سددها إليها نهاد نظرة ثابتة وهو يسأل :

« هيلين . . . ماذا بك ؟ ! »

كانا صديقين قديمين ، وكان يستطيع بطبيعة الحال أن يناديها باسمها الأول ، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك ، فإن هذا أصبح لا يعينها في كثير أو قليل !

« هيلين ! »

جاءها صوته دافئا مفعما بالحرارة .

« هيا بنا ! »

قالت هذا ونهضت وكأنها تريد أن تهرب من نفسها ، نهض نهاد مليا وقد أدرك أن في الأمر سرا يقلقها . . . وفي السيارة التي كان يقودها الشاب المصري ، ساد الصمت طويلا ، ولم يحاول هو من ناحيته أن يقطع عليها الصمت ، حتى قالت فجأة :

« سأكتب الرسالة ، وسأطلعك عليها ، لكنني سأطلب إليك طلبا

واحدا ! »

« ماهو ؟ ! »

« ألا تسألني سؤالا واحدا حول الموضوع ، حتى أفتحك أنا فيه ! »

« لك هذا ! »

« وألا تخبر مخلوقا ، أيا ما كانت ثققتك به ، عن هذا الأمر ! »

« ولك هذا أيضا ! »

« حسن . . . ترى أية لغة يفضلها المصريون ؟ ! »

« الانجليزية ، فهي اللغة الأجنبية السائدة هناك ! »

وهكذا . . . في اليوم التالي ، اجتمعت هيلين سمحون مع نهاد كامل على غداء عمل في مطعم يقع في نفس المبنى الذي يضم مكاتب

شركتها ... وكانت هيلين تحمل ملفاً أنيقاً يخوى بعض الأوراق والرسوم المتعلقة بصفحة الطائرات ، قدمت له الملف وهي تقول :
« ستجد الظرف مفتوحاً في هذا الملف ، لك أن تقرأ الرسالة ، ثم تغلق الظرف ! »

« ولمن أسلمها ؟ ! »

صمشت هيلين برهة ، تشاغلت فيها بقطعة السمك الراقدة في طبقها ، لكنها ما لبثت أن قالت :

« لرئيس جهاز المخابرات المصرى ! »

قالت هذا وقد تعلقت عيناها بوجه نهاد في محاولة لقراءة رد فعل ماقالته ، لكن ملامح الشاب ظلت جامدة ، هادئة تماماً ، فعادت تؤكد من جديد :

« لرئيس جهاز المخابرات المصرى وليس لأحد سواه ! »

ظل وجه نهاد جامداً وكأنه لم يسمع شيئاً ، رفع إليها عينيه الملونتين وقال في هدوء وبساطة :

« سأسلمها له يداً بيداً فلا تقلقى ! »

ياللرعب المدمر عندما يستحوذ على الانسان ... ما إن انصرف « نهاد كامل » حتى عصفت بها الهواجس ... ما الذى يدرىها أن الرسالة لن تقع فى أيدي الاسرائيليين ، حقا لقد انتهت الحرب بينهم وبين المصريين ، ولكن ... إن سرها الدفين هذا لاعلاقة له بحرب أو سلام !

ظلت هيلين مضطربة بالرغم من أنها أخذت للأمر كل حيطة ، كتبت الرسالة على آلة كاتبة بعيدة عن شركتها وعلى ورق عادى ، لم

تضع توقيعها عليها وليس هناك ما يدل على أية علاقة لها بها سوى ذلك المظروف الخالى الذى تستطيع أن تتصل من معرفة أى شىء عنه . . . ثم . . . ثم إن نهاد لن يغادر ألمانيا قبل الأسبوع القادم ، فلم لم تسلمه الرسالة قبل سفر بيوم أو فى نفس يوم سفره ؟ !

وحتى عندما تحدث إليها نهاد تليفونيا فى عصر ذلك اليوم الذى تسلم فيه الرسالة قائلًا إن برقية عاجلة وصلتته من القاهرة فقرر السفر فى نفس الليلة ، حتى عندما فعل هذا أحست بالخوف يعصف بها عصفًا !

وهكذا . . . ظلت السيدة هيلين سمحون نهبا لقلق مدمر لأكثر من أربعين ساعة ، حتى دق جرس التليفون فى بيتها ، فى التاسعة من صباح ذلك اليوم من أيام يناير عام ١٩٧٩ .



دق جرس التليفون فالتفتت هيلين دون أن تتحرك من مكانها ، أحست بالاضطراب فعالجته بأن رفعت فنجان القهوة الى شفيتها وهى تلتقط فى نفس الوقت إحدى المجلات الفرنسية . . . على الفور ظهرت « أولجا » - سكرتيرتها - من الداخل وهى تسير بتلك الخطى السابحة فى الهواء بلا صوت . . . من طرف خفى راحت ترقبها وهى ترفع سماعة التليفون الى أذنها . . . سرت فى جسدها قشعريرة حاولت السيطرة عليها بكل ماتملك من قوة ، تظاهرت بتقليب صفحات المجلة الفرنسية لكن عينيها كانتا تتلصصان نحو « أولجا » التى كانت تتحدث بصوتها الهامس وقد بدت عليها الحيرة . . . ولقد كانت تتساءل قبل أن يدق جرس التليفون بثوان عما اذا كان « نهاد كامل » قد سلم الرسالة ، وعما

إذا كان « جواب ما » سوف يأتيها من القاهرة ، لكنها سرعان ما سخرت من نفسها فنهاد لم يغادر ألمانيا إلا منذ ست وثلاثين ساعة ولا يمكن أن يكون الأمر قد تم بهذه السرعة في بلد كمصر !

وضعت « أولجا » الساعة فوق الحامل الأنيق المجاور للتليفون . . . اضطربت هيلين وهى تتساءل : هل من الممكن أن يكون لهذه المكالمات علاقة برسالتها ؟ . . . ليست السرعة والاهتمام بقيمة الوقت من صفات العرب ، لكنها قد تكون من صفات الاسرائيليين . . . ها هوذا الرعب يأتيها أثر خطأ وقعت فيه فأين المفر ؟ !

« سيدتى . . . هناك شخص يقول إنه صديق قديم للهر سمحون ! »

فى هدوء أعادت هيلين فنجان القهوة الى المائدة ، رفعت الى السكرتيرة عينين متسائلتين ، فقالت هذه :

« إن فى صوته لكنة شرقية ! »

ازداد البريق المتسائل فى عينيها فعادت السكرتيرة تقول وكأنها تعتذر :

« ربما كان آتيا من إسرائيل ! »

اندبت الكلمة فى صدرها فأحست بالألم ، أرادت أن تخفى اضطرابها فنهضت مشيخة عن السكرتيرة ، وكان هذا إيذانا للفتاة بالانصراف فانصرفت . خطت هيلين نحو التليفون فخيل اليها أنها تترنح ، جاءها الصوت من الطرف الآخر متسائلا :

« فراو سمحون ؟ ! »

« نعم ! »

« أنا صديق قديم للهر سمحون ، ولقد وصلتني رسالتك
بالأمس ! »

على الفور هتفت مستنكرة :

« أية رسالة ؟ ! »

جاء سؤالها سريعا كطلقة مباغته ، ران الصمت لثوان خاطفة سرى
بعدها الصوت الى أذنها واثقا ثابت النبرات :

« لقد جئت كى أقدم لك خالص عزائى ياسيدتى ! »

غلبها الخوف والحذر فعادت تلح :

« ولكنك تتحدث عن رسالة ، أية رسالة هذه ! »

فى بساطة من يسيطر على الأمر تماما ، عاد الصوت يقول :

« ربما كان فى الأمر خطأ ما . . . ولكنى اعتقد أنه يهملك - كما يهمنى

بالطبع - أن نصفى ذلك الموقف بين شركتىنا ! »

فى إصرار عادت تستنكر :

« شركتىنا ؟ ! »

« كنت أظن أنك تحدثت فى الأمر مع الهر نهاد كامل ! »

أحست وكأنها محاصرة ، فغمغمت :

« لكنى لن أذهب الى مكتبى فى هامبورج حتى نهاية الأسبوع ! »

« إن لم يضايقك هذا ياسيدتى ، فنحن على استعداد لزيارتك فى

بريمن ! »

« أنتم ؟ ! »

« نعم أنا وشريكى الذى يعنيه أن يلتقى بالصغيرين العزيزين ! »

« الصغيرين ؟ ! »

« كان شريكى صديقا حميما للهر سمحون ! »

« لكن الطفلين لا يعودان من المدرسة إلا في عطلة نهاية الأسبوع ! »
غمغم صاحب الصوت الآتى عبر السحابة :
« هذا من سوء حظنا حقا ! »

قال هذا ، فساد الصمت . كانت جملة الأخيرة تعنى أنه - الآن -
يترك لها حرية الاختيار ترددت فترة طالت بعض الشيء ، كانت
ممزقة ، حائرة ، وكانت خائفة ولقد ظل الصمت آتيا من الطرف
الآخر ، حتى إذا كانت لحظة ، أدركت أنه لا سبيل إلى التراجع ، وأن
حسن التصرف يستلزم منها أن تسير في الشوط حتى نهايته :

« حسن أيها السيد يمكنني استقبالكما في الخامسة من بعد ظهر
اليوم ! »

« شكرا ياسيدتى ! »

« هل أعطيك العنوان ؟ ! »

« لست أعتقد أننا في حاجة إليه ! »

« إلى اللقاء إذن ! »

قالت هذا وهي تعيد السحابة إلى مكانها ، دون أن تنتظر من الرجل

ردا !!

الفصل الثانى

البحث عن الحقيقة

لم تكن السيدة « هيلين سمحون » من ذلك النوع من النساء اللاتي يستعذبن الضعف أو يستسلمن للخوف... ففوق تربيتها الألمانية الصارمة ، واعتزازها بالانتماء الى شعب كانت - ولا تزال - مؤمنة أشد ما يكون الايمان أنه يستطيع تحقيق المعجزات... فقد ولدت في حجر الآلام والهزيمة والدمار وأحذية الجنود الغليظة تطأ أرض بلدتها الصغيرة في عجرفة واستعلاء... ولولا تلك القصص التي عاشتها وعاصرتها وسمعت عنها منذ أن وعت عيناها حقائق الحياة ، لولا معرفتها اليقينية بما يمكن أن يفعله الاسرائيليون خاصة مع بنى جنسها ، بالحق وبالباطل ، لعاجت الأمر بأسلوب مختلف... لقد عاشت المأساة طفلة ، فرض عليها قدرها أن تأتي الى هذه الدنيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ببضعة أشهر ، فتمت في احضان الكارثة ، وكان عليها أن ترى بعيني طفلة كيف انهار كل شيء ، وكيف كان على بنى جنسها أن ينهضوا من جديد .

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساء عندما خلا البيت إلا منها
ومن فرانز العجوز ، وهى منذ ان تلقت تلك المكالمة التليفونية فى
الصباح ، راحت تستعد لهذا اللقاء الذى كان مقدر له أن يتم بعد
دقائق . . . صرفت الخدم والسكرتيرة ولم تستبق معها سوى وصيفها
ومدير بيتها ومخزن أسرارها وصديقها الوفى لخمسة وعشرين عاما
طلبت إلى فرانز أن يبقى الى جوارها فرحب العجوز بعد أن لاحظ
توترها ، لكنه لم يسأل عن الأسباب تأديبا ، ومنذ أن خلا البيت الا منها
ومنه ، وهودائها هناك ، ما إن تحتاج الى شىء ، أو تطلب شيئا ، حتى
تجده ملبيا بأسرع مما أعتاد ، بل ربما أسرع مما يجب !!

كلما اقتربت الساعة من الخامسة ازداد توترها ، راحت تذرع البهو
الفسيح جيئة وذهابا ، من خلف زجاج النوافذ كانت ترقب الثلج
المنذوف وهو يتهادى صابغا الدنيا بلونه الأبيض ، كم كان ديفيد يحب
منظر الثلج هذا ، كم كان يطرب كطفل وهو يصيح فيها طالبا اليها أن
تأتى لتشاهد سقوطه معه ، شرقيا كان ديفيد ، شرقيا حتى
النخاع ! . . . هذا الثعلب الذى ، منذ أن التقت به ، وهويهديا
المفاجأة تلو المفاجأة . . . لكن مفاجأته الأخيرة ، فاقت كل خيال !

كم كان العمر شاقا وكم كان المشوار طويلا من هناك ، من
أقصى الجنوب الألمانى ، كانت البداية !!

.
.

فى أقصى الجنوب الشرقى لألمانيا ، ولدت « هيلين شيربور » -
هذا هو اسم عائلتها - فى بلدة صغيرة اسمها « خام » - Cham -



- لأب كان يعمل جواهرجيا . . . كانت البلدة جدٌ صغيرة ، وكل الناس فيها يعرفون كل الناس ، ولكن الهر « كارل شيربور » - والد هيلين - كان يتمتع باحترام خاص بين سكان البلدة والقرى المجاورة ، لا لأنه كان على قدر من اليسار ميّزه عن بقية السكان ، ولكن لأنه كان رجلا من هذا النوع الصلب الذى لا تتأثر فيه الأزمات ، ولا ينحنى للعواصف . . . وكم من مآزق وقعت فيها البلدة أثناء الحرب فتخطاها الهر كارل بمهارة وحنكة ، وكم من أياد مدها لأهل بلدته فى صبر وكرم جعلاً للعائلة كلها مكانة خاصة فى قلوب الناس . ولكنه لم يستطع أن يتخطى أزمة الهزيمة والاستسلام ورؤيته لأحدية جنود الاحتلال الغليظة وهى تطأ أرض البلدة التى أحبها . . . فمات ، وكانت هى فى السابعة من عمرها .

.
.

الصمت والخوف والهلع والتوتر ولاشئ سوى نظرات الأب والأم عبر زجاج النافذة الى الطرقات الخالية فى « خام » . . . كان هذا منذ ست وثلاثين سنة كاملة . . . تذكر هى ذلك اليوم وكأنها تراه ماثلا دون أن تغفل منه شيئا . كانت تقبع مع شقيقتيها فى ركن من البيت وكان محظورا عليهن أن يتحركن من مكانهن أو يقتربن من النوافذ أو الباب . . . بالأمس غادر البلدة آخر جندى المانى مشيعا بالدموع والحزن والانتظار القلق والمخيف للغزاة القادمين . . . استيقظت فى الفجر وكان زئير السيارات والدبابات يأتى من بعيد كهزيم رعد لا ينقطع ، الوجمل والقلق واللهفة ونظرات الأم والأب عبر النافذة تتطلع إلى حيث الطابور القادم من خلف التل كالوحش الكاسر ، وهزيم السيارات والدبابات يقترب ويقترب ، وحركة أبيها وهو يذرع

البيت جيئة وذهاباً ، وشحوب أمها وبكاء اختها لكنها ارتجفت حتى الأعماق عندما شهقت أمها مشيرة الى حيث مدخل البلدة فاذا هي قد حوصرت من كل اتجاه... . في الليلة السابقة وبعد انسحاب جنود الوطن وقد أخذ منهم الاعياء والتعب كل مأخذ ، اجتمع الرجال في الكنيسة - هكذا عرفت فيما بعد وهي تستعيد مع الكبار أحداث اليوم المروع - واستقر الرأى على أن يلزم الجميع بيوتهم عند مجيء الامريكيين . . . اتفق أهل البلدة على أن يتركوا الشوارع خالية للغزاة القادمين . . . من الخارج ارتفع صوت يتحدث في الميكرفون بلغة لم تفهمها ، ورأت أباهما ينصت باهتمام وقد شحب لونه شحوبا رهيبا . . . انتهى النداء فاذا الأم تسأل الأب عما يقول صاحب الصوت الزاعق في الميكرفون ، واذا الأب يدمدم في غضب :

« أى جنون هذا ؟ ! »

« ما الذى يطلبه الامريكيون ياكارل ؟ ! »

« انهم لا يطلبون ولكنهم يسألون إن كنا سنستسلم أم سنقاوم ؟ ! »

حاولت الأم تهدئة زوجها فقالت فى رفق :

« أليس هذا من حقهم ؟ ! »

« أى حق والشوارع خالية والأبواب موصدة ! »

« كارل »

اختنق صوت الأب واحتقن وجهه وهو يهدد :

« إنه الاذلال . . . إنهم يريدون اذلالنا ! »

عاد الصوت يسرى فى سماء البلدة عبر الميكرفون فصاح الأب :

« انه يسأل مرة أخرى . . . انه يعيد السؤال ! »

هتفت الأم فى فزع :

« لم لانعطيهم ما يريدون ؟ ! »

التفت الهركارل نحو زوجته وكانت نظراته تطلق حمماً ، فصاحت
الأم ملتاعة :

« من أجل البصغار . . . من أجل كل الصغار في البلدة ياكارل ! »
همّ الرجل بالرد لكن نظرة منه حانت نحو النافذة فإذا به يتصلب
كمن مسته صاعقة ، بدا جاحظ العينين شاحب الوجه مرتجف
الملامح . . . اندفعت زوجته نحو النافذة في هلع :

« كارل . . . ماذا هنالك ؟ ! »

ما إن وصلت إلى النافذة والقت ببصرها إلى الخارج حتى ارتدت
شاهقة :

« انهم يرفعون العلم الأبيض فوق الكنيسة ! »

عاد الصوت الزاعق في الخارج عبر الميكروفون يتصايح من جديد ،
اختنق صوت الأم متسائلة في هلع :

« ماذا يقول هذا الجندي بحق السماء ؟ ! »

ترنح الهركارل في وقفته ، خطا نحو مقعده والقى بنفسه فوقه وهو
يقول :

« أنه يطلب إلى كل بيت أن يرفع على بابه علماً أبيض ! »

ككرة من مطاط ارتدت زوجته نحو دولااب في طرف المكان وهي
تهتف :

« فلنعطهم ما يريدون ! »

وكان الأب يتمتم :

« إنه الإذلال . . . إنه الإذلال ! »

في هلع كانت الأم تبحث في الدولااب حتى أخرجت منه مفرشاً

أبيض فردته أمام زوجها الذى رفع رأسه اليها وقد جحظت عيناه وأحمرتا
وكانت هى تتوسل :

« ليس من أجلنا ، ولكن من أجل الصغار ! »

ونكس الرجل الشاهق رأسه . هيلين لاتنسى تلك اللحظة ولو
عاشت ألف عام ، رأت أباهما ينكس رأسه ، وجسده يهتز بعنف ،
ودموعه تتساقط ! !

وعندما كانت الأم تضع المفروش فوق عصاه أنتت بها من الداخل ،
وعندما فتحت باب البيت وتقدمت حاملة علمها الأبيض كى تعلقه
على الباب ، كان الأب ينوح :

« انتهى كل شىء ، انتهى كل شىء ! »

يومها أقسمت هيلين شيربور- وهى فى السابعة من عمرها - ألا
ترفع العلم الأبيض مرة أخرى ، أبداً !

.
.

« سيدتى . . . سيدتى ! »

التفتت هيلين نحو فرانز فى دهشة ، كان هذا قد اقترب منها حتى
كاد يلتصق بها

« ماذا بك يا فرانز ؟ »

« هل سيدتى على مايرام ؟ »

دهشت وهى تستدير بكليتها نحوه :

« نعم . . . لم السؤال ! ! »

فى حنان جاءها صوته :

« عفوا سيدتى . . . ولكنى ظللت أنادى عليك دون أن »

قاطعته وقد أدركت ماحدث :

« كنت أتذكر يوم العلم الأبيض ! »
تقلصت ملامح فرانز فلقد كان يعرف أیه ذكرى أليمه فى حياة سيدته
هذا اليوم . . . تتم :

« هل أنت خائفة ؟ ! » .

« ربما ! »

قالت هذا وهى تهرب من نظراته فعاد يسأل مقتربا من هدفه :

« هل أتیک بالشاى ؟ ! »

نظرت فى ساعة يدها وهى تتمتم :

« ليس هناك وقت ، سيصل الضيفان بعد ثوان ! »

اقترب من هدفه أكثر :

« هل هما غريبان ؟ ! »

« لست أدرى يا فرانز . . . فى الحقيقة انى لا أعرف يقينا ! »

« هل هما اسراييليان ؟ ! »

التفتت نحو العجوز مبتسمة ، قالت :

« أرجو ألا يكونا كذلك ! »

همّ العجوز بالسؤال عندما غمر البهوشعاع ضوء السيارة التى كانت
تقترب من البيت ، التفت كلاهما نحو النافذة ، وكانت السيارة قد
أكملت دورتها حتى توقفت أمام الباب الخارجى للحديقة .

« لقد وصلا ! »

وكانت جملتها ايدانا بانصراف فرانز على عجل كى يستقبل

الضيفين !



لم يكن الضيفان اللذان وصلا الى منزل أرملة المرحوم « ديفيد شارل
سمحون » ، سوى الشابين اللذين ، قبل أربع وعشرين ساعة

بالضبط ، دخلا الى مطار القاهرة الدولى : صاحب المحلات التجارية ، ومهندس التبريد الذى كان فى صحبته .

كان الجو فى الخارج قارس البرد ، ولذلك فعندما عبر الشابان الحديقة ووصلا الى باب البيت ، كان فرانز العجوز هناك فى استقبالتها ، وكانا يرتديان معطفين ثقيلين ، كما كانا يضعان قبعتين تخفيان ملامحهما . . . قال أحدهما مخاطباً فرانز :

« اننا على موعد مع فراوسمخون ! »

« أفسح العجوز الطريق الى الداخل :

« انها فى انتظار كما ياسيدى ! »

دلفا الى البيت بسرعة التماسا للدفع ، أغلق فرانز الباب وتسلم معطفيهما وقبعتيهما ، ثم قادهما الى الداخل . وهناك ، بالقرب من البيانو الأبيض ، كانت « فراوسمخون » تقف فى استقبال ضيفيها !

.
.

كان أكثر ما أدهش السيدة سمخون فى هذين الشابين ، ليس اتقانها اللغة الألمانية فقط ، بل لأنها أيضا كانا يتقنان فن الحديث !

ما إن اشارت إليهما بالجلوس حتى كان فرانز يدفع أمامه عربة الشاى فى خفة ورشاقة ، حتى استقرت العربة الى جوارها فقال :

« هل تأمر سيدتى بشىء آخر ! »

ابتسمت هيلين وهى تنظر اليه فى امتنان قائلة :

« شكراً يا فرانز ، ويمكنك أن تنصرف إذا أحببت ! »

« سأبقى حتى البى أى طلبات للسيدتين ياسيدتى ! »

جاءت جملة حاسمة حازمة وكأنها قرار فلم تعترض ، أحنى رأسه
في أدب ثم انسحب على الفور ، لمحت السيدة سمحون على وجهي
الشابين علامات اعجاب فقالت مجاملة :
« لا بد أنكما في حاجة إلى شراب ساخن ، فالجو في الخارج شديد
البرودة ! »

ابتسم أحدهما وكانت ملامحه تنبئ عن حزن حقيقي :
« لا يعادل برودة الجو في بلادك ياسيدتي سوى دفء استقبالك
لنا ! »

رفعت اليه عينين دهشتين ، أثلجت المجاملة صدرها ، أرادت أن
تردها له ، قالت وهي تصب الشاي :

« ولا يعادل رقة حديثك سوى اجادتك للغة الألمانية ! »

قال الثاني مبادراً :

« لا بد أن فراو سمحون تعرف مدى اعجاب الشعب المصري بألمانيا
وشعبها ! »

كانت هذه أول إشارة من الشابين تنبئ عن جنسيتها . . . داخلتها
راحة صادرها على الفور خوف عرييد . . . فمن يدرها أنها مصريان
حقاً . . . لقد سافرت الى اسرائيل كما زارت مصر ، وهي تعلم يقيناً أن
الملامح متقاربة الى حد كبير . . . ثم ، ألم يقل لها ديفيد انه ولد في
مصر ، وعاش فيها حتى صدر شبابه ؟ ! !

سرعان ما ردعت في صدرها هذا الاحساس بالارتياح ، قدمت لهما
فنجاني الشاي وسألتهما إن كان أحدهما يرغب في قطعة من
الكعك . . . ما إن اعتذرا ، واعتدلت هي في جلستها ، حتى قال
الأول بأسلوب مباشر :

« سيدتى . . . اسمحى لى أن أقدم لك عزاء الشعب المصرى
والحكومة المصرية وجهاز المخابرات المصرى معاً ! »
أحنت هيلين رأسها شاكرة ، فاستطرد الفتى :

« كان من حسن التدبير أنك أرسلت رسالتك مع الهر نهاد كامل ! »
داهمها اضطراب مفاجىء ، فهاهى تترك لهما الحبل على الغارب
دون أن تحتاط ، هتفت بصوت جاء مرتجفاً بالرغم من لهجة السخرية
التي حاولت اظهارها :

« ألا يحق لى أن اعرف اسم من اتحدث اليه ؟ ! »
همّ الفتى بالحديث ، فوضعت فنجان الشاى جانبا ، واستطردت
وكأنها تقف خلف أحد المتاريس فى ساحة قتال :

« انك ياسيدى لم تقدم لى نفسك صباح اليوم ، وبالرغم من ذلك ،
فلقد سمحت لنفسى أن استقبلك حتى نسوى تلك الأمور التي قلت
إنها معلقة بين شركتينا ! »

لم يسفر هجومها المباغت عن شىء ، فلقد ابتسم الفتى وقال فى
وضوح أسر :

« وهل للاسما فى مثل هذا الموقف قيمة حقيقية ؟ ! »

جاءت كلماته مباغته ، وكان على حق ، فلقد كان يستطيع ، وهو
يستطيع ، أن يدعى لنفسه أى اسم ، ازداد اضطرابها لولا أنه عاد الى
الحديث :

« لقد حمدنا لك أيضا ياسيدتى أنك أرسلت الرسالة على الالة
الكاتبة ، حتى التوقيع ، دون ذكر اسم المرسل اليه ! »

كان يعطيها الدليل الكامل على ان رسالتها قد وصلت اليهم . . .

ولكن ، من هم ؟ ! . . . تلملت في جلستها وهي تفرك كفيها ، فقال
نحوها الفتى وكأنه يعفيها من كل هذا التردد قائلاً :
« لم لانحسم الأمر الآن قبل أن نسترسل في الحديث ؟ ! »

رفعت اليه عينيها متسائلة عما يقصد ، وكان هو يضع فنجان الشاي
جانبا ، ثم يخرج حافظة نقوده ، لتمتد أصابعه اليها في خنكة من يعرف
طريقه جيدا . . . ومالبث أن أخرج ورقة مالية غريبة الشكل ، ونهض
اليها مقدماً تلك الورقة المالية قائلاً :

« هذه نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم ! »

اعتراها اضطراب عنيف ، وتساءلت كيف غفلت عن هذا الأمر ،
وداهمتها صور من الماضي البعيد راحت تتكاثف وتتصاعد الى رأسها في
سرعة فكأنها تفتح جرحاً لم يندمل رغم مرور السنين ، امتدت يدها
لتأخذ نصف الورقة المالية ، هتف في داخلها هاتف أن احذرى فلم
تظهر ما كان يعتدل في صدرها من انفعال ، جاء صوت الشاب واثقا :
« لقد الغى هذا المارك وأنت لاتزالين صبية صغيرة في بلدة خام ! »

كانت نظرة واحدة الى نصف الورقة المالية الذي قدمه لها الشاب
كافية لأن تدرك كل شيء ، لكن هذا الذي قاله جعلها تنتفض
انتفاضة من وجد نفسه عاريا في الطريق العام . . . اختلطت
الذكريات البعيدة والقريبة في اضطراب عنيف ، من هذا الفتى الذي
يعرف عنها كل شيء ؟ . . . ثم من هذا الفتى الذي يعرف حياتها في
« خام » التي غادرتها منذ عشرات السنين وان كانت جذورها لاتزال
باقية في تلك البلدة البعيدة ؟ . . . عادت تنظر الى الورقة المالية في امعان
فلم تستطع أن تخفى اضطرابها الذي تزايد ، وعندما عاد الفتى الى
الحديث رفعت إليه عيني دامتين ، فلأول مرة - منذ أن رحل ديفيد -

كانت تشعر بالراحة والأمان . . . قال الفتى الشرقى وكأنه يداعبها :
« كنت في العاشرة من عمرك عندما الغى هذا المارك . . . أليس
كذلك ؟ ! »

هزت رأسها ايجابا وأيقنت الآن أنها سارت في الطريق الصحيح ،
فعلى أحد وجهي نصف الورقة ، كان خط ديثيد هناك ، وكانت كلماته
تقول : « . . . هؤلاء الناس ، إنهم أهلى ! » ثم كان توقيعه
أيضا ، ذلك التوقيع الذى لا يمكن لعينها أن تخطئه ! !

عاد الفتى الشرقى إلى الحديث مرة أخرى :
« لو أنك بحثت في حافظة نقود الهرسمحون ، فلسوف تجد
النصف الثانى لهذه الورقة المالية ، ولسوف تكتمل الرسالة بالتأكيد ! »
قالت بصوت مرتجف وهى تنهض من مكانها :
« لقد عثرت عليه فى اليوم التالى لوفاته ! »
ابتلعت عيناها الدموع فى محاولة جاهدة لتتمالك نفسها :
« لكم حيرنى الأمر . . . كنت . . . ولكن . . . لا استطيع . . .
ان . . . عفواً . . . لحظة . . . هل ؟ ! ! »

توقفت ، تمالكت نفسها وهى تندفع نحو السلم المؤدى الى الطابق
العلوى :

« هل تسمحان أيها السيدان ، لحظات وأعود اليكما ! » .
هرولت صاعدة الدرج حتى اختفت ، أحس الشابان بحركة
خلفهما فالتفتا بسرعة وكان فرانز يقف هناك عند باب نصف
مغلق . . . ابتسما له فى ود فسأل :
« هل يأمر السيدان بشىء ؟ ! »

قبل أن يرد احدهما عليه ، جاء صوت هيلين وهى تصيح فى لهفة
من فوق الدرج :

« فرانز . . . فرانز ! »

اندفع فرانز مهرولا نحوها وكانت هى تخطف الدرج خطفاً :
« سيدتى ! »

عندما وصلت هيلين الى نهاية الدرج كانت تحمل فى يديها نصفى
ورقة مالية من فئة المائة مارك المانى الذى الغى فى عام ١٩٤٨ ، كان
كل نصف من النصفين مكملا للآخر تماما . . . مدت يديها نحو
العجوز :

« هل تذكر هذه الورقة ؟ ! » .

ولم يكن فرانز فى حاجة لأن ينظر أو يتذكر ، هذا السر الذى أطلعته
عليه سيدته ذات يوم بعد وفاة « السيد » فبدا له لغزا محيرا . . . لم يكن
فى حاجة الى أن ينظر أو يتذكر ، فلقد كان القلق يأكله على سيدته التى
كانت ترتجف الآن أمامه بسعادة غريبة !

.
.

حدث هذا فى اليوم التالى لوفاة الهرسمحون مباشرة . . . كان مقاله
لها ديفيد قبل أن يسلم أنفاسه الأخيرة محيرا ومخيفا ، وأصبح عليها
أن تفكر فيما يجب أن تفعله . . . ولم يكن هذا سهلا ، راحت تقلب الأمر
على كل وجه ، ثم أدركت فى النهاية - من أجل الصغيرين - أنه لا بد
من البحث عن الحقيقة مهما كان الثمن !

فى اليوم التالى للجنائز أغلقت عليها الأبواب ففسر الجميع ما حدث

على انه مزيد من الحزن ، فتحت ادراجها وراجعت اوراقه وقلبت فيها
وقرأت كل سطر وبحثت في كل ملف ، فبدا لها كل شىء طبيعيا
تماما . . . ازدادت حيرتها وكادت تركز الى القول بأن مقاله ديفيد لم
يكن سوى هذيان دفعته اليه الآلام ، عادت الى الاوراق مرة ومرة ولم
يكن معقولا أن يقول ديفيد مقاله دون أن تكون هناك اشارة اليه في
الأوراق . . . لكنها عندما أمسكت بحافظة نقوده عثرت فيها على
نصف ورقة مالية من فئة المائة مارك القديم . . . دهشت وهى تتذكر
تلك الايام السوداء من عام ١٩٤٨ ، عندما الغى المارك الألماني ليحل
محلها مارك جديد ، كانت صببة في العاشرة من عمرها لكنها تذكر جيدا
كيف فقد الناس أموالهم ومدخراتهم بعد ان اصبح على الواحد منهم
ان يغير ما يملك بثلث قيمته فقط ، تذكرت كيف صرفوا لكل فرد
أربعين ماركا وكان عليه أن يبدأ بها حياته من جديد ، من الصفر ومما
تحت الصفر . كان على الشعب الألماني كله أن يبدأ في بناء بلده . . .
غير أن نصف الورقة التى عثرت عليه فى حافظة نقود ديفيد كان يحمل
رسالة موجهة اليها ، رسالة ناقصة . . فعلى أحد وجهى العملة
قرأت :

« هيلين . . ضعى ثقتك فى »

ثم لاشىء !!!

بدا لها الأمر غريبا فعادت تبحث فى أوراقه من جديد لعلها تعثر على
النصف الآخر ، تساءلت بينها وبين نفسها إن كانت هناك علاقة بين
ما أفضى اليها به وبين هذه الورقة المالية الغريبة . . أدركت أنه لا بد
وأن تكون هناك علاقة ما . . . تحدثت إلى فرانز عن الرسالة الناقصة
لكنها لم تجرؤ على البوح له بسرها المروع . . .

و . . . وهاتما النصفان الآن متجاوران في يديها وكانت الرسالة قد اكتملت أمام عينيها وعيني فرانز معاً . . .

راح كل منها يعيد قراءة الرسالة مرة ومرة وكأنه لا يصدق عينيه ، كانت الرسالة تقول بعد أن اكتملت :

« هيلين . . . ضعى ثقتك في هؤلاء الناس ، إنهم أهلى ! »

وكان التوقيع « ديفيد » .

رفع فرانز عينيه نحو سيدته متسائلاً في اضطراب :

« هل سيدتى واثقة من أن هذا هو توقيع الهرسمحون ؟ ! ! »

« دون شك ! ! »

قالتها هيلين في ثقة وهى تخطو نحو الشابين وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة عرفان ، نهض الشبان لاستقبالها فى أدب فوقفت قبالتها وهى تمد اليها يديها قائلة :

« يخيل إلى أن من حقكما أن تطلعا على نصفى الآخر ! ! »

قال أحدهما وكان قد اختطف نظرة سريعة وحادة الى نصفى الورقة

المالية :

« إنها الآن من حقك وحدك ياسيدتى ، فالرسالة موجهة إليك

أنت ! »

كانت هيلين الآن شامخة ، وكانت سعيدة . . . التفتت نحو العجوز

قائلة :

« فرانز يا صديقى . . . تستطيع الآن أن تنصرف مطمئنا ، إنها

صديقان ! »

ولأول مرة منذ دخل الشبان الى البيت ، عرف الابتسام طريقه الى

شفتى العجوز الذى ضم قدميه فى أدب المانى صارم وهو يحنى رأسه
محيا سيدته :

« سيدتى ! »

ثم مالبت أن التفت نحو الشابين ، وأحنى لهما رأسه فردا تحيته . . .
ثم استدار ومضى . . . وكانت خطواته تبدو راقصة ! !



كان لاكتمال الورقة المالية القديمة ، وبالتالى اكتمال تلك الرسالة
الغامضة التى وجهها ديثيد شارل سمحون الى زوجته هيلين ، تأثير
السحر عليها . . . ففى الدقائق التالية لمغادرة فرانز للبيت، انكرت هيلين
على نفسها ذلك الاحساس الغامر بالراحة والسعادة معاً وهى - فى
حقيقة الأمر - لم يكن يعينها أن يصدق ماقاله زوجها قبل وفاته أو يكون
هذيانا ، فلقد كانت هذه حياته وهو حر نيتها . . . ولكن كان مايعينها
فى الدرجة الأولى أن تعرف الحقيقة قاطعة . . . ذلك أن الأمر
لا يخصصها بقدر ماينخص الصغيرين ومستقبلها ، بل . . . وانتهاءها إلى
شعب بعينه . . . وكانت الآن ، وهى تجلس قبالة هذين الشابين
تعرف يقينا أنها تقترب من الحقيقة بسرعة لم تتخيلها !

عادت الى مقعدها وهى تضم نصفى الورقة المالية بيديها وكأنها تضم
كنزا . . . استردت نفسها واعتدلت فى مقعدها وهمت بالحديث عندما
بادرها أحد الشابين :

« سيدتى . . . لا بد لنا من توضيح نقطة تبدو شديدة الأهمية ! »

نظرت إليه بإعجاب ، تساءلت بينها وبين نفسها : اذا كان
المصريون يمثل هذا الحذق وهذه القدرة على السيطرة على المواقف وأخذ
زمام الأمور فى أيديهم ، فما هذا الذى يقال عنهم ؟ ! . . . أومأت

للشاب بأن يستمر فعاد الى الحديث وهو يضغط على حروف كلماته كي يؤكد لها :

« إنه على درجة كبيرة من الأهمية أن نقول : إننا لسنا مفوضين بسماع شىء منك ، كما أننا لانملك إجابة على أى سؤال قد يخطر ببالك ! ! »
« كتمت أنفاسها وكأنها لاتريد لكلمة أن تفوتها ، واستطرد الشاب :
«إننا - مع تعازينا القلبية وأسفنا الشديد لوفاة الهرسمحون - نرجو أن تقبل دعوة الحكومة المصرية لقضاء أى عدد يروق لك من الأيام فى القاهرة ! »

عاد القلق يتسلل إليها من جديد ، وصمت الشاب لثوان التقط فيها أنفاسه كمن يستعد لقول على درجة هائلة من الأهمية :
« وان كنا نفضل - إن قبلت الدعوة - أن تتم الزيارة بشكل سرى ! »

مرة أخرى صمت الشاب وكأنه يعطيها الفرصة كي تستوعب مقاله جيدا . . . لكنه عاد الى الحديث فى لهجة ودود خلت من تلك الصرامة التى بدت فى حديثه السابق :
« فى القاهرة ، ستكونين ضيفة عزيزة على الشعب المصرى . . . كما أنك هناك سوف تجدين الاجابة عن كل سؤال قد يخطر ببالك أو يعن لك ! ! »

فى سرعة رهيبه كان عقلها يعمل !

زيارة سرية ؟ !

مامعنى هذا ؟ !

ثم . . . الى اين ؟ !

الى القاهرة حيث لاتعرف انسانا ؟ !

وبالرغم من أنها اختطفت نظرة من نصفى الورقة المالية وكأنها تعيد قراءة رسالة ديثيد مرة أخرى ، فإن الأمر بدا لها غريبا ، بل بدا لها باعثا على الاضطراب والخوف . . .

حقا ، إن ما حدث الآن يدعو الى الاطمئنان والثقة ، ولكن . . .

هل من الممكن أن تسلم نفسها لشابين لم ترهما الا منذ دقائق ؟ !
كان الأمر مربكا . . . فمن أين لها أن تطمئن الى أنها سوف تعود الى طفلها بسلام ؟ ! . . . طال الصمت وكانت فى حاجة الى المزيد من التفكير فقالت فى محاولة لكسب بعض الوقت :

« لا بد أنكما تعرفان أن هناك عشرات الأسئلة قد خطرت ببالى ! » .

« بكل تأكيد ! ! » .

« لقد كان الأمر فى الحقيقة مروعا ومربكا بالنسبة لى فانى عندما . . . » .

أوقفتها نظرات الشاب المحذرة وتذكرت على الفور قوله إنها ليسا مفوضين لسماع شىء أو لقول شىء . . . هى لاتفهم من كل هذا شيئا ، وعندما ظنت أنها اقتربت من الحقيقة إذا الحقيقة تبتعد عنها الوف الأميال ، إذا الحقيقة فى القاهرة . . . أرادت المراوغة فسألت :

« متى أستطيع تلبية الدعوة ؟ ! » .

« فى الوقت الذى تشائين ! » .

هاهو ذا الفتى ببراءة يضع الأمر كله بين يديها ، وهى الآن تستطيع أن تفكر وأن تتردد وأن تشك . . . ترى ، من كان هذا الرجل الذى أحبته وتزوجته وعاشت معه وأنجبت منه طفلين دون أن تعرف عنه شيئا . . . تمت لو أنها استطاعت - بل أنها همت بأن تفعل هذا - ان

تطلب إليها مهلة للتفكير ، لكن شيئاً في أعماقها كان يدفعها دفعا الى السير في الطريق حتى نهايته كانت تكره الخوف وتحتقره ، كانت قد أقسمت ألا ترفع العلم الابيض ، فهل تفعل ؟ ! . . . عادت تراوغ من جديد عليها تهديء المعركة الدائرة في صدرها :

« لقد ذكرت شيئاً عن السرية ياسيدى ! » .

في حسم من يعرف طريقه قال :

« إن سلامتك وسلامة الصغيرين لا بد ان توضعا في المقام الأول من اهتمامنا ! » .

« وماذا علىّ ان افعل تجاه هذه السرية المطلوبة لسلامتى وسلامة طفليّ ! » .

« لاشيء من ناحيتك سوى ألا تذكرى لأحد - مهما كان صديقا أو قريبا - أنك ستطيرين الى القاهرة ! »

« لكنى بالتأكيد سأتغيب بعض الوقت ! » .

« ولذلك ، فيمكنك القول بأنك مسافرة لزيارة شقيقتك فلورا في بلدة خام ! » .

اعتدلت هيلين وقد وجدت سببا للاحتجاج ، فما مدى ما يعرف عنها هذا الشاب الأسمر . . . هتفت :

« أيها الشاب ؟ ! » .

استمر في حديثه هادئا :

« وأنت غالبا ، كلما ذهبت الى خام ، تتحدثين الى الدكتور كارل جاروسلاف في تشيكوسلوفاكيا ، وهو الطبيب الذى يشرف على العلاج الطبيعى الذى تزاولينه كل عام فى تلك المصحة النائبة فوق جبال ال » .

قاطعته هيلين وهى تهب واقفة وقد اكتسى وجهها بحمرة غضب
لاتخفى :

« سيدى إن هذا كثير ! ! » .

وقف الشابان فور وقوفها ، وقال الفتى فى هدوء من أدهشه
ما يحدث :

«ولكن الهرسمحون ذهب معك مرتين للاستشفاء بالمياه
المعدنية ! » .

نظرت إليه غير مصدقة وقد أحست أنه سكب فوقها دلوا من المياه
الباردة ، شعرت هيلين بأن ما كان يقوله الفتى ليس سرا بأى معنى من
المعانى وهى لا تعرف لم انتابها الغضب فجأة . . . أرادت أن تعتذر فعادت
الى مقعدها وهى تغمغم :

« ربما كنت على حق . . . ربما كنت على حق ! » .

عاد الشابان الى الجلوس فاستطردت :

« ارجو أن تعتذرنى فالأمر يبدو بالنسبة لى غريبا بكل المعانى ! »

« فى استطاعتى أن افهم ذلك جيدا ! » .

واجهته الآن كالمتحدية :

« واذا ما اتصلت بالدكتور كارل ؟ ! » .

« سيحدد لك موعدا اذا ما طلبت أنت » .

« هذا صحيح » .

« وعادة مايكون الموعد بعد ثلاثة أيام أو أربعة ! »

« وهذا أيضا صحيح ! » .

« وأيا ما كان الموعد ، فلسوف تغادرين خام فى اليوم التالى ،

وتتبعين نفس خط سيرك الذى اعتدت عليه كلما ذهبت الى

تشيكوسلوفاكيا للاستشفاء ! » .
التمعت عيناها بنظرات صارخة . . . واستطرد الشاب متجاهلا
نظراتها :

« ستستأجرين سيارة تعبر بك الحدود الى مدينة « كلاتوفى »
التشيكوسلوفاكية ، حيث اعتدت ان تجدى سيارة المصحة فى
انتظارك ! » .

« هل هذا معقول ؟ ! » .

« فى نفس المكان ستجدين سيارة أخرى فى انتظارك ! » .

« ثم ؟ ! » .

« لن تحملك السيارة الى المصحة بطبيعة الحال ، ولكنها ستحملك
الى مطار براغ . . . وهناك ستلحقين بالطائرة المقلعة إلى القاهرة فى
المساء ! » .

« ومتى أذهب إلى المصحة ؟ ! » .

« عندما يحل موعد الطبيب ! » .

الى هنا لم تستطع هيلين الاحتمال ، سددت اليه نظراتها متسائلة :

« الا ترى أيها الشاب أنك تعرف عنى الكثير ؟ ! » .

فى حسم ووضوح ، وبلا مداراة ، جاءها رده :

« سيدتى . . لقد كان الهرسمحون يعنى الكثير لبلاده ! » .

بدت لها إجابة الفتى رفيعة الى الحد الذى أجمها فاعتدلت فى

جلستها ، غير أنها - لسبب غامض - ارادت المقاومة فقالت :

« ولكن . . ما السبب فى كل هذا إلف والدوران ! » .

« انه نفس السبب الذى من اجله ارسلت خطابك بالآلة الكاتبة ،

حتى التوقيع . . . وفى جملة واحدة لاتعنى شيئا الا لمن يهمهم

الأمر ! » .

ساد الصمت لثوان عاد بعدها الشاب الى الحديث في نبرة من يؤكد كل كلمة من كلماته :

« مرة أخرى ياسيدتى . . ان السرية مطلوبة لحمايتك وحماية الصغيرين ! » . . .

تلقت كلمات الشاب في صمت ، كانت الآن ، ربما للمرة الألف ، تتساءل :

من هذا الرجل الذى كان زوجها وحبيبها ، والذى يعنى بلاده الى هذا الحد ؟ . . وعلى كل ، فلقد أحست أنها هزمت في مباراة رياضية ، وأن عليها أن تصافح خصمها ، فقالت في رقة :

« كنت أفكر ، كما أخبرتك في الصباح ، ان اقضى بقية الاسبوع في بريمن ! » .

ابتسم الشاب وقد أدرك أنها توصلت الى قرار ، واستطردت هى بنعمة من يعلن موافقته :

« فلم لا اقضى هذه الايام في القاهرة ! » .

قالت هذا وهى تبسم ابتسامة واضحة اعتبرها الشاب اعتذارا عما بدر منها ، فمال نحوها - كما هى عادة الشرقيين اذا ما تحدثوا الى انسان عزيز يبعد عنهم قليلا - وهو يقول :

« لقد اعتدت ياسيدتى كلما سافرت الى خام في زيارة عائلية ، ان تستقل الطائرة الى فرانكفورت ، ثم تستأجرى سيارة تقطع بك الطريق الى مسقط رأسك ! » .

هتفت ضاحكة :

« هذا شىء لا يصدق ! » .

بدا الشاب وكأنه لم يسمع ما قالت ، أخرج من جيبه الداخلى تذكرة

طائرة قدمها خاطيا نحوها :
« هذه تذكرة في الطائرة التي تقلع عادة في الظهر الى

فرانكفورت ! » .
كانت مندهشة الى الحد الذي أحست فيه انها أصبحت مسلوقة
الارادة . . . وبالرغم من تمردها الداخلى ، فلقد مدت يدها وتناولت
منه التذكرة ... فاذا به يخرج من جيب آخر جواز سفر أحمر اللون قدمه
لها :

« وهذا جواز سفر مصرى ! » .
بدت وهى تتناول منه الجواز وكأنها تحلم .
« إنه كما ترين جواز سفر دبلوماسى ! »
ابتسمت رافعة اليه عينيهما فى تساؤل :
« وهو الجواز الذى ستغادرين به تشيكوسلوفاكيا ، ثم تعودين به
اليها ! » .

بدت هيلين الآن ذاهلة تماما ، فتحت الجواز بحركة لا
إرادية ، ما ان شاهدت صورتها حتى اعتدلت فى جلستها ، انتبهت ،
اختطفت نظرة من الفتى فوجدته باسمها على استعداد لاستقبال نظرتها ،
فلقد قال وهو يعود الى مقعده :

« إنه يحمل اسما مصريا بالطبع ! »
عادت تنظر الى الجواز ، وكان الاسم مكتوبا بالعربية كما هو مكتوب
بحروف لاتينية ، وجدت نفسها تقرؤها بصوت عال :
« هيلانة رأفت المهجان ! » .

هتف الفتى :
« إن اسم هيلانة لقديسة مصرية ! »

قالت ساخرة :

« لست أعتقد أنى استحقه ! » .

« ولكنه الاسم العربى هيلين ! ؟ ! »

« وماذا عن رأفت الهجان »

« أنه مجرد اسم ! ! »

« قبل ان تلتقط أنفاسها استطرد :

« فى السيارة التى ستقلك الى براغ ، ستتسلمين تذكرة على إحدى

طائرات الخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية ! » .

ولم تفه هيلين بكلمة ، كانت تشعر بأنها فى حلم غريب ، كان

انتقالها من حياتها العادية إلى هذا الذى يحدث مفاجأة لم تستعد لها ،

بل ، لم تخطر ببالها ... غير أنها - فى نفس الوقت - كانت تحس بمزيج

غريب من الخوف المشوب بلذة فائقة ، كان إحساسها بأنها مسلووبة

الإرادة يخبو ليحل محله ذلك الاحساس الفائق بالمتعة اذا ما كانت

تشاهد فيلما من أفلام التوتر . . . أنها - حقا - تشعر وكأن أحدا يقودها

الى طريق غامض ، ولكنه - أى الطريق - يبدو مثيرا للغاية ، وبنفس

القدر من القوة . . . لوحت فى وجه الشاب بالتذكرة متسائلة فى

سخرية :

« أرى أنك حددت أيضا موعد سفرى من تلقاء نفسك ! »

« هذا غير صحيح ! » .

رفعت حاجبيها دهشة فاذا هو يستطرد :

« إن التذكرة مفتوحة . . . وكل ما نطلبه إليك ان تبلغينا بموعد

سفرك حتى نكون دائما هناك ، معك ، ومن حولك ، وفى استقبالك » .

فى تلك اللحظة ، أحست السيدة هيلين سمحون ، بأنها تلقى

بكل مخاوفها وشكوكها وعنادها خلف ظهرها . . . فلقد قالت على الفور وكأنها تقبل التحدى تماما :
« هل يناسبكم الغد ؟ ! » .
« أهلا بك فى أى وقت ! » .
« اذن . . . فى الغد !! » .

على الفور نهض الشابان مستئذنين فى الانصراف !
وفى الحقيقة فان هيلين عندما قالت جملتها الأخيرة ، لم تكن تنهى المقابلة ، ذلك أنها أحست بأنها تريد استبقاء الشابين لفترة أطول ، فعادت الى الحديث متسائلة :

« بالنسبة للسرية التى ذكرتها ، أليس مطلوباً إلى أى شىء ؟ ! » .
ابتسم الشاب وهو يخطف من زميله نظرة غمض عليها معناها :
« لاشىء بالمرّة سوى »
صمت مبتسماً فاستفسرت :
« سوى ؟ ! » .

« سوى نظارة شمسية من النوع الذى لم تعتادى أن ترتديه . . .
ولتكن نظارة من هذا النوع الحديث والسخيف !! » .
ضحكت ناهضة اليهما ، همت بالحديث فأوضح :
« على ألا ترتديها الا وانت صاعدة الى الطائرة المتجهة الى القاهرة من براغ ! » .

كانت الآن تقف قبالتها . . . وكانت تشعر بمثل هذا الدفء الذى أمدّها به ديفيد يوم تعرفت اليه بالشعوب الشرق هؤلاء ، غمرتها السعادة فجأة ، فأتسعت ابتسامتها ، وهى تمدّهما يدها قائلة :
« كم أنا سعيدة بلقائكما ! ! »

غادر الشابان البيت . . . ووقفت هيلين سمحون خلف زجاج
النافذة ترقب سيارتهما وهي تنطلق مبتعدة ! .

كان الظلام قد هبط الآن تماما ، وكان البهو مضاء فسارت الى
مفاتيح النور واحدا إثر الآخر ، أغلقت باب البيت بالمزلاج ، ثم
عادت لتكمل إطفاء الأنوار .

الآن . . . كانت وحيدة في البيت تماما ، وبرغم التدفئة ، فلقد
شعرت بتيار من البرودة يسرى في جسدها فارتجفت . هاهي ذى تذكرة
الطائرة وجواز السفر ونصفا الورقة المالية هناك ، أمامها ، فوق مائدة
صغيرة مجاورة لمقعدها على الضوء الخافت الذى أبقته سارت
والتقطت الأوراق . . . تذكرت أن عليها أن تجرى بعض المكالمات
التليفونية استعدادا لرحلة الغد . . . لكنها راحت تتساءل وهي تصعد
الدرج الى الطابق العلوى :

ماهذا الذى حدث ؟ ! .

وكيف وافقت ؟ ! .

وأية مخاطر تزج بنفسها فيها ؟ !

ثم . . .

من هو ديفيد شارل سمحون ؟ !

مصرى أم اسرائيلى ؟ ! . . . جاسوس أم بطل ؟ ! .

تزاومت الاسئلة في رأسها دون إجابات . . . فقررت أن تتوقف عن

التفكير ، وأن تسعى وراء الحقيقة ، وأن تعرفها كاملة وعارياً ! !

الفصل الثالث

زيارة سرية للقاهرة

لابد أن هذا الذى يحدث ، لا ينتمى الى عالم الواقع الذى عاشته هيلين سمحون لأكثر من أربعين عاما ، تظن فى بعض الأحيان أنها تحلم حلما غريبا سوف تتندر به بعد أن تصحو من النوم ، وفى أحيان أخرى تشعر وكأنها تلعب دوراً فى فيلم ملىء بالاثارة . . . غير أن الفرق الوحيد ، هو أن الاثارة تحدث فى الواقع والحقيقة ، وليست على شاشة بيضاء أو سطور قصة فى كتاب شائق !

كان لديفيد سمحون الفضل فى ارتيادها عالم العاطفة المسحور بكل ما فيه من أضواء وألوان ومنتعة ، كان جيشا دافئا وكأنه اختزن عواطفه طوال العمر حتى يلتقى بها فتتدفق فى طوفان أخذ يكتسح فى طريقه كل شىء . . . كان سعيدا كصبي يقع فى الحب لأول مرة . . . كان . . . كان . . . ولكن ، ما الذى يدير شريط الذكريات فإذا الذى

كان يمر بها مر الكرام يصبح له معنى ؟ ! . . . سألته ذات مرة ، كيف بلغ هذه السن ، وكيف كانت له كل تلك التجارب ، وكيف عاش مثل تلك الحياة ، دون أن يقع في الحب مرة ، قال :

« لم أكن أستطيع ! ! »

صاحت فيه مازحة طالبة إليه أن يكف عن المبالغة وإضفاء ثوب البطولة على حياته ، فحتى كفاحه ودفاعه وصراعه من أجل إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، لم يكن يمنعه من الحب والزواج ! !

قاطعها ديقيد في حدة :

« لا . . . ليس من أجل هذا ! »

كانت هذه من المرات القليلة ، بل النادرة ، التي رأت فيها الغضب في عينيه ، شعرت أنها آذته دون أن تقصد ، حاولت الاعتذار فأوقفها باسماني حنان :

« ولكنك ذات يوم ستفهمين . . ذات يوم ستفهمين ! ! »

فهل آن لها أن تفهم ؟ !

وهل كان ديقيد يعلم أنه سيموت عندما راح يلتهم الحياة معها التهاما يبعث على الدهشة والحيرة والسعادة الغريب ، أنها لاتزال ، حتى بعد موته ، تسبح مع أمواجه العاتية ! ! !

.
.

لم تستطع السيدة هيلين سمحون أن تشاهد القاهرة من الجو عندما وصلت اليها الطائرة بعد غروب الشمس . . . حجبت السحب الكثيفة سماء المدينة وغطتها تماما ، وكانت درجة الحرارة فيها - كما أعلنت المضييفة في الميكروفون - تسع درجات مئوية !



اخترقت الطائرة السحب الكثيفة هابطة نحو الأرض ، فما ان
تخطت ذلك الركام الضبابي حتى التمتع رذاذ المطر الذي راح ينهمر في
رقة على أضواء كشافات الطائرة ، وكان له منظر يخلب الألباب . . .
هاهى ذى أنوار القاهرة تبدو تحت المطر وكأنها عالم مسحور ، سألت
ديفيد ذات مرة عن أحبّ المدن إلى قلبه فهتف دون تفكير أو تردد :

« القاهرة . . . فليس في الكون مدينة تعادها جمالا ! »

ومنذ أن بدأت رحلتها عند الظهر انتظرت أن يظهر ضيفاها اللذان
زاراها بالأمس دون جدوى ، كانت تشعر أنها لا بد ان يكونا هناك ،
معها ومن حولها كما قالا ، ولكن عبثا . . . وطدت العزم - إن هى
رأتها في هذا المطار أو ذاك أو حتى في هذه الطائرة أو تلك - أن تتظاهر
بأنها لا تعرفهما . . . لكنهما لم يظهرأ طوال اليوم ، وبالرغم من ذلك ،
كانت تشعر بوجودهما شعورا يصل إلى درجة اليقين !

في مساء الأمس ، وقبل أن تأوى إلى فراشها ، تحدثت إلى مديرة
مكتبها ، قالت انها ستطير في اليوم التالى إلى « خام » في زيارة عائلية ،
كما أخبرت أولجا - سكرتيرتها - وفرانز العجوز في الصباح . . . وكانت
أوامرها مشددة بالنسبة لهم جميعا ، ألا يتصل بها أحد هناك مهما كانت
الأسباب ، وألا يعرف أحد أنها هناك !

عندما دخلت إلى مطار هامبورج كان أول مافعلته هو شراء نظارة
شمسية ذات شكل غريب ومضحك . . . وكانت ، وهى تنتقى موديلًا
سخيفا - على حد قول الشاب بالأمس - تتساءل : من أين هؤلاء
المصريين أن يعرفوا أن ذوقها في الملابس « دقة قديمة » ؟ ! . . . لكنها
سرعان ما ابتسمت ساخرة وهى تقول لنفسها : ومن أين لهم أن يعرفوا

طريقي الذي أسلكه كلما ذهبت الى « خام » ؟ !

قبل أن تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة في مطار براغ ، وضعت النظارة الشمسية فوق عينيها ، وعندما نظرت في المرآة ابتسمت في دهشة حقيقية ، فلقد كان شكلها غريبا تماما ، إلى حد أنها أيقنت أن أحدا ممن يعرفها ، لا يمكن - اذا مامر بها وهي ترتدى هذه النظارة - أن يميزها أو يتعرف عليها أو يتصور أن هذه السيدة التي تضع مثل هذه النظارة هي هيلين سمحون !

عندما صعدت إلى الطائرة كانت الدرجة الأولى خالية إلا من راكب واحد انتحى جانبا ، وفتح حقيبة أوراقه ، ووضع نظارة طبية ، وانحنى على الأوراق يقرأ ويدون ويكتب ويقلب ثم ينظر في ساعة يده ويتأفف في ملل من يتعجل الوصول ، ظل طوال الرحلة على هذه الحال . . . وبالرغم من ذلك فلقد أحست بشكل ما ، أنه هناك من أجلها !!

هبطت الطائرة في مطار القاهرة وكان الرذاذ لا يزال يغسل الدنيا في رفق ، تقدمت نحو الباب المفتوح وشكرت المضيفتين اللتين كانتا في وداعها ، واللتين أولتاها رعاية خاصة عزتها إلى قلة عدد الركاب في الدرجة الأولى . . . أفسح لها زميلها المتأفف الطريق فخطت تحت المظلة التي كان يحملها مضيف شاب كان يقف عند رأس السلم المؤدى إلى أرض المطار حيث كانت سيارة ميكروباس تابعة لشركة مصر للطيران في انتظار راكبي الدرجة الأولى . . . تلفتت حولها وأمامها فلم تجد من هو في استقبالها كما قال الشابان بالأمس ، ولربما نسى المصريون أنها قادمة فإذا عليها أن تفعل . . . عند باب السيارة مد المضيف يده ليساعدها على الصعود إلى الميكروباس ، صعدت إلى السيارة بسرعة

هرباً من الرذاذ وكان زميلها في الرحلة وراءها ، وكان التأفف قد اختفى من ملامحه . . . على الفور أغلق الباب وتحركت السيارة مبتعدة عن الطائرة ببطء على الأرض المبتلة . . . ما ان ابتعدت السيارة بضعة أمتار ، ولم يكن بها سوى السائق الذى بدأ منشغلاً بالقيادة فوق الأرض المبللة ، حتى التفت المتأفف نحوها وكانت ابتسامته المرحبة تضيء تقاطيعه فكأنه تحول إلى انسان آخر :

« مرحبا بك فى القاهرة فراو سمحون ! »

التفتت إليه فى مرح ولم تملك نفسها من الصياح ضاحكة :

« لقد خمنت هذا . . لقد خمنت هذا بالفعل !! »

« هل تسمحين لى أن أقدم لك نفسى ؟ ! »

« أرجوك ! »

« حسين شكرى من المخابرات العامة المصرية ! »

كان يتحدث بالانجليزية ، وكانت انجليزته واضحة ، اجتاحتها

المرح لسبب لاتدريه ، قالت :

« هل تعرف أنى كنت أفكر طوال الرحلة ، فى أنك كنت هناك من

أجلى ؟ ! »

« إذن فنحن نتعامل مع ذكاء لا بد أن نحسب له ألف حساب ! »

« لاتكن متفائلا ، فلقد نهرت نفسى بعنف وطلبت اليها ألا تجنح

للخيال ! »

قالت هذا وهى تضحك فبادلها الضحك وكانت السيارة تبتعد فى

أرض المطار عن مبناه الرئيسى حيث الأضواء والأنوار تغمر المكان . . .

خفتت الضحكات فاكتسى وجه رفيقها بمسحة من الجدية ، اعتدل فى

جلسته اعتدال من سيقول كلاما ينبغى له أن يسمع جيدا :
« أحب أن أنقل إليك ترحيب الشعب المصرى بوجودك فى بلاده ! »
فى انطلاق وجدت نفسها تقول :
« ليتنى أستطيع أن أشكر الشعب المصرى على كرمه ورقته فى
استقبال ضيوفه »

ولم يكن هناك مزيد من الوقت كى يتبادلا الحديث أكثر من ذلك ،
فلقد توقفت السيارة فى مكان بدا لها غريبا ، الهاها الحديث عن النظر
إلى الطريق فاذا هى فى مكان خافت الاضاءة بعيدا عن مبنى المطار
الرئيسى ، فتح باب السيارة من الخارج فور وقوفها ، وأشار حسين
شكرى إلى سيارة سوداء اللون المانية الصنع فاخرة كانت تقف هناك :
« تفضلى فراو سمحون ! »

هكذا قال مضيفها فشملت المكان المظلم بعينيه وأرادت أن تخاف
لكنها لم تستطع ، غادرت الميكروباس إلى السيارة تحت مظلة كان
يحملها سائق يرتدى زيا خاصا أنيقا تحت معطف مطر شفاف . . .
مان عبرت تحت المطر ودلفت إلى السيارة السوداء حتى هتفت :
« ولكن حقيبتى »

ولم تكمل ، ولم تكن فى حاجة إلى ذلك ، فلقد رد الرجل الذى دلف
خلفها وجلس إلى جوارها :
« لا تقلقى ياسيدتى ! »



فى إحدى القبيلات الأنيقة ، وسط حى راق من أحياء ضاحية مصر
الجديدة ، قضت السيدة هيلين سمحون ليلتها ، وجدت فى الفيلا -
منذ أن دخلتها - رعاية من نوع خاص ، قدمها لها مجموعة صغيرة من

الشبان والشابات الذين كانوا يتمتعون بمواهب عديدة ، سأها مضيفها
إن كانت في حاجة إلى شيء بعينه ، فشكرته قائلة :
« ليس أكثر من عشاء خفيف ، فلست أدري أي يوم ينتظرني
غدا ! »

أرادت بكلماتها الأخيرة أن تجرى معه حوارا تستكشف به خبايا الغد
لكنه بدا وكأنه لم يسمع ما قالت ، فلقد بادها الابتسام وهو يقول :
« إذا احتجت إلى أي شيء فليس عليك إلا أن تطلبى ! »
ثم ودعها وانصرف !
وكانت حقيبتها الآن قد وصلت !

.
.

كانت الثيلا التي نزلت فيها السيدة سمحون أنيقة بقدر يسمح
للمقيم فيها أن يشعر بالارتياح دون حرج . . . بعد أن تناولت العشاء
تقدمت منها عزيزة - وهذا هو اسم الفتاة المصرية الخمرية اللون
الباسمة العينين التي لازمتها ، حتى في العشاء ، كمضيفة لها -
وسألته إن كانت تحب أن تشاهد التلفزيون المصري ، فسألته هيلين
عن البرامج التي سيعرضها ، فقالت الفتاة الخمرية اللون وهي تنظر
في ساعة يدها وكانت تشير إلى الحادية عشرة مساء : انه لم يبق في
البرامج سوى فيلم السهرة . . . سألتها عن موضوعه ، فقالت عزيزة
إنه عن فتاة مصرية تجسست لحساب إسرائيل قبل حرب أكتوبر عام
١٩٧٣ ، وإن اسمه « الصعود إلى الهاوية » . . . وفي حقيقة الأمر فإن
هيلين لم تكن على استعداد لمشاهدة فيلم مصري ، ولكن العنوان
استخفها ، فسألته عزيزة عن معناه ، فقالت هذه :

« لو أنك شاهدت الفيلم ، لادركت معناه ياسيدتى ! »

كانت عزيزة تتقن اللغة الألمانية اتقاناً بدا لهيلين مدهشاً ، لكن دهشتها زالت عندما عرفت أن عزيزة تعلمت في المدرسة الألمانية منذ طفولتها المبكرة ، وكانت على استعداد لأن تترجم لها الحوار أيضاً . . . وهكذا شاهدت هيلين في تلك الليلة ذلك الفيلم وهى تتساءل : هل هى صدفة أن يعرض التليفزيون هذا الفيلم فى نفس ليلة وصولها ؟ ! . . . ولكنها لم تسأل عزيزة بالطبع ، وكان كل ما قالته بعد أن ترجمت لها الفتاة الرقيقة حوار المشهد الأخير :

« إنكم تحبون بلادكم إلى حد العذاب ! »

وردت عزيزة على الفور :

« لأننا تعذبنا فى حبها كثيراً ياسيدتى »



فى صباح اليوم التالى ، كانت السحب التى عبرت سماء القاهرة بالأمس قد انقشعت بعد أن أفرغت حملتها طوال الليل مطراً ظل يهطل لساعات . . . فى الصباح كان الجو صحواً والسماء تبدو شديدة الزرقة ، والشمس ترسل أشعتها الدافئة لتغمر بها كل الدنيا . . . لذلك ، فلقد وافقت « فراو سمحون » على اقتراح عزيزة بأن تتناول أفطارها فى شرفة القيللا المطلة على تلك الحديقة الصغيرة ، التى بدت لها - برغم الشتاء وبرودة الجو - خضراء مورقة . . . كما ذكرتها بعض النباتات فيها بتلك التى كان ديفيد مولعا برعايتها فى حديقة بيتهم . . . كان افطارها مكوناً - كما طلبت - من البيض والجبن الأبيض والمربى ، ثم فنجان من القهوة الساخنة اللذيذة !

في ذلك الصباح كانت عزيزة من الرقة بحيث لم تثقل عليها بوجودها ، بل بدت لها مثل طيف يظهر إذا احتاجت لشيء ثم يختفى . . . ولقد احست هيلين بأن ذهنها يبدو صافيا تماما . . . كانت قد قضت ليلة هادئة ، واستغرقت في النوم كطفل رضيع . . . بدا لها كل شيء الآن ، وهي جالسة في الشرفة ، واضحا أشد ما يكون الوضوح ، وماهى إلا ساعة أو ساعتان حتى تواجه الحقيقة التي عذبتها . . . تلك الحقيقة التي برغم وضوحها وسفورها ، لم تجب عن سؤال كان يلح عليها الحاحا متصلا : « من كان ديفيد شارل سمحون ؟ ! »

« هل تريد فراو سمحون مزيدا من القهوة ؟ ! »

رفعت عينيها نحو عزيزة فبدا لها لونها الخمرى صافيا رائعا ، قالت في ترحيب :

« أرجوك ! »

تابعت الفتاة في انصرافها ، وتابعت فتى جاء مهرولا كى يرفع أطباق الافطار وراحت من جديد تتساءل : « من كان هذا الرجل ديفيد شارل سمحون ؟ ! » . . . من الرجل الذي تعامل أرملته في مصر بمثل هذه الرقة وبمثل هذا الترحيب ؟ . . . وكيف . . . كيف عاشته طوال ما يقرب من سبع سنوات ، وانجبت منه طفلين ، دون أن تكتشف حقيقته ؟ ! . . . أية داهية كان ديفيد ؟ ! . . . وأى ثعلب هذا الرجل ؟ ! . . . ثم ، أى نوع من الرجال كان ؟ !

وكان لا بد - في هذا الوقت من الصباح ، وفي مثل هذا الجو الدافئ المخدر - أن ترى الذكريات ! !

.
.

كان لقاءها الأول بديفيد شارل سمحون في عشاء أقيم على شرفها في تل أبيب ، التي كانت قد طارت اليها لتوقيع عقد صفقة من تلك الصفقات الروتينية التي تعقدها شركتها ومديروها مع العديد من دول العالم وعندما قدموا لها ديفيد في ذلك المساء بدا لها لأول وهلة رجلا غريبا ، ذلك أنها شعرت - وكانت تراه لأول مرة في حياتها - وهي تصافحه ، أنه يقتحم حياتها بنظرات عينين شديدتي التعبير والنفاذ ظنت في البداية أنه واحد من رجال الأعمال الذين يخلطون بين الجد والهزل فنفرت منه ، غير أن دهشتها كانت عظيمة ، عندما بدأ معها حوارا حول موضوع الصفقة التي جاءت من أجلها كان أول ما أدهشها في الأمر ، أن ديفيد كان على المام كاف وواف بجميع التفاصيل التي كانت تظن أنها تدرج تحت بند السرية قال لها في تلك الليلة إنه يعمل في السياحة حقا ، لكنه يفكر في خوض تجربة العمل في مجالات أخرى وأن لاشيء ينقصه سوى دليل يقوده عبر الدروب الأولى لهذه المجالات !

وهي لاتدرى كيف عرضت عليه أن تساعد هل كانت في حاجة لأن تلتقى به مرة أخرى ، أم أنه هو الذي دفعها ، بذكائه ، إلى هذا العرض ؟ وهي لاتدرى كيف ضرب لها موعدا في اليوم التالي فوافقت ، كيف التقيا وكيف بدأ الحديث وكيف ناقشا الأمر وكيف انتهت المناقشة إلى اتفاق بانشاء شركة بينه وبينها !!

وقد يكون هذا كله موضع تحليل يصل بها إلى انها كانت في حاجة لهذه الشركة ربما أكثر منه ، وأن الصفقة كانت مجزية تماما قد يكون الأمر كذلك ، ولكن كيف كان ديفيد شارل سمحون رجل

الأعمال الاسرائيلي ، الشهير والمرموق وموضع ثقة كل من التقت به في تل أبيب ، كيف كان في الأيام التالية لوجودها في إسرائيل ؟ !

ولقد حاولت أن تجد الاجابة عن عشرات الاسئلة التي طرحتها على نفسها قبل الزواج منه وبعد أن تم الزواج أيضا ، لكنها لم تجد إجابة واحدة ، ذلك أن الأحداث كانت تندفع نحو تلك النتيجة التي وصلت اليها بقوة خفية . . . وهي لاتدرى سوى أن هذا الرجل النحيل له حديث ساحر يأخذ بالألباب ، وقدرة فذة على الاقناع دونما ضغط أو مباحة . . . أكثر ما أدهشها فيه أنه لم يكن يساوم في تفاصيل تافهة ، لكنها تبدو شديدة الأهمية لبنى جنسه . . . هي ليست من أعداء السامية ، وهي ترى أن العداة لجنس من البشر نوع منحط من التخلف فرضته ظروف بعينها . . . ولكن ثمة حقائق وصفات بالنسبة للأجناس تبدو كجزء من « جيناتها » وطبيعتها وتكوينها الدينى والخلقى والاجتماعى والوراثى . . . هي تعرف - دون تحزب أو تعصب - أن اليهودى إذا ماساوم إنسانا حول صفقة ، أو بيع أو شراء أو مشاركة ، سار فى طريق من يريد أن يأخذ كل شىء ، ولا يعطى شيئا على الاطلاق . . . وكما اشتهر الانجليز بالبرود اشتهر اليهود بالبخل . . . هؤلاء هم اليهود فى كل زمان ومكان وعصر .

لكن ديقيد لم يكن كذلك !

قضت الأيام التالية فى تل أبيب وهما يلتقيان كل يوم . . . أنهما اتفقاها ووقعا عقد الشركة بينهما وكانت تشعر أن شيئا - غير العمل - سوف يربطها بهذا الرجل إلى الأبد ! !

وانقضت أيامها فى إسرائيل وصحبها إلى المطار فى سيارته كى يودعها . . . ورغم كثرة لقاءاتهما ، ورغم الصداقة التى ربطت بينهما ،

ورغم أنها سهرت معاً وتعشياً معاً ورقصنا معاً وقاما برحلة إلى القدس وقضيا يوماً استمتعنا فيه بشمس الشرق الدافئة ، رغم كل هذا ، لم يكن هناك مايشير أو يوحي بشيء من عاطفة أو حب . . . لكنه في المطار ، وقبل أن تمضي إلى الطائرة ، مال عليها - بغتة - وقبلها في وجنتها . . . ولقد أخذت بما فعل رغم أنه يبدو طبيعياً ولا يعنى شيئاً . . . لكن حرارة الفعل سرت إلى جسدها مثل تيار كهربى جعلها ترتجف ، رفعت إليه عينين تائهتين ، وكان هو يبتسم قائلاً :

« صدقى أو لاتصدقى ياهيلين ، إنى سافتقدك كثيرا ! »

ولم ترد عليه ، أرخت عينيها وهرولت هاربة من نظراته ، كان المذهل فى الأمر أنها كانت تشعر - هى الأخرى - أنها سوف تفتقده كثيراً . . . شىء غريب كان يجذبها إلى هذا الرجل الطويل النحيل ، شىء بدا لها غامضاً ومثيراً أشد ماتكون الاثارة ، فى حياة كانت تسير على وتيرة شديدة الاملال !!

فى هامبورج ، كان عليها أن تجهز أوراق الشركة للتسجيل - هكذا اتفقاً فى تل أبيب بعد توقيع العقود - وكان عليها أن تبرق له اذا ما انتهت تلك الاجراءات ، كى يحضر الى ألمانيا ، لتصبح بعده الشركة كيانا قائماً بالفعل .

فى البداية - وبهاها من خبرة - قدّرت أن الأمر قد يستغرق أسبوعاً أو عشرة أيام ، ولكن كل شىء - وكانت هذه مصادفة غريبة - كان جاهزاً فى ثلاثة أيام . . . ولكنها لم تبرق إليه . . . كانت فى حاجة إلى بضعة أيام كى تتخلص من هذا الاحساس الغريب الذى راح يطاردها ليل نهار . . . استغرقت فى العمل ، ارتبطت بمواعيد للذهاب إلى المسرح ، والعشاء فى الخارج . . . كانت تقضى يومها كله فى عمل أو

متنقلة من مكان الى مكان ، غير أن الليل دائما ما كان يأتي ، وكانت لا بد أن تدخل فراشها ، لتمارس أحلامها كصبية مراهقة ! !
وكان لا بد أن تبرق إليه ، فأبرقت له في صباح يوم ، ليركب هو الطائرة في نفس اليوم ، ولتطالعها ابتسامته في المساء وهو يهتف :
« انى فى حاجة لمن يدعونى إلى العشاء ! »

ودعته إلى العشاء ، ورقصت معه طوال الليل ، وقاومت بجهد شديد رغبتها فى الاستسلام لذراعيه ، وهى لم تكن تعرف لم كانت تقاوم ولم كانت ترفض . . . هل لأنه يهودى ، أم لأنه إسرائيلى الجنسية ، أم لأنه شرقى ، أم لأنها تعودت على الوحدة منذ توفى زوجها الأول ، أم أنها كانت خائفة من طوفان العواطف الذى كان يكتسح مقاومتها فى عنف كلما جلست إليه ؟ !

سألته ذات ليلة :

« ديفيد . . . من أنت ؟ ! »

« ملاح يبحث عن شاطيء ! »

كان هذا فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٧٤ وعندها لمحت الدموع تترقق فى عينيه فى تلك الليلة ، فقدت كل قدرة على المقاومة ، وعندما امتدت يده لتأخذ بيدها ، كان صوته يتسلل إلى قلبها فيغزوه بعنف :

« ولقد وجد شاطئه ياهيلين ! »

« ولم لا يرسو ؟ ! »

« ينتظر الاذن بالدخول إلى الميناء ! »

وارتمى كل منهما فى أحضان الآخر ! !

عندما أوصلها بالسيارة إلى البيت فى تلك الليلة ، قال قبل أن تغادرها :



« هيلين ! »

كان الآن يبدو غريبا ، جادا وكأنه يحمل هموم الأرض فوق كتفيه ،
سمعت صوت أنفاسه اللاهثة تتردد في سكون العربة الدافئة
التفتت إليه وانتظرت ، بدا لها وكأنه يعاني من ألم مجهول . . . لكنه
مالبث أن قال :

« لقد فكرت في الزواج كثيرا طوال السنوات الماضية ! »

داعبته متحدية :

« ولم لم تتزوج ؟ ! »

« لأنى - فى الحقيقة - لم أكن راغبا فى الزواج ! »

« والآن ! »

ضحك ضحكة بدت لها خجولا ، ثم جاءها صوته ممزقا بالانفعال
وكانه لا يصدق ما يشعر به :

« الكارثة أنى لأحبك فقط ، لكنى أصبحت لأستطيع العيش

بدونك ! »

أيقنت أنه كان يتعذب ، وأن عذابه كان لسبب مجهول ، هتفت
وهى تأخذ وجهه بين ذراعيها :

« ديفيد »

« أحبك »

« أعرف »

« وأريد أن اتزوجك ! »

« وأنا موافقة ! »

« وأن أنجب منك أطفالا ! »

أحاطت عنقه بذراعيها وهى تهتف به :

« أيها المجنون . . . أيها المجنون ! »

واكتشفت هيلين أن كليهما كان يبكي ، وان دموعهما كانت تختلط
لتغسل وجهيهما في سعادة لم تذق مثلها من قبل ، هتفت في لحظة فقدت
فيها نفسها :

« لنتزوج غدا ياديقيد ! »

كانت تخشى من التردد ، لكنها ، ولو عاشت مائة عام أخرى ، لن
تنسى سحابة الحزن تلك التي مرت بملامحه فاجتاحها كاعصار
رهيب ، عادت تهتف به :

« ديقيد ! ! »

« هذا ماكنت أود الحديث معك فيه ! »

« ماذا تريد أن تقول ؟ ! »

« هل تستقيم الأمور لو أننا تزوجنا وظل كل منا يعيش في وطن ! »

« أعرف أن الأمر لن يكون سهلا ولكن »

قاطعها :

« وهل من مصلحتك ومصلحة أعمالك أن تنقلها إلى

إسرائيل ؟ ! »

« هذا مستحيل يا حبيبي ! »

« وهذا ماأعرفه يقينا ! »

نظرت إليه هيلين وقد تسلل القلق إليها ، عادت تهمس :

« ماذا تريد أن تقول بالله عليك ؟ ! »

« أريد أن أقول إنى سئمت كل شيء ! »

« لست أفهم ! »

« أريد أن أصفى أعمالى فى تل أبيب ، وأن أعيش إلى جوارك مابقى

في حرارة وجدت نفسها تهتف :
« كم أحبك أيها المجنون ! »
« سأشرع في نقل أعمالي إلى ألمانيا ، حتى إذا استقر بنا الأمر
تزوجنا ! »

وهكذا مضت بهما ستة أشهر من اللهفة والعذاب والقلق
والانتظار ، كانت تظن في البداية أن الوقت قد يجلب التردد إلى صدرها
ولكنها كانت تزداد قربا منه وحباً له ، كانا يتحدثان في التليفون كل ليلة
فتمضي بهما الدقائق لتكتمل ساعات وكأنهما صبيان يعيشان حياتهما
لأول مرة ، ذات مساء صاح فيها :

« هيلين . . . لقد أفلست تماما ! »

انزعجت . هتفت :

« ماذا ؟ ! »

أطلق ضحكة جلجلت عبر الأثير عابرة القارات إلى حيث يركض
قلبها بين ضلوعها :

« هل تعرفين كم دفعت في فاتورة التليفون صباح اليوم ؟ ! »

فأطلقت هي الأخرى ضحكة مجلجلة ، لكنها ضحكت أكثر وهو

يقول :

« هل نسيت أنى يهودى أيتها السيدة ؟ ! ! »

يالرقتة ومرحه وحنانه وسخريته اللاذعة من كل شيء حتى من
نفسه ، يالروعة الشوق وحرارته وهو يغزو قلبا لم يعرف للشوق طعماً من
قبل ، يالبطء الأيام وهي تزحف كالسلحفاة لا تريد أن تخطو . . . دق

جرس التليفون ذات ليلة وكان يتحدث من روما ، صاحت فيه أن يركب أول طائرة إلى هامبورج كي يراها وتراه ، اعتذر بأعمال تشغله وكان في عجلة من أمره وكان/سعيدا وكان مرحا . . . هي لاتنسى ، ولن تنسى ، صوته في تلك الليلة ، كان يبدو وكأنه أمسك القمر بيده :

« هيلين . . . سوف نتزوج . . . سوف نتزوج قريبا ! »
ولكم ساءلت نفسها طويلا عن سر تلك الجملة . . . ألم يتفقا على الزواج منذ شهر فما معنى مقاله ؟ . . . ولكن احساسها بالسعادة صادر رغبتها في إثارة جدل قد لاينتهي إلى شيء . . . أليس غريبا أن يملك رجل تجاوز الأربعين بعدد لا بأس به من السنين ، وإمراة تجاوزت الثلاثين بنفس العدد ، كل هذه الحرارة وكل هذا الحب وكل هذا الشوق وكل تلك الرغبة في الحياة ؟ !

حتى كان يوم من أيام مارس ١٩٧٥ . كانت مستغرقة في أعمالها في مكتبها بالشركة عندما أخبروها أن اهر سمحون ينتظر في الخارج . . . صاحت غير مصدقة :

« هر من ؟ ! »

« هر سمحون ياسيدتى ! »

قفزت من مكانها ، فقدت وقارها ، اندفعت وسط دهشة موظفيها تعبر الغرفة وتفتح الباب وتصيح في اللحظة التي وقعت فيها عيناها عليه :

« أيها الثعلب ! »

فتح لها ذراعيه فارقت بينهما غير عابئة بنظرات الموظفين وابتسامات

الموظفات ، ألغت كل المواعيد ، واعتذرت عن كل شيء ، دفعتته إلى غرفة مكتبها ، أغلقت الباب وأجلسته أمامها وانحنت نحوه متسائلة واللهفة تأكلها أكلا :

« اجازة ؟ ! »

هز رأسه نفيا فسألته وقد غاضت الابتسامة من وجهها :

« مزيد من العمل ؟ ! »

مرة أخرى هز رأسه نفيا ، صاحت وهى تلقى بنفسها إلى جواره :

« ماذا إذن ؟ ! »

همس :

« زواج ! ! »

ولم تكن هناك على وجه هذه الأرض ، امرأة أكثر سعادة من هيلين ريشتر ، التى كانت تدعى قبل زواجها الأول ، هيلين شيربور ، والتى سيصبح اسمها بعد ساعات « هيلين سمحون ! »



كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحا بقليل ، وكانت لاتزال فى جلستها تلك فى شرفة القيللا المطلة على الحديقة ، ترشف من فنجان قهوتها الثانى على مهل ، عندما شاهدت السيارة السوداء الألمانية الصنع تقف بالباب .

تابعت « حسين شكرى » وهو يغادر السيارة فى نشاط ، ثم يدلف من باب القيللا ملوحا فى مرح وكأنها صديقان قديمان ، ثم وهو يقفز الدرجات المؤدية إلى الشرفة فى رشاقة من يمارس لعبة رياضة عنيفة . . . تقدم منها ملقيا عليها تحية الصباح ، ثم وقف قبالتها

متسائلا :

« هل أطمع في تناول فنجان من القهوة معك ؟ ! »
هكذا كان مرح ديفيد ، رقيقا بسيطا خاليا من التكلف ، كانت على
حق يوم صاحت فيه إنه ليس يهوديا وليس اسرائيليا ، فضحك وكأنها
قالت نكتة . . . سأها حسين شكرى بعد أن وضعت عزيزة فنجان
القهوة أمامه :

« كيف قضيت ليلتك ياسيدتى ؟ »

قال مبتسمة :

« هل أنت في حاجة إلى الاشادة بالكرم المصرى ؟ ! »
« لعلك أخذت قسطا وافيا من الراحة ؟ ! »
فهمت ما الذى يعنيه فسألته :

« هل أستطيع أن أعرف شيئا عن برنامج يومى ؟ ! »
« ليست هناك سوى مقابلة واحدة ! »

« مع من ؟ ! »

« مع مدير جهاز المخابرات العامة المصرية ! »
هاهى ذى تقرب من الحقيقة سافرة عارية بلا ظنون أو تخمين .
« متى ؟ ! »

« بعد نصف ساعة ! »

همت فى جلستها :

« ماذا ننتظر إذن ؟ ! »

أشار إلى فنجان القهوة هاتفا فى مرح :

« أن انتهى من قهوتى ! »

« هل هناك متسع من الوقت ؟ ! »

كانت تبدو كطفلة متعجلة . قال :

« بالطبع لا . . . ولكننا سنصل في الموعد ! »

قال هذا وهو ينهض راشفا رشفة أخيرة من فنجان القهوة . . .
وهكذا احتوتها السيارة السوداء مع رفيق رحلتها هذا ، وانطلقت بهما في
شوارع القاهرة ، وكانت المدينة ، تحت أشعة الشمس الواهنة ، تبدو
مغسولة . . . تبدو كعروس خرجت من الحمام لتوها !

.
.

كانت السيارة التي ركبها هيلين ، من النوع الذي يخفى زجاجها
من في داخلها ، لكي يتيح للراكب أن يرى كل شيء في الخارج . . .
ولاتدرى هيلين لم أشعرها هذا بسكينة تسلفت إلى نفسها فاستسلمت
مرة أخرى للذكريات ، ولم لا ؟ ! . . . ألم يولد ديثيد في هذه المدينة
كما قال لها ؟ ! . . . ستطلب إليهم زيارة البيت الذي عاش فيه ،
ولسوف يلبون بالطبع . . . حرصهم عليها يشعروها بالامتنان . . . في
نهاية عام ١٩٧٦ أنجبت طفلها الأول « يوسف » ، كان ديثيد سعيدا
سعادة تفوق حدود التصور ، لم تحلم هي بأن تنجب أصلا ، ولكن :
كيف فعلت ما فعلت وكيف أقدمت على ما أقدمت عليه ؟ . . . هذا
مالم تفهمه حتى الآن . . . هل كانت رغبة ديثيد في طفل آخر هي
السبب أم أنها استعذبت أن تكون أما ؟ ! ! . . . أنجبت بعد عامين
طفلها الثاني « سليمان » ، سبع سنوات هي منذ التقيا حتى فارقها
تاركا لها طفليه . . . تركت له كل شيء في أعمالها فتزايدت أرباحها
وتزايدت أرباحه . . . أصيب بالمرض بغتة ودون توقع أو الأم أو
مقدمات . . . كانت الآلام في البداية خفيفة ، لكنها ، في سرعة

لم يكن السؤال الذى طرحه عزيز الجبالى على السيدة هيلين سمحون من قبيل المجاملة وإن كان الأمر يبدو كذلك . . . فهو عندما سأها : من أين تريدان أن نبدأ ؟ . . . كان يريد - فى حقيقة الأمر - أن يعيد التفكير بصوت عال ، فهو - منذ اللحظة التى تقرر فيها دعوة السيدة سمحون إلى القاهرة - كان يعلم أنها سوف تأتى مادامت قد عرفت حقيقة زوجها ، ذلك أنه من المستحيل أن تكون هيلين قد عرفت من « ديفيد » أو « رأفت » سوى شىء واحد ، هو أنه كان على علاقة بجهاز المخابرات المصرى ، فهذا ماكانا - عزيز ورأفت - قد اتفقا عليه بعد حوار قصير عن الظروف والأعمار التى هى بيد الله أولاً وأخيراً ، ثم عن الولدين إذا ماحدث له شىء . . . هذا ماكانا قد اتفقا عليه : ألا يسوح رأفت بشىء لزوجته مهما كانت الظروف إلا بهذه المعلومة فقط ، ثم يترك لها الباقي بعد ذلك ، كى تختار بنفسها الطريق !

وهو . . . هو يعرف رأفت جيداً ، يعرفه ويعرف مدى التزامه
الحديدي بأمن بلاده . . . ثم ، ثم هو كان يعرف - أيضاً - من تكون
« فراوسمخون » . . . عرفها منذ أن أعلن رأفت ذات لقاء في روما أنه -
أخيراً وبعد كل هذا العمر - قد وقع في الحب . . . كان هذا منذ سبع
سنوات ، قال رأفت إنه يريد الزواج من سيدة الأعمال الألمانية « هيلين
ريشتر » . . . وكان لا بد أن يعرف عزيز كل شيء عن هذه السيدة منذ
أن ولدت في بلدة « خام » بالجنوب الشرقي لألمانيا قبل نشوب الحرب
العالمية الثانية ببضعة أشهر ، وحتى تلك اللحظة التي تجلس فيها أمامه
في إحدى غرف الاستقبال المتواضعة الاثاث في جهاز المخابرات العامة
المصرية . . . كان لا بد أن يعرف « هو » رغم المعلومات الدقيقة
والوافية والصادقة تماماً التي قدمها رأفت عن المرأة التي اختار في النهاية
أن يربط حياته بحياتها ، وأن يعطيها اسمه المزيّف ، وأن ينبج منها
أطفالاً . . . كان لا بد لعزيز الجبالي أن يعرف ، لاشيء ، إلا لأن
« رأفت الهجان » لم يكن - بالنسبة لبلاده - مواطناً عادياً ، بل كان
« سوبر مواطن » إن صح التعبير ، أو « مواطناً فوق العادة » كما تعود
أن يطلق عليه بينه وبين نفسه !

كان عزيز الجبالي اذن يعرف أنها سوف تأتي وسوف تسأل . . .
وهذا حقها ، ثم هو كان أيضاً يعلم أنه سوف يحكى ما يجب عليه أن
يحكيه دون زيادة ، وما يجب أن يحكيه للسيدة سمخون هو - بإيجاز
شديد - قصة بطل قدم لأمته كل عمره في ذكاء وحرص من يعرف ويقدر
المسئولية الجسيمة التي القيت فوق عاتقه ، وأنه صنع - بالمعنى العلمى
المطلق ، ودون أدنى قدر من المبالغة - واحدة من أعظم وأكمل شبكات
التجسس في التاريخ الانسانى كله لصالح شعبه المصرى ، وأمته

العربية !

ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة لعزير ، كانت المشكلة التي يخشى منها بعض الشيء ، تكمن في تدفق الذكريات وهو يحكى ، تكمن في ضرورة انفصاله عن ذاته . . . ذلك أن عزيز الجبالي اكتشف - منذ أن علم بوفاة رأفت الهجان - أن حياة هذا الانسان الذى لم يلتق به مرة واحدة وهو حى ، محفورة في حياته هو شخصيا ، فعلى مدى عشرين عاماً كاملة ، حدث في حياته - وهو على اتصال متوتر ودائم برأفت الهجان - كل مايمكن أن يحدث في حياة انسان . . . فأين المفر ؟ ! . . . أين المفر !!؟

لكننا نستطيع القول ، دون تجاوز ، ان هذه مشكلة كان عزيز يستطيع تجاوزها بشكل أو بآخر مهما كان تأثير علاقته برأفت عميقاً في وجدانه ، ذلك أنه بالقطع قد تدرب طوال ربع قرن من الزمان ، هي عمره كضابط مخبرات ، على أن يتحدث في شىء وصدوره يحوى شيئاً آخر . . . كان - مثلاً - يلتقى بخائن يملك الأدلة الدامغة على خيائته ، فيعامله معاملة المواطن الشريف والمحترم لأن الوقت لم يحن بعد لكشف خيائته . . . وبوضوح ، تعود عزيز الجبالي أن تكون حياته حياتين ، وعقله عقليين ، واسمه اسمين ، ووجدانه مقسماً الى قسمين . . . قسم لا يراه أحد ، وقسم للناس ، وربما معهم أهل بيته !!!

وحتى هذا كان مقدوراً عليه . . . لكن الذى أضناه حقاً ، مشكلة أخرى بدت له بالفعل عويصة . . . وكانت هذه المشكلة تكمن في نفس السؤال الذى وجهه الى هيلين سمحون في جلستها تلك باحدى غرف الاستقبال المتواضعة الاثاث بمبنى المخبرات العامة

المصرية . . . كانت هذه المشكلة العويصة هي : من أين يبدأ ؟ ! !

.

.

ولابد لنا من الاعتراف بأن عزيز الجبالي كان على حق ، ذلك أن الصعوبة في اختيار بداية لحديثه ، أنه لم تكن هناك بداية واحدة ، بل كانت هناك بدايات متعددة لهذه القصة الغريبة والمركبة . . . وهي - فوق هذا - بدايات متداخلة ، تقود كل منها الى الأخرى بالضرورة !

وعلى سبيل المثال ، فلقد تساءل عزيز الجبالي : هل يبدأ من تلك الليلة الشديدة الحرارة من ليالى شهر يوليو عام ١٩٥٨ ؟! . . . عندما التقى « هو » لأول مرة مع « رأفت على سليمان الهجان » ، أو ، « ديفيد شارل سمحون » ، في مجموعة أوراق يضمها ملف سُلم له مع عدد آخر من الملفات كان عليه أن يدرسها ويمحصها ويقتلها بحثاً ! . . . وكيف كان في ذلك اليوم قد واصل الغمل منذ الصباح فنسى نفسه حتى داهمه الليل ، وراح ينصب الشراك لجيوش الناموس التي راحت تهاجمه من الحقول المحيطة بهذا المبنى المهجور الذي كانت تشغله مجموعة صغيرة تعد على أصابع اليدين من الضباط الثبان الذين كانوا يشكلون - في تلك الأيام - واحدة من الخلايا الأولى لجهاز المخابرات المصرى الوليد ؟! . . . وكيف خلع القميص مع اشتداد الحر ، وظل بالفانلة والسروال يتصبب عرقاً لأن المبنى الذى كان يعمل فيه لم يكن يعرف رفاهية أجهزة التكييف أو حتى المراوح الكهربائية . . . ثم كيف - وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ - كان يستعد للانصراف عند منتصف الليل ، عندما طالعه صورة رأفت فجأة ، تلك الصورة

الغريبة ذات الابتسامه الغامضة والنظرات الداعية والمنادية وكأنها استغاثة من عالم مجهول ؟ ! . . . كيف أنها كانت مجرد نظرة أراد لها أن تكون عابرة ، فاذا به يعود الى مقعده ، يحمق في الصورة ، ويقلب في الأوراق ، ويقرأ السطور . . . ثم يقع في الحيرة حتى طلع عليه النهار ، وقد نسى تماماً ايداء الناموس كما نسى نفسه ؟ !

هل يبدأ من هنا ، أم يبدأ من حيث كانت البداية الأولى لعلاقة رأفت الهجان بأول ضابط مخبرات يراه في حياته ؟ ! . . . منذ بدايته مع « محسن ممتاز » - ابن العمدة المتجهم الملامح ، الجاد التصرفات ، الشديد الجلد والقدرة على مواصلة العمل لأيام متوالية دون نوم أو راحة - والذي التقى برأفت لأول مرة عندما كان محجوزاً في سجن الاستئناف بعد أن قبض عليه في « ليبيا » على أنه يهودى هارب من مصر اسمه « ليثى كوهين » !

كان هذا في عام ١٩٥٤ ، وكان وكيل النيابة وضباط الشرطة والمباحث قد كونوا شبه مؤتمر لبحث حالة هذا الشاب المتوسط الطول الغريب الملامح والتصرفات الشديد الذكاء لدرجة أوقعتهم جميعاً في الحيرة والعجز عن معرفة شخصيته التي تقول بعض الأوراق - وكانت بين أيديهم - إنه يهودى ، وبعضها يؤكد أنه مسيحي ، وأوراق دامغة بأنه مسلم . . . بل ان أوراقا بعينها مختومة وموقعة كانت تقول انه بريطانى الجنسية ، وأخرى لاتدع مجالاً لشك بأنه أمريكى ، وثالثة لاسبيل إلى مناقشتها تؤكد أنه مصرى لحماً ودماً !! !

هل يبدأ عزيز الجبالى قصته منذ تلك الليلة . . . أم يبدأ من حيث كانت بداية المأساة في حياة « رأفت على سليمان الهجان » الفتى

القاهري الذي توفي والده وهو طفل صغير- وكما كان يحدث في الأفلام المصرية في تلك الأيام - فوجد نفسه يواجه قسوة اليتيم التي دفعته الى الهرب من البيت ، ثم مابعد الهرب من تشرد وسوء حظ قدرى راح يدفعه في اصرار يدعو الى الدهشة ، نحو طريق أدخله - على مدى سنوات وراء سنوات - أكاديمية كونية كانت وكأنها تدربه وتعلمه في عنف وقسوة ، على القيام بدور مجهول قدر له أن يلعبه فيها بعد باقتدار الاستاذ العظيم ؟ !

هل تبدو هذه البداية مناسبة ، أم أن البداية الحقيقية كانت في تلك الليلة الثانية والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، عندما تحركت مجموعة من الضباط الشبان في الجيش المصرى عرفت باسم « الضباط الأحرار » ، وقاموا بثورة على نظام حكم فاسد ، ثم اكتشفوا أنهم أمام معضلة شديدة التعقيد ، وكارثة بلا حدود ، فلم تكن هناك « دولة » بالمعنى العصرى والحديث لهذه الكلمة ، بل كيان متهاو ينخر السوس في قوائمه ، فبدت لهم بلادهم خرابا كان عليهم أن يعمروه ، ثم اكتشفوا أن ذلك الخراب انما يجعل منهم - ومن الشعب المصرى كله - عزلاً من أى سلاح يواجهون به تلك الصيحة التي انتشرت في صحافة مصر قبل قيامهم بثورتهم ، والتي كانت عنوانا على ماوصلت اليه البلاد من حال ، صيحة كانت تطالب بالقضاء على « الفقر والجهل والمرض » . . . ثم ، اذا بهم مع الأيام يكتشفون أنهم ليسوا عزلاً فقط أمام فقر وجهل ومرض وتخلف و . . . و . . . وكل هؤلاء الاعداء في الداخل ، بل انهم عزل بالفعل أمام أعداء متريصين مسلحين يتحينون الفرصة كى ينقضوا ويدمروا ويضعفوا ويحتلوا الأرض ؟ !

وليت الأمر اقتصر على هذا ، كانت المصيبة أنهم كانوا عزلاً حتى من المعرفة المطلوبة لاعادة البناء ، بل عزلاً من « وسائل » هذه المعرفة أيضاً !! . . . اكتشف هؤلاء الضباط الشبان قليلو الخبرة الممتثلون حماسة وحباً لمصر . . . أن عليهم أن يعيدوا البناء وسط ركام بلا نهاية من الخرائب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لاقامة دولة عصرية ، وأن عليهم أن يبدءوا من الصفر ، بل من تحت الصفر !!!

كان هذا هو الموقف أمام عزيز الجبالي ! وكان موقفاً محيراً . . . فلقد كانت كل بداية من هذه البدايات ، هي بداية حقيقية للقصة الغريبة التي كان عليه أن يبدأها . . . وكانت كل بداية مرتبطة ارتباطاً موضوعياً وعضوياً بهذه القصة التي عاشها ، منذ أن التقى برأفت على سليمان الهجان ، مجرد صورة وبضعة أسطر ، ذات ليلة من ليالى يوليو الحارة فى عام ١٩٥٨ ، وحتى هذا اليوم من أيام يناير عام ١٩٨٠ ، الذى يجلس فيه مع سيدة الأعمال الألمانية « فراو ديفيد شارل سمحون » أو . . . أو حرم المرحوم رأفت الهجان !



« هر جبالى »

رفع عزيز عينيه نحو هيلين ، وكانت هي تنظر اليه بدهشة ، وكانت أيضاً مبتسمة ، أدرك على الفور أنه سرح مع تلك الخطوط المتشعبة والمتداخلة فيما هو مقدم عليه . . . غير أن ابتسامتها اتسعت وهى تميل نحوه متسائلة :

« إلى هذا الحد كنت مرتبطاً به ؟ ! »

ولا يدري عزيز الجبالي لم خطر بباله فى تلك اللحظة « محسن متان » ،

لم فرض وجهه محسن الريفى المتجهم نفسه على فخيخته ؟ . . .
وعلى أية حال ، فان عزيز - شأنه شأن كل ضباط المخابرات المدربين -
لا يترك محدثه يقوده بأسئلته الى حيث يريد ، بل يبادر هو ، بإجاباته ،
الى قيادة محدثه نحو مبتغاه . . . فلقد رد على سؤاها وهو يبتسم ابتسامة
واسعة ، ربما كانت الابتسامة الأولى التى تراها هيلين على وجهه ،
وقال :

« يقولون أنك كنت صاعقة الجمال وأنت صبية فى السادسة عشرة
من عمرك فراوسمchon ؟ ! »
ابتسمت هيلين للمجاملة ، كما انها ، فى نفس الوقت ، فهمت
معنى جملة الخبيثة ، أعجبها الأسلوب فبادرت برد الكرة اليه فى سرعة
وذكاء :

« أشكرك هر جبالى . . . ولكن ، هل لهذا الأطراء علاقة بالسؤال
الذى وجهته اليك ؟ ! »
ولم تكن هيلين تدرى أن هذا ، بالضبط ، ماكان يريده عزيز ،
فلقد قال :

« نعم ياسيدتى . . . فلقد كنت فى السادسة عشرة من عمرك عندما
بدأت احداث تلك القصة ! »



في بقعة نائية في أطراف القاهرة ، حيث لاعمران ولا « صريخ ابن يومين » كما يقول المثل الشعبي المصرى . . . كان يقوم بناء غريب الشكل مهجور من ساكنيه . . . كان هذا البناء يتوسط حقلاً من الحقول الممتدة في تلك البقعة الى مدى البصر ، يحيط به سور غير مرتفع مهدم في بعض أجزائه ، يدل على أن البناء قد هُجر منذ زمن ليس بالطويل . . . ولم يكن السور فقط هو الدليل على أن البناء مهجور ، ولكن تساقط الطلاء الأبيض من واجهة البناء المكون من دورين ، والاهمال الشديد البادى على حديقته المتوسطة الاتساع ، وذلك الصدا الذى علا ظلمة المياه القائمة بجوار الجدران الخلفية ، وعلو الحشائش من حولها نتيجة لتسرب المياه . . . وحتى ذلك الحفير البطيء الخطو في الحديقة وخلف البوابة بجلبابه الريفى و« اللبده » الصوفية فوق رأسه في « أغسطس » . . . كل هذا كان دليلاً على أن سكان المبنى قد هجروه منذ زمن !

ولقد كان هذا حقيقياً تماماً . . . فذات يوم من الأيام الأولى لعام ١٩٤٩ أقيم هذا البناء في ذلك المكان النائى كى يكون مستشفى للأمراض النفسية . . . كان صاحب المشروع طبيباً شاباً أنفق من عمره عشر سنوات في احدى جامعات سويسرا كى يدرس فيها الطب النفسى - وكان هذا النوع من الطب في تلك الأيام حديثاً وجذاباً في نفس الوقت - وكان ذلك الطبيب ، كما تقول أوراق الجامعة التى درس فيها ، نابغة . . . كما انه كان ابناً لأب من الأثرياء ، يمتلك ألوف الأفدنة ، وينتمى لأحد الاحزاب القائمة ، ويحمل رتبة الباشوية . . . أما أمه ، فلقد كانت سليله واحدة من أسر مصر العريقة ، وفوق هذا

فهي سيدة مجتمع بارزة ، كان لها نشاط مرموق في بعض المشروعات الاجتماعية الهامة ، مثل مشروع « الحفاء » الذي اشتهر في تلك الأيام وامتلات صفحات الصحف والمجلات بالحديث عنه ، وكان الغرض منه التصديق على أفراد الشعب بأحذية وصنادل تقيهم السير في الشوارع حفاة !!

ولذلك ، فعندما وقع اختيار الفتى على تلك البقعة النائية في أطراف القاهرة ، لم يكن صعباً عليه أن يشتري قطعة الأرض التي تجاور طريقاً جانبياً كان من السهل الوصول اليه عبر احدى ضواحي القاهرة ، كما كان من السهل أيضاً أن يرصف هذا الطريق الجانبي الذي ظل غير ممهد لسنوات طويلة ، وفوق هذا ، استطاع الفتى أن يمهد الطريق الواصل - عبر الحقول - حتى باب المستشفى التي أحيطت بحديقة غناء بديعة التصميم ، وسرعان ما امتدت أسلاك الكهرباء ليصل التيار الكهربائي الى المستشفى الذي جهز بأحدث الأجهزة الطبية ، وبمجموعة منتقاة من الممرضات السويسريات والفرنسيات اللاتي ، باشرافهن على مجموعة أخرى من الممرضات والخدم المصريين ، حولن المستشفى الى قطعة من أوروبا .

كانت المشكلة الوحيدة التي واجهت الطبيب الشاب هي مشكلة المياه . . . فرغم أن مجموعة العمال والمهندسين الذين أشرفوا على بناء المستشفى كانوا قد أقاموا « مضخة » للمياة الجوفية كانت تمده بكل ما يحتاج اليه من مياه ، الا أن مشروع مد أنابيب المياه الى المستشفى عبر الضاحية القريبة توقف فجأة عندما اقيمت الوزارة ، وعينت بدلا منها وزارة أخرى . . . فبدأت أوراق المشروع تتعثر !!

لكن هذا لم يفت في عضد الشاب الذى كان متحمسا حماساً شديداً ، فلقد افتتح مستشفىاه لعلاج المرضى النفسيين والمصابين بالاكتئاب وانفصام الشخصية و . . . و . . . وما إلى ذلك . . . واستقبل المستشفى بالفعل مجموعة لا بأس بها من المرضى الذين كانوا من أبناء الموسرين والاغنياء والقادرين على دفع تكاليف العلاج الباهظة !

في الشهور الأولى بدا الأمر وكأن كل شىء على مايرام ، وأن المستشفى يلقي رواجاً شديداً ، خاصة بعد أن اشتهر أمر الطبيب الشاب وسط فتيات العائلات الارستقراطية ، وبعد أن أصبح المرض النفسى « موضحة » بين فتيات الأسر وسيداتهما . . . ولكن الذى حدث ، أنه في منتصف عام ١٩٥١ ، توقف المستشفى عن استقبال مرضاه ، واختفى الطبيب الشاب الذى قيل فى أول الأمر إنه سافر الى أوروبا لاستحضار بعض الأجهزة الحديثة اللازمة لمستشفاه ، والاطلاع على آخر تطورات العلم . . . ثم ، وعندما طال غياب الطبيب ، وبدا أن المستشفى لم يعد يجد رعاية من أسرته ، وأن كل الممرضات السويسريات والفرنسيات قد عدن الى بلادهن ، أو التحق بعضهن بالعمل فى مستشفيات أخرى ، بينما سرّحت الممرضات المصريات والخدم . . . قيل وقتها الكثير عن أسباب اغلاق المستشفى ، منها أسباب عاطفية ، ومنها أسباب تمس شخصيات لها أهميتها فى المجتمع . . . ثم قيل ان الطبيب الشاب نفسه قد وقع فريسة اكتئاب نفسى استلزم علاجه فى الخارج . . . ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ونسى الناس الأمر مع طوفان الأحداث التى جرفت مصر من

أقصاها الى أقصاها !

ولأحد يدري ، بالضبط ، متى بدأت الحياة تدب مرة أخرى في هذا المبنى الذى ظل مهجوراً منذ منتصف عام ١٩٥١ ، ولكن الثابت أنه فى منتصف عام ١٩٥٣ ، قيل إن أحدهم تقدم لشراء المستشفى ومايحيط به من أرض من والد الطبيب الذى كان قد اعتكف عن الحياة العامة بعد أن ورد اسمه فى بعض الفضائح التى ارتكبها رجال ذلك العهد وكشفت عنها الثورة بعد قيامها ، لكن الخفير الذى كان معينا لحراسة المستشفى ظل فى مكانه ووظيفته . . . وبعد بضعة أشهر ، وكان الناس قد نسوا الأمر تماماً وسط الأحداث المتلاحقة التى ازدحمت بها سماء مصر ، علق على المبنى لافتة غريبة مكتوب عليها : « ادارة البحوث والانشاء » . . . كان الاسم غريباً فى ذلك الوقت ، ولم يفهم أحد أية بحوث هذه ، وأى انشاء ، ولم يعرف أحد أية وزارة تتبعها هذه الادارة التى راح موظفوها يتوافدون على المبنى كل يوم فى سيارة اتوبيس قديمة ومتهالكة ، ولا تحمل اسم وزارة أو مصلحة . . . كان المالك الجديد قد طلب إلى الخفير أن يظل فى الحراسة كما كان ، وإن كان قد استأجر معه خفيراً آخر راحا معاً يتناوبان الحراسة على المبنى ، وسرعان ما أصبحتا صديقين حميمين . . . وعادت الحياة الى المبنى المهجور ، وإن ظل يوحى من الخارج - ولكل من يمر عليه من بعيد - أنه ادارة من ادارات الحكومة القليلة الأهمية !

لكن الغريب فى الأمر ، أن « ادارة البحوث والانشاء » هذه لم تكن تتعامل مع الجمهور ، وكان عدد موظفيها محدوداً للغاية ، وكانوا جميعاً -

وبلا استثناء - من الشبان الشديدي الالتزام بمواعيد العمل ، فما أن تدق الساعة الثامنة صباحاً ، حتى يكون هذا الاتوبيس القديم يتمايل على الطريق وهو يحمل الموظفين ، وما ان يفرغ حمولته حتى ينصرف ولا يعود قبل الثانية ظهراً . . . ثم . . .

ثم لم يكن هناك من يهتم بمثل هذه الادارة المهملة من ادارات الحكومة كي يكتشف مثلاً ، أن مجموعة المكاتب والدواليب الحكومية التي نقلت اليها ، كانت تحوى فيما تحويه من أثاث . . . عددا لا بأس به من الخزائن الحديدية الحديثة ، والمزودة بأقفال ذات أرقام . . . وأن بعض هؤلاء الموظفين كانوا يسهرون في المبنى إلى ساعة متأخرة من الليل منكبين على عملهم في حماسة غير معهودة في موظفي الحكومة . . . ولكن - وهذا هو الأهم - لم يلحظ أحد أبداً أن واحداً من هؤلاء الشبان كان لا بد أن يبيت في المبنى كل ليلة في ذلك الجناح البعيد من أجنحة المستشفى السابق !!!

لم ينتبه أحد الى كل هذا بطبيعة الحال ، ففي تلك الأيام كانت العاصمة المصرية تغلى بالأحداث السياسية والخلافات العنيفة ، وتضطرم فيها الصراعات التي قدر لها أن تحسم مستقبل الدولة الى سنوات طويلة قادمة !

لم ينتبه أحد الى ما يحدث في تلك البقعة النائية ، وكان هذا هو المطلوب تماماً . . . فلقد كان هذا المبنى الذي ظل مهجوراً لما يزيد على العامين ، هو واحد من بضعة أماكن وقع عليها الاختيار - بعد دراسات ومناقشات وبحث - في أماكن متفرقة ، لتكون مقار لبعض أقسام جهاز المخابرات العامة المصرية الوليد . . . وكانت مجموعة الموظفين الذين

يبدو وكأنهم يعيشون يومهم وليلهم في هذا المكان النائي ، ليسوا سوى مجموعة من الرواد الأول الذين وضعوا البذرة الأولى لهذا الجهاز الذى قدر له أن يلعب فى الحياة المصرية ، وفى حياة الشرق الأوسط ، بل والعالم أجمع . . . دوراً هاماً ، قدر له - فيما عدا النادر منه - أن يظل طى الكتمان !!

.
.

فى نهاية الثلث الأول من عام ١٩٥٤ ، كان ثمة ضابطان من « موظفى » ذلك المبنى الذى رفعت عليه لافتة « ادارة البحوث والانشاء » ، يجلسان فى مكتب أحدهما وقد استغرقا فى مناقشة طالت بهما منذ ما بعد الظهر حتى شارفت الساعة على الثامنة مساء . . . واذا كان « حسن صقر » و « محسن ممتاز » اثنين من هذا الفريق الذى وقع عليه الاختيار ، فى بداية الثورة ، كى يتولى انشاء أول جهاز للمخابرات العامة المصرية . . . فانها فى ذلك الوقت من اليوم ، بعد غروب الشمس بساعة أو أقل قليلاً ، كانا يبدوان مجهدين أشد ما يكون الاجهاد . . . ذلك أنها عندما بدأ خطواتها الأولى تلك ، كانا يكتشفان فى كل يوم ، بل فى كل ساعة ، حاجتهما الماسة الى « المعرفة » . . . كان هذا الفريق الذى عهد اليه بتلك المهمة العسيرة قد أقسم - قبل أن يبدأ العمل - يمين الولاء لمصر ، لا لشخص ، ولا لنظام ، ولا لمجموعة ، ولا لحزب . . . وربما كان هذا هو السبب فى أنها - برغم الأزمة التى كانت تمر بها مصر فى تلك الأيام - أعطيا ظهرهما لكل تلك الأحداث الملتهبة التى كانت تغلى بها العاصمة المصرية فى ذلك الحين ، خاصة فى أعقاب أزمة مارس الشهيرة . . .

كان لكل منهما رأى فيما كان يحدث بالقطع ، لكنها كانا كلما توغلا في الدراسة والبحث أو الاجتهاد أو استغراقا في التفكير ، يكتشفان مدى الهوة الرهيبة التي كانت مصر تقف على حافتها . . . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وللضرورات التي فرضتها تلك الحرب ، ثم في السنوات التي أعقبتها . . . كان علم المخابرات قد تقدم تقدماً مذهلاً ، وكان قد أصبح علماً له مدارسه وأصوله وقواعده ، وفي الوقت الذي كانت مصر تفتقر فيه إلى مصادر معلومات تبدو وكأنها شرايين حياة وسط مجتمع دولي مفترس ، ومحتل يدنس أرض الوطن بأحذية جنوده ، كانت اسرائيل - العدو القائم على الحدود في تربص - تملك من وسائل المعرفة مايتفوق على ماتملكه بعض الأجهزة القائمة في العالم بالفعل . . . ولقد كان لهذا ظروفه وكانت له أسبابه وملاساته . . . ولكن ، حتى هؤلاء الذين طلب المصريون إليهم سرا وعلى استحياء أن يمدوا لهم يد العون في هذا المجال ، ابتسموا وهم يقدمون قشوراً عفا عليها الزمان ، وأكل عليها الدهر وشرب . . . لكن هذا لم يفت في عضد الرجال ، فلقد أيقنوا منذ البدايات الأولى أن واحدة من دول العالم - مهما تغنت بصداقتها لنا وحرصها علينا - لن تقدم لهم أى عون حقيقى وفعال في هذا المجال . . . وإذا قدمت ، فهي لن تقدم سوى تلك الوسائل والبدايات التي أصبحت بلا قيمة تذكر . . . وكان هذا في حد ذاته - بالنسبة لهؤلاء الشباب - مرضياً تماماً ، وإذا كان هؤلاء قد بدءوا بتلك القشور منذ عشرات السنين ، فانهم يستطيعون أن يبدءوا أيضاً من هنا ، بتلك القشور التافهة ، على أن يسابقوا الزمن ، ويختصروه بالتجربة والدراسة والتعليم والاحتكاك الذي أصبح مفروضاً

علينا كأمة وكدولة وكثورة معا . . .

ثم . . .

ثم كانت هناك دائما وسائل للحصول على اللب أو بعض ما يحيط به
فيما تحت القشور . . .

كانت هناك وسائل - قد تكون خطيرة في بعض الأحيان - لكن
الرجال كانوا في أشد الحاجة الى العلم عطاشا للمعرفة !
ثم كانت هناك التجربة التي أصبحت - بمرور الوقت - خير أستاذ
تعلموا على يديه الكثير !

ولكن . . . وبالرغم من كل هذا ، فلقد كانت هناك عقبات
لا يصلح فيها سوى الاقتحام . . .

عقبات كانت تبدو مستحيلة التجاوز !

منها - على سبيل المثال - أن اسرائيل كانت تملك - في كل بلاد
العالم ، ومنها البلاد العربية ، ومن بينها مصر - جاليات يهودية تدين لها
بالولاء ، أو مع أقصى درجات حسن النية ، يدين بعضها بالولاء
لدولتهم الجديدة . . . وكان هؤلاء بوصفهم مواطنين يلعبون أدواراً
اقتصادية واجتماعية بل وسياسية هامة داخل هذه الدول . . . وكان
هؤلاء يستطيعون امداد اسرائيل بكل ما تحتاج اليه من معلومات عن
مصر . . . وعلى ذلك فان مصر كانت ، بطبيعة الحال ، في حاجة الى
عيون لها في قلب اسرائيل . . . وباختصار ، فلقد كان « حسن صقر »
و « محسن ممتاز » في ذلك اليوم ، يبحثان عن وسيلة لايجاد « جاسوس »
يعيش في قلب اسرائيل ، كي يمدنا بما نحتاج اليه من معلومات .

لم تكن المناقشات التي دارت في هذا اليوم من أيام ابريل عام ١٩٥٤ قد بدأت في هذا اليوم ، لكنها كانت قد بدأت قبل ذلك بشهور طويلة ، وكانا قد قرأ كل ما استطاعت أيديهما أن تصل اليه من تجارب حول هذا الموضوع . . . وكان الفريق الذي سافر الى الخارج في مهمات سرية ، وانتشر في دول عديدة في العالم ، ومراكز تجسس كانت تغلى بها فيها من صراعات - قيل وقتها إن هذه المجموعة من الضباط خرجوا لبيدوا أموال الشعب على ملذاتهم بعد أن « استولوا » على البلد - قد استطاع أن يكون في شهور قليلة ، أول مكتبة يستطيع الرجال أن يلجئوا اليها ويدرسوها . . . كانت هناك « عمليات » تمت اثناء الحرب العالمي ، بعضها أعلن عنه ، والبعض الآخر لم يعلن عنه . . . من هذه العمليات ، بدأت الخطوة الأولى في التعليم .

ولقد فكرا - حسن صقر ومحسن ممتاز - في « تجنيد » اسرائيلي . . . ولكن ، كانت أحداث الحرب العالمية الثانية قد أكدت أن « الطابور الخامس » الشهير ، والذي زرعه المانيا في كل دول الغرب ، قد انكشف أمره بصورة أو بأخرى ، وسقطت شبكاته واحدة اثر الثانية !

ان اسرائيل تستطيع - بسهولة - أن تفعل هذا معنا ، لأن المجتمعات العربية - ومنها مصر - مجتمعات مستقرة ومفتوحة ، وفيها مواطنون يهود ، واذا كانت اسرائيل لاتضم مواطنين مصريين فإن فيها مواطنين فلسطينيين ، مواطنين عربا . . . وكان لابد ان يفكرا في اللجوء الى مواطن عربي يعيش في اسرائيل ، وماكادت الدراسات والمناقشات تتقدم خطوات ، حتى اكتشفا أن هذا أيضا مستحيل . . .

ذلك أن العرب الذين يعيشون في اسرائيل ، موضوعون - بالضرورة -
تحت رقابة صارمة ، ثم إنهم مبعدون - بالضرورة أيضا - عن مواطن
المعلومات . . . بل إن ثمة أماكن بعينها محرم عليهم ارتيادها !!!

كان حسن ومحسن يشعران كلما أوغلا في المناقشة ، أن ثمة جبلا
يلتف حول عنقيهما . . . فوق قلة خبرتيهما ، بدت الطرق أمامهما
مسدودة . . . فلو أنها - مثلا - لجأ الى شخص من « جنسية الثالثة » - غير
الاسرائيلية والمصرية - فإن هذا الشخص أولاً لن يكون سوى زائر ،
وليس مقيماً كما هو مطلوب ، وهو ثانياً لن يكون ولاؤه لمصر ، لأن ولائه
الحقيقي سيكون لعدد الجنيهاً التي ستدفع له نظير عمله
ومخاطرته . . . وهو ثالثاً لن يكون مواطناً اسرائيلياً ، ومهما بلغت الثقة في
شخصه ، فلسوف يظل في البداية والنهاية أجنبياً ! . . . مثل هذا
الشخص ، سيكون ولاؤه الحقيقي لمن يدفع أكثر !!!
وهنا هدهما التفكير الى البحث عن فدائي .

جاءت الفكرة في لحظة من لحظات الضيق والاختناق والاحساس
بالعجز أمام عقبات تبدو مستحيلة التخطي ، عندما هتف محسن
ممتاز :

« مفيش غير انى أروح أنا بقى ! »

نظر اليه حسن صقر في دهشة ، كان يعرف أن محسن ممتاز من هذا
النوع من الفدائيين الذين دوخوا الانجليز في القناة لسنوات طويلة دون
أن يعرف أحد عنه شيئاً ، حكايات بلا نهاية تلك التي يحكيها
الفدائيون والذين عرفوا محسن ممتاز ، عن جرأته الفائقة في مواجهة
المخاطر والموت معاً !

وفي البداية فلقد راقبت الفكرة لحسن صقر . . . إن الصفة الأولى والهامة والتي يجب أن تتوافر في « الجاسوس » المطلوب ، هي الولاء المطلق لمصر . . . فهل يطمع أحد في ولاء أنقى من ولاء محسن ممتاز ؟ !

ولكن . . . لأنها تعلمها ألا يخضعاً للفكرة البراقة ، وألا يتحمساً لشيء قبل دراسته من كل الوجوه ، فلقد بدأ على الفور في دراسة الفكرة . . . فكرة « زرع » فدائي داخل المجتمع الاسرائيلي !

دون شك كانت الفرصة متاحة !

فالمجتمع اليهودي في مصر - في ذلك الوقت - كبير ، منهم رجال الأعمال و أصحاب الملايين ، ومنهم عمال ومهنيون وتجار وطلبة ومدرسون وموظفون وأصحاب محلات كبرى ومحلات صغرى ومحلات بقالة و . . . و . . . وهما كانا منذ عامين قد قتلا هذا المجتمع بحثاً وتحريماً حتى وصلا الى مايشبه المعرفة الكاملة به . . . وكان المطلوب الآن ، هو البحث عن وسيلة لـ « زرع » هذا الفدائي أولاً ، وسط المجتمع اليهودي في القاهرة . . . كانت هذه بالضرورة ، هي الخطوة الأولى !

« قهوة متاتيا ! »

هتف محسن باسم هذا المقهى التاريخي والذي كانت الجالية اليهودية تتخذ من أحد أركانه مقراً للقائهم في الخمسينيات من هذا القرن ، ومن هذا المقهى ، يمكن أن تبدأ عملية « الزرع » . . . ولم يكن حسن صقر مختلفاً مع محسن الذي ألهب الحماس أفكاره

فراحت تتدفق من بين شفثيه وكأنه عاش سنوات يفكر في الموضوع ،
كان حسن صقر موافقاً فلقد كان طبيعياً أن يظهر يهودى فى قهوة متاتيا ،
وكان سهلاً أن يحكى عن نفسه قصة شديدة الاحكام تجعله مقبولاً فى
هذا المجتمع ، كما أنه سيصبح من الطبيعى أن يتعرف إلى بنى جنسه
الجدد ، وأن يصنع لنفسه عملاً أو وظيفة . . . و . . . ولكن حسن
صقر كان - برغم مشاركته فى الحوار - يبدو ساهماً . . . فى لحظة ضاق
محسن ممتاز بسهولة هذا وكان متعباً فصاح فيه :

«تقدر تقول لى انت سرحان فى ايه ؟ !»

قال حسن على الفور :

«فاكر يوم العسكرى الانجليزى ماشتمك ؟ !»

« احنا فى ايه والا فى ايه ؟ !»

«فاكر اليوم ده يا محسن ؟ !»

« ايو فاكركه . . . ايه بقى ؟ !»

« ايه اللى حصل ؟ !»

لم يكن محسن من النوع الذى يجب الحديث عن نفسه ، علمته
الحياة مع الفدائيين أن الذات هى آخر ما يجب أن يفكر فيه الانسان
الذى وهب حياته لقضية عامة ، ولذلك . . . فلقد ضاق بسؤال صديقه
وإن كان - رغماً عنه - قد تذكر هذا اليوم فى السويس !

كانوا قد عهدوا اليه بعملية على درجة عالية من الأهمية والخطورة
داخل المعسكرات البريطانية فى القناة ، فوضع الخطة التى بدت له
محكمة ، ورتب كل شىء ، ولم يعد باقياً سوى الحصول على بعض

المفرقات التي كان عليه أن يتسلمها في بار احدي دور السينما في السويس ، والتي كانت متخصصة في عرض الأفلام الأجنبية التي يرتادها جنود الاحتلال ، ويعج بهم البار في نفس الوقت .

في الموعد المحدد ، وحسب الخطة التي وضعت ليتسلم بمقتضاها الشحنة الناسفة من شخص ما ، ذهب محسن ممتاز الى البار ، غير أنه حدث أن دخل الى المكان جندي يترنح من فرط السكر ، راح الجندي يتخبط هنا وهناك ، ثم . . . في خطوة غير مقصودة ، اصطدم بمحسن ممتاز ، الذي كان مشغولاً عنه بمراقبة باب البار . . . ورغم أن محسن ابتسم له معتذراً ، فإن الجندي راح يتحرش به . . . وكان من المحتمل أن يصفح محسن عن بذاءات الجندي وسبابه مهما كان ، وهو قد تغاضى عما ناله شخصياً من سباب ، ولكن . . . أن يقول الجندي عنه إنه : « مصري قدر » . . . فهذا مالم يحتمله محسن .

قال الجندي هذا وانقلبت الدنيا رأساً على عقب ، وبهت الحاضرون لهول الضربات التي راحت تنهال على الجندي بعنف أسال دمه وأفقدته الوعي في دقائق خاطفة . . . ومالبت محسن أن اطلق ساقيه للريح قبل أن يفيق الحاضرون من هول ما صنعه . . . فر محسن ، ولم يتسلم المفرقات ، وأجلت العملية !

«عاوز تقول أيه !»

أدرك محسن أن وراء سؤال صديقه ماوراءه . . . فلقد نهض حسن صقر وقال وهو يتناول جاكته استعداداً للانصراف :

« الفدائي ماينف عش !»

هم محسن بالاعتراض عندما صاح فيه حسن :

« مش أنت بالذات يا محسن ، أى فدائى ما ينفعش ! »
ولم تطل المناقشة بعد ذلك ، فلقد وصلت هذا المرة أيضا الى طريق
مسدود . . . فالفدائى الذى لا يحتمل سباب رجل سكران ، لا يستطيع
أن يعيش فى مجتمع الأعداء . . . لأنه هناك ، سوف يسمع عن وطنه
وأهله وناسه ما قد يفقده صوابه ، بل وحياته !

ران الصمت على الغرفة . . . وسرى اليها نقيق الضفادع من
الخارج ، ورفع محسن رأسه نحو رئيسه وزميله وصديقه متسائلا :
« تقدر تقول لى انت لست الجا كيت ليه ؟ ! »

« عاوز اتفسح ! »

مرة أخرى حاول محسن الاعتراض ، فصاح حسن وهو يندفع نحو
باب الغرفة :

« مش عاوز اشتغل ، تعبت ، مخى تعب ، عاوز ارتاح ولو
ساعتين ! »



لأن محسن ممتاز كان ابن عمدة ، ولأنه كان أعزب ووحيد والديه ،
فلقد استطاع أن يمتلك سيارة صغيرة من ماركة فرنسية كان تصميمها -
ولا يزال حتى اليوم - غريبا ومضحكا ، وكانت هذه السيارة منتشرة فى
مصر فى تلك الأيام . . . ولقد قاد محسن سيارته هذه فى تلك الليلة الى
لاهدف !

« اطلع بينا على الدنيا يا أخى خلىنا نشوفها ! »
هكذا قال حسن ، وهكذا مضت بهما السيارة تضرب فى شوارع

القاهرة حتى وصلت الى وسط المدينة حيث الأضواء والناس ودور
السينما والمسارح والمطاعم ، ولقد تعمدا طوال الطريق الا يتحدثا في
الموضوع على الاطلاق ، فقبل أن يركب حسن الى جواره صاح فيه :
« محسن ! »

مال هذا وهو جالس في مقعده خلف عجلة القيادة مطلا على
صديقه الذى صاح :

« قبل ماركب . . مش عاوز كلام فى الشغل خالص ! »

وهكذا ، وقد أصبحتا فى شارع سليمان - وهو شارع دور السينما
والمحلات الراقية فى قلب القاهرة - راحا يمتصان الأضواء والألوان
والحياة والحركة ، حتى اذا مرت السيارة باحدى دورالسينما الامريكية ،
مال حسن صقر محملاً فى الأفيش الذى كان يحوى رسوماً لجنود
ومظلات وحروب وانفجارات فصاح :

« اركن يا محسن ! »

مال محسن بالسيارة وتوقف .

« تعال ندخل الفيلم ده ! »

بدا على محسن التأفف ، فلقد كان جائعا ، وكان يطمع فى الذهاب
الى مطعم يسكت فيه صراخ معدته ، لكن حسن قال مقنعاً اياه :
« ما هو احنا مش حاننسى الشغل . . . وزى انا ما بافكر فيه وانا
قاعد جنبك ، انت بتفكر فيه وانت بتسوق العربية . . . وأنا عاوز
انسى ، ولازم ننسى ، والسينما دى بتعرض فيلم عن الحرب ، تعال
نتفرج عليه !! »

بدا منطقهُ سليماً تماماً ، فلأنهما ضابطان سابقان في الجيش ، ولأنهما
شاركاً في حرب فلسطين ، فان فيلماً حربياً ، كان كفيلاً بان يمتص
انتباههما !

دفعاً خمسة عشر قرشاً ثمناً لتذكرتين في الجزء الخلفى من
الصالة . . . ودخلا الفيلم !

.....

وكانت كارثة !!



قال عزيز الجبالى للسيدة هيلين سمحون وهو يحتسى معها فنجانا
آخر من القهوة المصرية التى أعجبتها . . . إن ثمة أشياء يصنعها القدر
دون أن يستطيع الانسان أن يخضعها لقانون معين ، وأن الحضارة
الغربية بكل مافيهها من مادية ، تتجاهل هذا الجزء الهام من حياة
الانسان دون بحث كاف واهتمام بقيمة مصادفة كتلك التى حدثت في
ذلك اليوم من الأيام الأخيرة لشهر ابريل عام ١٩٥٤
كانت السبب المباشر في كل ماسوف يقصه عليها بعد ذلك من
أحداث !!

.....
.....

كان الفيلم يحكى قصة واقعية قرأها حسن صقر ومحسن ممتاز في تلك
الأوراق والكتب المنشورة والمستجلبية ، والتى استطاعت المجموعة التى
سافرت الى الخارج أن تحصل عليها ، حقاً إن الفيلم أضفى على
العملية الحقيقية رونقا ، كان هناك مزيد من الاثارة ، ومزيد من

الاحداث التي جعلت من الفيلم تحفة فنية شددت المتفرجين الى المقاعد طوال مدة عرضه وقد كتموا أنفاسهم كانت قصة مشهورة عن احدى العمليات التي قامت بها المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية .

فلقد كان النازيون أثناء احتلالهم لفرنسا ، قد اختاروا قصرًا من قصورها الواقعة وسط الريف الفرنسي ليجعلوا منه مركزا للمخابرات الألمانية في فرنسا وأصبح هذا القصر مايمكن أن يطلق عليه : «المركز الرئيسي للمخابرات الألمانية في أوروبا كلها» وعلى ذلك ، فلقد كان يحوى كل الوثائق الخاصة بالطابور الخامس الالمانى المنتشر في كل دول أوروبا وكان الحصول على الكشوف التي تحمل أسماء هؤلاء الجواسيس ، قد أصبح أمراً على أكبر قدر من الأهمية بالنسبة لمسار الحرب خاصة ، بعد أن علمت المخابرات البريطانية ، أن هذه الكشوف موجودة في خزانة سرية في إحدى غرف هذا القصر وكان المطلوب ، هو الحصول على « صورة » من هذه الكشوف دون أن يشعر الألمان بذلك أى أن المطلوب كان اقتحام القصر - سراً - الذى وضع تحت حراسة رهيبة طوال الاربع والعشرين ساعة ، ليس بالحراس اليقظين فقط ، وانما ايضا بكلاب متوحشة تمزق كل من تسول له نفسه عبور السور الذى أوصلوا اليه تياراً كهربائياً صاعقاً ثم ، واذا ماتخطى الفدائيون هذه المواقع المخيفة ، كان عليهم أن يقتحموا القصر نفسه - دون أن يشعر بهم أحد - وأن يصلوا الى الغرفة التي تحوى الخزانة ، ثم يفتحوها ويصوروا الكشوف التي تحمل اسماء افراد الطابور الخامس في كل دولة من دول أوروبا ، ثم يعيدوها إلى مكانها

ويغلقوا الخزانة كما كانت تماماً . . . بعد ذلك كان عليهم أن يغادروا القصر ويعودوا الى بريطانيا بكنزهم الثمين ! !

ولقد عهد الى أحد ضباط المخابرات البريطانية بهذه العملية ، وبدأ على الفور في اختيار الرجال ، ودراسة القصر من واقع الخرائط التي وضعت تحت يده ، درس مداخله ومخارجة وحراسه وحراسته والكشافات ومواقها والكلاب ودوراتها . . . ثم درس الرحلة وامكاناتها والاماكن التي سيسقط فيها الرجال بالمظلات ، وأين يذهبون ثم الوصول الى القصر . . . و . . . وعشرات التفاصيل والمراحل التي تبدو مستحيلة تماماً . لكنه كان أمام واجب قومي سينقذ البلاد من نزيف للمعلومات مؤكداً : و كان لا بد أن تتحول المستحيلات الى ممكنات !

ولقد حدث هذا . . .

تمت الدراسات والتدريبات والتجهيزات . . . و . . . وبقيت عقبة واحدة .

كانت هذه العقبة هي الخزانة .

قالت المعلومات التي وصلت الى المخابرات البريطانية ، إن « الخزانة » من نوع متقدم للغاية ، وأنها تغلق وتفتح حسب أرقام معينة ، ولقد وجد رجل المخابرات البريطانية نفسه أمام معضلة . . . فإنه يستطيع الوصول برجاله الى الخزانة دون أن يشعر به أحد ، ولكنه كي يفتحها ، مضطر لأن يدمرها ويدمر معها العملية كلها ، فالتدمير سوف يوقظ الحراس وينبههم ، ثم إنه سوف يشي بأن الكشوف قد صورت أو سرقت ، وسوف يجد الالمان ألف وسيلة لتحذير عملائهم ،

حتى اذا وصلت هذه الكشوف الى لندن في رحلة العودة كان هؤلاء قد اختفوا . . . ولم يكن أمام رجل المخابرات البريطانى سوى طريق واحد ، هو أن يلجأ الى « سكوتلانديارد » !

وفي زيارة لرئيس « سكوتلانديارد » ذات الشهرة العالمية ، قال الرجل إنه فى حاجة الى ضابط خبير فى فتح الخزائن . . . ولم تكن هذه مشكلة ، فهناك عدد كاف من الخبراء الذين يستطيعون فتح أية خزانة على وجه الأرض ، ولكن . . . ماهو الغرض الذى يريده هذا الضابط من أجله ؟ !

كانت العملية على أعلى درجة من السرية ، ولم يكن البوح بها سهلاً ، لكن رجل سكوتلانديارد قال : إن الغرض مهم جداً لاختيار الشخص المناسب . . . وبعد حوار لم يطل كثيراً ، اقتنع رجل المخابرات وأفضى الى رجل البوليس بالمهمة . . . فابتسم هذا قائلاً :

« اذن فأنت يا صديقى لست فى حاجة إلى ضابط ! »
نظر اليه هذا فى دهشة ، فبادره رجل البوليس بقوله :
« أنت فى حاجة إلى لص !! »

وكان منطق رجل البوليس فى هذا بسيطاً للغاية : إن اللص لديه احساس أكبر وأعمق بالأمن والسرية من الضابط . . . اللص عندما يسرق ، يفعل هذا وكل حواسه مشرعة لملاقاة الخطر القادم أو المحتمل ، لذلك . . . فإن أصابعه سوف تعمل فى دائرة هذا الاحساس الحاد بالأمن . . . أما الضابط ، فلسوف يستطيع فتح الخزانة حقاً ، لكن إحساسه بالأمن لن يكون فى حدة إحساس اللص ، فهو لم يسرق من قبل ، وهو لن يشعر بذلك الخوف اذا

ما انكشف أمره .

« وهل لديك هذا اللص ؟ ! »

« نعم . . . إنه في السجن ! »

« وهل تستطيع اقناعه بالقيام بهذه المخاطرة ؟ ! »

« هذا عملك يا صديقي وليس عملي ! »

وكان رجل البوليس ، مرة أخرى على حق !

لكن الغريب أن ضابط المخابرات لم يبذل جهداً في إقناع اللص ،

فما ان عرض عليه المهمة ، حتى وافق على الفور ، فرغم أنه مسجون ،

الا أنه أحس أن « الوطن » في حاجة اليه ، وكان لا بد له أن يلبي ،

ولو كانت المخاطر تحيط بالعملية من كل جانب . . . وافق اللص من

قبل أن يسمع أنه سيصدر عنه عفو عام ، وأنه - لو أدى المهمة - سيعود

مواطننا شريفاً نظيف الماضى !

وهكذا بدأ اللص في التدريب على القفز بالمظلة من الطائرة ، وعلى

ما كان ينقصه كجندى أو فدائى . . . وأصبح فرداً من أفراد تلك

المجموعة التاريخية التى استطاعت - بما يشبه المعجزة - أن تقتحم هذا

القصر ، وأن تصور الكشوف كاملة ، وسقط بعدها كل جواسيس

المانيا النازية فى أوروبا .

وكان الفضل للص لديه الاحساس بالأمن أقوى من ضابط

بوليس !

.

.

كانت الساعة تقرب من الثالثة صباحاً ومازالت تلك السيارة

الصغيرة فى مكانها من شارع سليمان باشا أمام احدى دور السينما

الأمريكية . . . في داخلها جلس شخصان لم يكفا لحظة عن الحديث ، وكان حديثها خافتا ، فشل الشرطي المكلف بحراسة هذا الشارع أن يسمع منه كلمة رغم مروره بجوارهما جيئة وذهابا منذ أن أغلقت دور السينما والمحلات وأطفئت الأنوار ، وبالرغم من أنه كان في بعض الأحيان يتلكأ بجوارهما لعله يسمع شيئا مما يقولانه أويتآمران عليه في مثل هذا الوقت من الليل ، إلا أنه لم يستطع . . . ساوره الشك منذ ساعة وبعض الساعة ، لكنه في نهاية الأمر ضاق بالمراقبة فقرر أن يحسم الأمر . . . تقدم من السيارة وانحنى نحو الجالسين في الداخل :

« مساء الخير يا بهوات ! »

التفت إليه الجالس خلف عجلة القيادة :

« مساء الخير يا شاويش ! »

على استحياء سأل الرجل :

« فيه - لا مؤاخذة - حاجة ؟ ! »

« حاجة زى ايه ؟ ! »

« انتم واقفين هنا من بدرى ، والساعة بقت تلاتة ! »

هتف محسن ممتاز وهو ينظر في ساعته ذاهلا :

« معقول ده ؟ ! »

وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً ، عندما أدار محسن موتور السيارة ، وانطلق بها وهو يعتذر للشرطي بكلمات متلاحقة وبلا معنى . . . اندفعت السيارة الفرنسية الصنع المضحكة المنظر تخرق شوارع القاهرة الخالية تماماً . . . لكن « حسن صقر » و « محسن ممتاز » كان قد استقر بهما الرأي على أنه لا بد من « البحث عن آفاق » !

الفصل الخامس

البحث عن أفاق

قالت « هيلين سمحون » وهي تعتدل في مقعدها وعيناها تبرقان :
إن القصة تبدو لها غريبة ومثيرة للاهتمام ، حتى ولو لم تكن تدور حول
زوجها الراحل ، وربما كان هذا راجعا إلى طبيعة هذا النوع من
القصص وما يحيط بأحداثها من غموض . . . ثم اعترفت لعزير الجبالى
اعترافا بداله مثيرا حقا ، قالت : إن حبها لذيقيد لم يتأثر بعد أن عرفت
عنه ما عرفت ، وإنما حاولت - طوال الأسابيع الماضية ، ومنذ ليلة وفاته
التي اعترف لها فيها بأنه مصرى وليس اسرئيليا ومسلم وليس يهوديا -
حاولت أن تثور عليه وعلى ذكره معا ، حاولت أن تغضب والا تغفر له
أنه خدعها حتى ولو كان مضطرا لذلك ، لكنها لم تستطع . . . باءت
كل محاولاتها بالفشل ، فلقد ظل الرجل الذى أحبته وتزوجته وانجبت
منه طفلين ، ماثلا أمامها بكل حنانه ورقته وحرارة حبه وتدفقه لكن
الغريب فى الأمر - هكذا قالت لعزير وهى تدارى خجلا اعترافها - أنها

كانت تشعر كلما أو غل في الحكاية بقلبها يدق . . . لالشيء إلا لأنها تعرف أن هذه الأحداث الغريبة سوف تقودها بالقطع نحو حقيقة زوجها ، نحو حقيقة ديثيد شارل سمحون !

ولقد استمع لها عزيز صامتا ، حتى إذا انتهت ، غمغم بكلمات لاتعنى شيئا وهو يبتسم مجاملة . . . ثم راح يكمل قصته !!



في صباح اليوم التالي ، كان « محسن ممتاز » - رسميا - هو المسئول عن هذه العملية ، عملية « البحث عن أفاق ! » ولقد يبدو الأمر بسيطا لأول وهلة رغم أنه بالقطع ليس كذلك ، فإنك قد تستطيع العثور على مئات الأفاقين في الكثير من الأماكن المشبوهة ، في قمة المجتمع كما في قاعه ، ولكن . . . وفي مثل هذا النوع من العمل السرى ، يصبح البحث عن « أفاق ما » ، بمواصفات خاصة وشروط شديدة الصرامة ، أمرا عسيرا إلى حد كبير . . . وبالرغم من هذا ، فهو ليس بالطبع مستحيلا ، وإن كان يحتاج إلى الكثير من « الخبرة » حتى يستطيع الباحث أن « ينتقى » من وسط العشرات الذين سيلتقى بهم ، واحدا تنطبق عليه هذه الشروط الضرورية .

بدأ محسن ممتاز البحث فوراً ، وفي نفس اليوم ، وفي اتجاهات متعددة . . . ورغم ما كان لديه من أعمال أخرى كانت تمتص جزءا كبيرا من وقته ، فإنه أعطى لهذه العملية جهدا مضاعفا ، خاصة انه لم يكن يستطيع أن « يفصح » - كما كان الأمر بين رجل المخابرات البريطاني ومسئول سكوتلاند يارد مثلا - عن الهدف من البحث عن

مثل هذا الأفق من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإننا لانستطيع أن نزعم أنه كان يعرف « كيف » يمكن العثور على مثل هذه الشخصية التي لا بد أن تكون - بكل المقاييس - متميزة . . . ذلك أن الخبرة هنا كانت ضرورية ، وإذا كان محسن ممتاز يعلم أنه كان قليل الخبرة ، وفي نفس الوقت عاجزا عن الإفصاح إلى من طلب اليهم مساعدته عن طبيعة المهمة المطلوب من أجلها هذا الأفق ، فلم يكن لديه سوى « الاحساس » العام بالعملية كي يستند إليه في سعيه نحو الهدف !

كان هذا الشاب الريفى المولد يعرف أنه يخوض معركة مضمينة تحتاج إلى قدر هائل من السرية ، فهو لا يتحرك في مجتمع « مغلق » كالمجتمع الاسرائيلى مثلا ، لكنه كان يتحرك في مجتمع « مفتوح » على مصراعيه لجاليات يهودية وأوربية عديدة ومنتشرة في جميع انحاء البلاد !

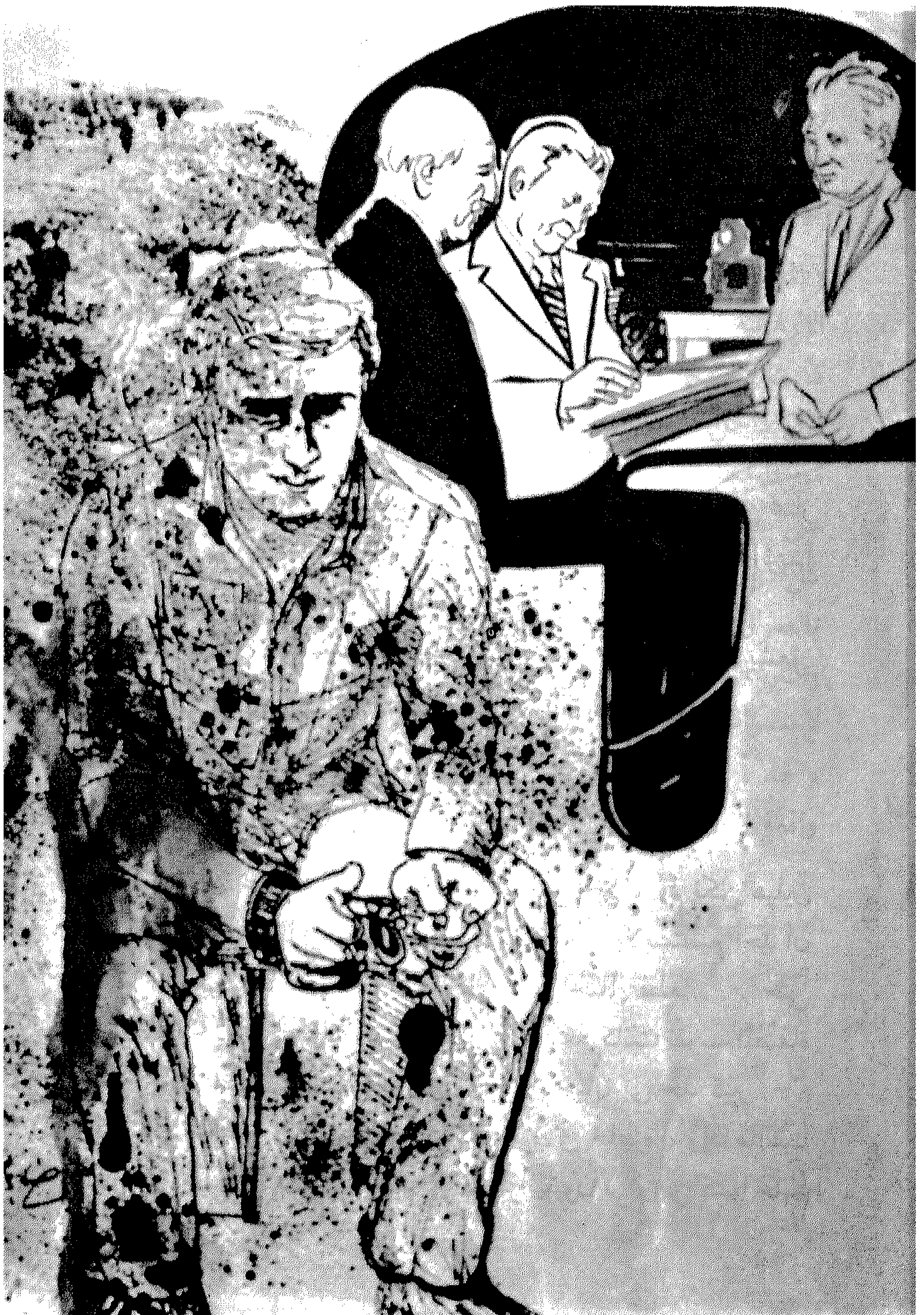
ذلك أن المجتمع المصرى في تلك السنوات ، كان « يشغى » بجاليات مع جميع أنحاء الأرض ، منها جاليات إيطالية ، ويونانية ، وفرنسية ، وبلجيكية ، وانجليزية ، وتركية ، وهندية ، وعربية ، واسبانية ، ومالطية . . . و . . . وكانت هذه الجاليات منتشرة ومنبثة في جميع أنحاء الوطن ، من العاصمة ، وحتى أصغر قرية فيه !

ولقد كانت المشكلة التي واجهت مجموعة الضباط الشبان الذين عهد إليهم بإنشاء أول جهاز مخابرات مصرى « منظم وحديث » ، ليست فقط في قلة المعلومات عن هذه الأجهزة وكيفية تنظيمها وأقسامها وأسلوب عملها ، فلقد كانت هذه مشكلة من الممكن - بالممارسة - التغلب عليها ، بل وإيجاد صيغة مصرية لها . . . ولكن المشكلة الحقيقية

كانت في « قلة الخبرة » فيما يختص بأسلوب العمل مع المندوبين أو العملاء ، واختيارهم وتدريبهم ، واقناعهم ، وما إلى ذلك من فنون كانت قد تقدمت كثيرا وبصورة فاضحة - إن جاز لنا أن نقول ذلك - عما كان معمولا به في الأجهزة المصرية في ذلك الوقت . . . والذي كان يزيد من صعوبة المشكلة ، هو أن إسرائيل كانت قد استطاعت إنشاء جهاز متقدم بالفعل للمخابرات ، بل لقد كان « الموساد » - بالقياس إلى بعض الأجهزة الأوربية - يعتبر جهازا فعالا ومؤثرا ، لافي المحيط الخاص بالشرق الأوسط فقط ، بل على مستوى العالم كله . . . وكان لذلك أسبابه بطبيعته الحال ، وهي أسباب لا ترجع إلى « العبقرية » اليهودية ، كما يحاول البعض أن يروج ، وكما يحاول الاسرائيليون أنفسهم أن يشيعوا في العالم كله خاصة في الدول العربية ، وإنما ترجع هذه الأسباب إلى ظروف تاريخية وموضوعية جعلتهم ، بالضرورة ، يكتسبون خبرة كبيرة ومؤثرة هذا المجال . . . كما كانت هناك ظروف موضوعية وقاهرة جعلت المصريين ، في تلك الأيام ، يفتقرون إلى تلك الخبرة التي كانوا في أشد الحاجة إليها !

.
.

هنا توقف عزيز الجبالي عن الحديث ناظرا نحو « فراو سمحون » نظرة من يريد أن يفصح عن شيء ، ولقد فهمت هي هذه النظرة ، ومالت نحوه مشجعة إياه على الإفصاح عما يدور في ذهنه . . . وتحدث هو بصراحة ، قال : إنه لا بد هنا من وقفة تبدو بعيدة عن تيار القصة التي يحكيها ، لكن الحقيقة أن أحداث أية قصة ، وقيمة أبطالها ،



وبناء شخصياتها لا يمكن أن يتم إلا من خلال محيطها الموضوعي ،
والجو العام الذي وقعت فيه وعلى هذا فإن أحداث القصة وطبيعة
الأدوار التي لعبها كل فرد من أبطالها ، لا يمكن أن تفهم على حقيقتها
إلا من خلال معرفة « الجو العام » الذي وقعت فيه .

قالت السيدة سمحون :

« إن هذا أمر طبيعي ! »

فاستطرد عزيز :

«ولهذا فلا بد لنا من أن نعرف ، على أية أرض كان محسن ممتاز
يتحرك ، وفي مواجهة أية عقبات ؟ وأي مجتمع ، وبأية خبرة بدأ
رأفت الهجان حركته الشديدة الخطر ؟ ! »

ولم ترد هيلين سمحون ، وانتظرت أن يكمل حديثه بعد أن يشعل
السيجارة التي شرع في تدخينها وقد استغرق في التفكير ا

.
.

ولقد كان عزيز الجبالي في واقع الأمر على حق ، ولم تكن هيلين
سمحون تعرف ما الذي يجول بخاطره بالقطع ولا يستطيع أحد أن
يزعم أنه يعرف ما الذي كان يشغل بال عزيز الجبالي قطعا حتى
ولو حللنا حديثه إلى تلك السيدة الألمانية ، فلقد كانت ثقوب المصفاة
التي يحكى ماينفد منها تضيق في بعض الأحيان إلى حد كبير
ولكننا قد نستطيع أن نشتم بعض ما كان يجول في خاطره ، وإذا ما القينا
نظرة على عدد الكتب التي أخرجها الاسرائيليون ، أو من كتبوا عنهم

ولهم ، تخيلنا هذا الكم من المبالغة التي أضفوها على عبقريتهم ، وقارنا هذا الذى قيل بالواقع ، لهالنا الأمر .

وعلى سبيل المثال ، فانه من تلك العناصر التي من أجلها اكتسب « الموساد » منذ البداية ، تلك الخبرة التي تحدثنا عنها . . . إن المنظمات الارهابية الاسرائيلية التي ولدت في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل ، كانت كل منها تملك جهازا خاصا بها يعمل منذ أن بدأت ، سرا . . . لافى داخل فلسطين وحدها ، بل في قلب الأمة العربية على اتساعها من المحيط إلى الخليج ، وفي كل دول العالم أيضا بحكم تشرذم اليهود على سطح الكرة الأرضية . . . إن اعضاء هذه العصابات جندوا من كل دول العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . . . وكان لكل واحدة منها - بالضرورة - وكلاء منتشرون في كل الدنيا ، يمدونهم بالأسلحة والتبرعات والمعونات ، وبطبيعة الحال ، بالمعلومات . . . وكان يكفى لإسرائيل عام ١٩٤٨ ، أن تجتمع هذه الأجهزة الصغيرة في جهاز واحد ، ولم يكن الأمر يحتاج إلا لجهد تنظيمى لتصبح الموساد حقيقة واقعة !

ليس هذا فقط ، بل إن « الوكالة اليهودية » التي كان لها - قبل قيام إسرائيل بسنوات طويلة - فروع في جميع أنحاء العالم ، ومنها بالطبع ، الدول العربية ، لم تكن سوى جهاز مخابرات يعمل مع كل الدول ضد كل الدول لمصلحة اليهود . . . وإذا ضربنا مثلا واحدا على ذلك الدور الخطير الذى لعبته الوكالة اليهودية في العالم ، فان مكتبها في القاهرة ، وكان مقره في احدى عمارات شارع قصر النيل ، بوسط العاصمة المصرية ، استطاع المساهمة اثناء الحرب العالمية الثانية في كشف عدد

لابأس به من قضايا التجسس لصالح الحلفاء . . . وربما كانت أشهر تلك القضايا وواحدة من أخطرها ، هي قضية الجاسوس الألماني «هانز ابلر» ، الذي كان يحمل اسماً مصرياً هو «حسين جعفر» - وهو اسم حقيقي ، فلقد كان هانز ابنا لسيدة ألمانية تزوجت من مستشار مصري أعطى لطفلها اسمه بعد أن جعله يعتنق الاسلام وبعد أن صحبه معه ليؤدى فريضة الحج ! - وهي قضية اشتهرت في التاريخ المصري - وفي العالم كله - باسم قضية الراقصة حكمت فهمى ! !

استطاع «هانز ابلر» اثنا الحرب العالمية الثانية أن يحقق نجاحات مذهلة بتوغله داخل ضباط الأمبراطورية الذين كانوا يملأون العاصمة المصرية في تلك الأيام ، سواء الذين كانوا يأتون في إجازة من ميدان القتال في الصحراء الغربية ، أو المقيمون أو الذين يمرون بها في طريقهم إلى دول أخرى ، كما استطاع أن ينمى صداقة وطيدة مع ضابط مخابرات بريطاني كان يقطن العوامة المجاورة لعوامته . . . وعن طريق ابلر هذا - مع زميله الذي كان يدعى «مونكاستر» والذي تخصص في الارسال اللاسلكي - أحرزت الجيوش الألمانية في الصحراء الغربية بقيادة روميل ، انتصارات هددت الوجود البريطاني في الشرق الأوسط كله . . . ولقد ضبطت إحدى الدوريات البريطانية - وبطريق المصادفة البحتة - محطة اللاسلكي التي كانت تستقبل رسائل ابلر ، وعرفت بالتالي أن في القاهرة جاسوساً يعمل لحساب ألمانيا ، لكنها أبدأ لم تستطع الوصول إليه إلا عن طريق الوكالة اليهودية !

كان مسئول الوكالة قد تلقى من إحدى فتياته - وهي فتاة ليل اسمها إيڤيت - بلاغاً عن هانز ابلر - الذي كان يعيش ويتحرك باسم حسين

جعفر - بعد ليلة واحدة قضتها معه في عوامته الشهيرة ، كان ابلر قد أعطاهما عشرين جنيها استرلينيا في الصباح ، وهو مبلغ - بحساب تلك الأيام - كان يعتبر مهولا . . . لكنها قالت لمسئولها في الوكالة :

« ان الرجل الذى قضيت معه ليلة أمس يقول إنه مصرى ، ولكنى متأكدة من أنه ألمانى ، فلقد سمعته يتحدث مع زميله بالألمانية ، بل وبلهجة السار ، وهو عصبى المزاج ، ومعه مال كثيرا ! »
وطلب إليها مسئولها في الوكالة أن تداوم الاتصال بهذا الفتى ، وألا تبلغ أحدا عنه . . . وبالطبع نفذت إيثيت الأوامر وظلت على اتصال بالجاسوس الذى كان يلتقى بها في أحد النوادى الليلية ، حتى استطاعت ذات ليلة أن تحصل على « الشفرة » التى كان يستعملها فى رسائله اللاسلكية . . . وبعدها باعت الوكالة اليهودية معلوماتها للانجليز ، نظير ثمن دفعته بريطانيا التى كانت فى ذلك الوقت ، فى ورطة أكيدة !

ودون استطراد فى هذه القصة ، فإنها تكشف لنا بوضوح ، كيف كان عملاء الوكالة اليهودية - حتى من فتيات الليل - على درجة عالية من الكفاءة والتدريب فإن « إيثيت » هذه التى قدمت نفسها لهانز ابلر على أنها فرنسية من لبنان ، أى أنها تتقن الفرنسية والعربية معا ، كانت أيضا تتقن الألمانية بكل لهجاتها بحيث استطاعت أن تعرف اللهجة التى يتكلم بها الجاسوس ، وهى لهجة إقليم السار !

كانت الوكالة اليهودية وحدها اذن - وعند قيام إسرائيل - تصلح لأن تكون نواة ممتازة لجهاز مخابرات على درجة عالية من الكفاءة !
لكن الأمر لم يقتصر على هذا فقط .

وإذا كانت الحركة الصهيونية تستعد منذ السنوات الأخيرة من القرن الماضي وحتى قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، فإن الأمر الطبيعي أن تعتمد هذه الحركة إلى الاستعانة باليهود في الدول المتقدمة - إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة وروسيا القيصرية ثم الاتحاد السوفيتي فيما بعد - وتحتهم بصفاتهم مواطنين في هذه الدول ، على الالتحاق بأجهزة المخابرات فيها ولقد خلق هذا جيلا من رجال المخابرات اليهود ، الذين ما إن قامت إسرائيل ، حتى كانوا جاهزين تماما لوضع خبرتهم - التي تحوى كل مدارس التجسس في العالم - تحت إمرة جهازها الوليد ! . . . وعلى هذا ، فإن الموساد - في تلك السنوات الأولى من الخمسينيات - كان جهازا حديثا حقا ، لكنه كان يضم خبرات أعرق الأجهزة ، بل وأعظمها على الإطلاق !

ثم يصبح الحديث بعد ذلك عن الجاليات اليهودية في الدول العربية ، وتأثيرها الاقتصادي والاجتماعي بل والسياسي ، من قبيل التيزيد . . . وبالرغم من كل هذا ، وجدت مجموعة الشبان المصريين الذين عهد اليهم بإنشاء جهاز للمخابرات « منظم وحديث » ، نفسها أمام « غول » آخر ، هو تلك العلاقة الفورية التي أقامها الموساد مع أجهزة المخابرات القوية ، بدءاً بالمخابرات البريطانية ، ومرورا بالمخابرات الفرنسية ، ثم انتقالا إلى ما يشبه الوحدة مع المخابرات المركزية الأمريكية !

وعلى هذا ، فلقد كان من السهل أن تزرع إسرائيل في الخمسينيات ، جاسوسا له قدرات متفوقة مثل « ايلي كوهين » الذي ولد في مصر ، وبدأت عملية زرعه في امريكا الجنوبية ، ثم انتقل إلى سوريا كي يتغلغل في قيادة الدولة حتى يقرب من منصب الوزير . . .

كان سهلا ، لا لأنهم كانوا يملكون الخبرة فقط ، بل لأنهم كانوا على دراية كاملة بمجتمعاتنا ، بعاداتنا وتقاليدينا . . . ولكن ، كيف يمكن للمصريين أن يعرفوا شيئا عن مجتمع لم يكن قد تشكل بعد ، ولم تصبح له سماته ومقوماته الأساسية ، كالمجتمع الاسرائيلي في تلك الأيام ؟ !

أمام كل هذه القسدرات ، كان على الرجال أن يبدءوا من الصفر . . . ليس فقط ، بل انهم كانوا يعلمون يقينا أن اشتداد موجات الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، يعطى أساليب العمل السرى - ومع تقدم العلوم والتكنولوجيا العصرية التي دخلت فجأة عصر الذرة - دفعات مهولة وتطوراً كان يطرد يوماً بعد يوم . . . ولم يكن عليهم فقط مسابقة الزمن ليلحقوا بها فوات بلادهم عبر عشرات السنين ، بل كان لابد من تزايد سرعة تقدمهم حتى يكونوا أقدر على الوصول إلى أحدث ماوصلت إليه أساليب هذا العلم الحديث ، وحتى يستطيعوا التعامل معه !

كان الأمر شاقا حقا ، وكان صعبا . . . لكنه - أبدا - لم يكن مستحيلا !



كان ثمة سؤال يواجهه محسن ممتاز منذ البداية : « أى نوع من الأفاقين سوف يبحث عنه ؟ ! »

ولقد كان من الطبيعي أن يصبح الشرط الأول ، هو أن يكون هذا الأفاق مصريا لحما ودما . . . إن الولاء هنا هو الركيزة الأولى للفكرة التي كانت تختمر في رأسه لحظة بعد لحظة . . . علمته نشأته الريفية كيف يصبر ويتنظر - مثله مثل الفلاح المصرى - لشهور وهو يرقب

أبدا أن يبوح بها لمن طلب إليهم البحث عن أفاق !
وكما فعل رجل المخابرات البريطاني عندما لجأ إلى سكوتلانديارد ،
لجأ محسن إلى مجموعة من أصدقائه من ضباط الشرطة الذين يعملون ،
خاصة ، في المباحث !

ولأن محسن كان ذا شخصية جادة لاتعزف الهزل ، فقد تلقى
أصدقائه من ضباط الشرطة طلبه هذا بدهشة . . . وكان طبيعيا أن
يسأله أى منهم عن السبب فى بحثه عن أفاق ، وكان من المستحيل عليه
أن يخبرهم . . . كل ماكان يستطيعه ، هو الجلوس اليهم ، وإدارة نوع
من الحوار المرهق الذى كان - بجهد شديد - يوصله إلى مبتغاه ! .
ولم يكتف محسن بهذا ، بل نزل إلى الشارع !

وكما كان سهلا عليه أن يرتاد النوادى الاجتماعية والرياضة والنوادر
الخاصة ويصل إلى ذروة المجتمع فى جولة صبور . . . لم يكن صعبا على
رجل مثله أن يرتدى ملابس عامل أو سائق أو موظف صغير ، وأن
يندس فى المقاهى ويرتاد البؤر ، ويختلط بنوعيات من البشر صعودا فى
المجتمع إلى قمته وهبوطا إلى قاعه . . . وبالرغم من أن تجربته هذه
بالذات لم تقده إلى العثور على ضالته ، فإن فائدتها بالنسبة إليه ، فاقت
كل ماتصوره . . . فلقد اكتشف أن الأفاقين كانوا يكثرون كلما اقترب
من قمة المجتمع ، وكم التقى فى الفنادق الكبرى والجلسات الخاصة
التي تضم أسماء لامعة لفنانين وكتاب ورجال أعمال ، بنوعيات من
الأفاقين كانوا يبدوون للناس وكأنهم من « صفوة » المجتمع ، لكنه
اكتشف أن فى اعماق الريف المصرى ، الذى هو منه ، ذكاء يصل إلى
حد العبقرية . . . وفى رحلاته إلى أعماق الصعيد ، كان يلتقى بنماذج من

النصابين والمحتالين واللصوص ، يتكرون من وسائل النصب والاحتيال مايفوق كل خيال . . . من اسوان وحتى الاسكندرية راح محسن ممتاز يتنقل بين الأسواق في القرى والمدن الصغيرة والكبيرة ، في الحقول ، بين المقامرين ، والهاربين من القانون ، ومهربى المخدرات ، والتجار والسامسة ، وحتى الباعة المتجولين وأبناء الذوات وأبناء الأسر المتوسطة على حد سواء ، بحثا عن هذا « النمط » الذى كانت ملاحظه ، يوما بعد يوم ، وتجربة بعد أخرى ، تكتمل فى مخيلته . . . حتى جاء عليه يوم كان يشعر أن هذا « النمط » الذى خلقه خياله ، إنما هو رجل يسعى معه وبين يديه ، يلازمه فى الليل والنهار ، يعيش معه ، يأكل ويشرب ويغضب ويفرح . . . أصبحت الفكرة شخصا ، وكان عليه أن يعثر على هذا الشخص وسط مايزيد على العشرين مليوناً من البشر ، هم تعداد سكان مصر فى ذلك الوقت ا

ومرت الأسابيع .

ومرت شهور دون أن يعثر محسن على ضالته . . . كان إذا التقى بشخص توسم فيه الصلاحية ، مايلبث أن يكتشف فيه عيباً أو نقصاً يجعله يعدل عن اختياره فوراً . . .
حتى كانت ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ .

كانت ثلاثة أشهر قد انقضت منذ تلك الليلة التى شاهدها فيها ذلك الفيلم الأمريكى مع رئيسه وزميله وصديقه حسن صقر ، دون أن يعثر على بغيته . . . عاد إلى بيته بعد يوم شاق فى عمل اقتضى منه أن ينتقل من مكان إلى مكان وكان الحر لافحاً ، كل ماكان يحلم به فى تلك

الليلة ، هودش بارد يزيل العرق ، وجلباب يعطى لجسده فرصة الاسترخاء بعد يوم مضمن . . . ولقد حدث هذا ، أزال عرقه وارتدى جلبابه واستعد للاسترخاء المنشود عندما دق جرس التليفون .

وكان المتحدث واحدا من أصدقاء ضباط المباحث ، وكان يتحدث من سجن الاستئناف في حي « باب الخلق » الذى يتوسط المسافة فيما بين ميدان العتبة الخضراء ، وقلعة محمد على .

« عندى ولد غريب يا محسن عاوزك تيجى تشوفه ! »

« شكله ايه ؟ ! »

« معرفش ! »

كان الرد غريبا فاستيقظت حواس محسن :

« يعنى ايه ماتعرفش ؟ ! »

« ما اعرفش حقيقى ! »

فى غضب هتف محسن :

« ماتعرفش شكله ايه ؟ ! »

« تعال شوف وانت تتأكد بنفسك ! »

« طب اسمه ايه ؟ ! »

« ما اعرفش ! »

« أنت شارب حاجة ؟ ! »

« احنا قدامنا كذا اسم ما حناش عارفين اسمه الحقيقى أنهو

فيهم ! »

« وده ملته ايه ؟ ! »

« ما اعرفش ! »

هتف محسن مغاضبا :

« اسمع يارشدى لما اقول لك »

قاطعہ الرجل من الطرف الآخر :

« حقيقى محدش عارف إن كان مسلم والا مسيحي والا يهودى ! »

« دانت ممكن تعرف بالنظر ياأخينا ! »

« اصله ينفع كله ! »

تذرع محسن بالصبر وعاد يسأل :

« وده تهمته ايه ؟ ! »

« مااعرفش ! »

صرخ محسن وقد بدا له الأمر هزلا لاجد فيه :

« امال قبضتوا عليه ليه ؟ ! »

« مش عارفين ! »

« بقى ده كلام ؟ ! »

« ما هو فيه قدامنا كذا تهمة ، فيه نصب واحتيال ، وفيه سرقة ،

وفيه تزوير . . . لكن التهم دى موجه لكذا واحد ما حناش عارفين هو

مين فيهم ! »

ولأن محسن كان ذا طبيعة لا تخلط الهزل بالجد حتى مع الأصدقاء،

فلقد أدرك أنه أمام حالة خاصة ، وان هذه الحالة قد تكون بغيته . . .

فقال فى حسم :

« أنا جاى لك ! »





عندما وصل محسن ممتاز إلى سجن الاستئناف ، كانت الساعة قد
جاوزت العاشرة مساء ، فوجد كل شىء جاهزا . . . كان هناك وكيل
النيابة ، وضابط المباحث ، ثم ضابط السجن وكاتب الجلسة . . .
ومع أكواب الشاي المصرية التي قدمت للحاضرين ، عرف محسن
القصة .

هو شاب في حوالى الخامسة والعشرين من العمر ، قبضت عليه
السلطات البريطانية في ليبيا على أنه يهودى هارب من مصر اسمه
« ليفى كوهين » ، لكنه كان يحمل جواز سفر أمريكيا وغير مزور باسم
« جونى برات » ، وعندما وصل إلى القاهرة وأخذت بصماته ، عادت
البصمات بتقرير يقول إن له اسما آخر مصريا ومسلما هو « رأفت على
سليمان الهجان » ، ومن مكان آخر جاءت التحريات لتؤكد أن له سابقة
تحايل فى أحد فنادق القاهرة الكبرى التى ترك فيها جواز سفر فرنسا
باسم « دانييل مارتان » ، وعندما واجهوه بذلك ، قال بفرنسية طليقة
كانجليزية الطليقة سواء بسواء : « ان هذا هو اسمى ! » . . . ثم
وصلت إشارة من الاسكندرية - التى كان قد وصل اليها عقب ترحيلة
من ليبيا - تقول إن المذكور - صاحب البصمات التى أخذت هناك -
اتضح أن له ملفا باسم « عادل مرقص سيدهم » . . . وكان الأمر محيرا
تماما ، فإن التحقيقات التى اجريت معه لم تصل إلى أية نتيجة
حاسمة ، فاضطروا فى النهاية إلى السؤال عنه فى البوليس الدولى -
الانتربول - الذى أفاد أن هذا الشخص مطلوب فى بريطانيا وفرنسا
والولايات المتحدة وألمانيا بتهم متعددة ، وأن هناك بضعة أسماء أخرى
له . . . ولقد اعترف الفتى ، عندما عاد تقرير البصمات الأول ، أن
اسمه بالفعل هو « رأفت على سليمان الهجان » ، ثم عاد وقال إن هذا

هو الاسم الذي انتحله عندما اخذوا بصماته ، وان اسمه الحقيقي هو « أحمد العلايلي » . . . وفي أحد التحقيقات قال انه مسلم ، ثم عدل عن ذلك وقال انه في الحقيقة مسيحي ، لكنه في مرة ثالثة قال إن الانجليز في ليبيا كانوا على حق ، وإنه يهودى أراد الفرار من مصر !

الذى زاد من حيرة المحققين أن نظام تحقيق الشخصية لم يكن معمولا به في مصر في ذلك الوقت ، وكان جوازا السفر الامريكى والفرنسى وثيقتين تثبت كل منهما أنه امريكى الجنسية وفرنسى الجنسية . . . ولقد فشلت كل المحاولات والوسائل في تحديد شخصيته أو ديانته أو هويته بشكل قاطع . . . ثم ، وعندما أعياهم الأمر ، فكروا في الاتصال بمحسن ، فقد يصلح الفتى لأن يكون هو من يبحث عنه منذ شهور ، وقد يستطيع أن يعرف بالقطع من هو ؟ !

استمع محسن بانتباه شديد لكل كلمة قيلت ، ثم استأذن في الاطلاع على الأوراق ، وراح يقلبها ، ثم طلب إليهم عقد جلسة تحقيق عادية جدا ، يحضرها هو كواحد من الموظفين أو الضباط !

وهكذا رتبت الجلسة كما ترتب الجلسات عادة في مثل هذه الأحوال ، كانت الغرفة التي انتقلوا اليها متسعة بعض الشيء وإن كانت خالية إلا من مائدة مستطيلة وضعت خلفها مجموعة من المقاعد بعدد الذين سيحضرون . . . وفي ركن الغرفة كان ثمة دولاب كبير متهالك تماما ، مفتوح على مصراعيه ، تبرز أحشاؤه من الملفات القديمة والجديدة على السواء . . . في مواجهة المائدة باب يؤدي إلى ساحة السجن ، جلس وكيل النيابة وضابطا الشرطة ، واختار محسن لنفسه مكانا بجوار الكاتب فبدا وكأنه أحد مساعديه . . . كان الجميع

يرتدون الملابس المدنية فلا تعرف من منهم الضابط ومن منهم الموظف . . . وكانوا جميعا - الآن - يعرفون ما الذى يريده محسن بالضبط ، فكل ما كان يريده ألا يلتفت إليه أحد ، وألا يعيره أحدهم اهتماما وكأنه موظف قليل الشأن ، فلقد كان حريصا على ألا يشعر الفتى بوجوده بأى شكل من الأشكال ، حتى يعطى لنفسه الحرية فى التفرس والدراسة دونما شعور من الفتى بأنه محل بحث أو تفحص أو تفرس أو دراسة !

ونودى على « المتهم » !

وفتح الباب ودخل شاب متوسط الطول قمحى اللون منصهر الملامح - إن صح التعبير ! - إلى حد إلى الدهشة ، يبدو وجهه وكأنك التقيت به من قبل مئات المرات دون أن يلفت نظرك ، هو وجه من تلك الوجوده المألوفة إلى الحد الذى يصبح من الصعب أن يعلق بذاكرتك . . . أنف طويل مدبب الطرف ، شفتان رقيقتان تنفرجان عن ابتسامة لاتدرى إن كانت ساخرة هى أم بلهاء ، عينان تبدوان لأول وهلة ناعستين وكان صاحبها قد تناول مخدرا مازال يسرى فى دمائه ، نابت الذقن ، مهوش الشعر ، ملابسه ليست رثة أو قديمة ، وإن كان يبدو ان صاحبها لم يخلعها منذ أيام . . . بحركة لامبالية ، وخطوات بطيئة ، تقدم الفتى من الحاضرين كمن أسلم نفسه لقدر أهوج ، فى يديه المضمومتين أمامه ، قيد حديدى كانت سلسلته الصغيرة تصنع صوتا ناعما مع حركته فى الغرفة التى سادها الصمت فور دخوله ، خلف الفتى دخل جندى من حراس السجن مالبث أن غادرها بعد أن طلب إليه ذلك ، على بعد خطوات من المائدة توقف الفتى ، طافت عيناه بالحاضرين وكأنه يعرفهم جميعا ويعرف ماسوف

يدور بينه وبينهم ، وعندما مرت عيناه بوجه محسن المنزوى بجوار الكاتب كأي موظف قليل الشأن توقفت العينان برهة ، ثم التمع فيهما بريق صاحبه ابتسامة غامضة افترت عنها الشفتان الرقيقتان !
« قرب ياواد هنا ! »

تقدم الفتى خطوة أخرى نحو وكيل النيابة الذي ناداه .

« هيه . . . قول لنا اسمك ايه ؟ ! »

بدا التأفف صارخا على ملامح الفتى وهو يغمغم بصوت متكاسل :

« تانى يابيه ؟ ! »

صاح ضابط الشرطة في غلظة :

« رد على البيه كويس يابن ال . . . »

في لكاعة من لايهاب العنف قال :

« مانا قلت لكم ياحضرة الضابط ! »

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى الفتى فيها ضابط المباحث

هذا ، وكان صاحبنا يرتدى ملابس مدنية :

« ايش عرفك انى ضابط ياواد ؟ ! »

ابتسم الفتى ابتسامة ساخرة كانت تغنى عن أى جواب ، عاد وكيل

النيابة إلى السؤال :

« من غير لف ولادوران . رد على سؤالى . . . اسمك ايه ؟ ! »

« ليقى كوهين ! »

قلب وكيل النيابة في الأوراق التي أمامه :

« يعنى مانتاش أحمد العلايلي ؟ ! »

« علايلي مين بس ياسعادة البيه ! »

لوح وكيل النيابة بجواز السفر الأمريكى :

«أمال الباسبور ده بتاع مين ؟ ! »

قال الفتى فى انجليزية سليمة :

« انه لى ياسيدى ! »

« يعنى انت جونى برات ؟ ! »

« ماهو الاسم قدام سعادتك ! »

عاد وكيل النيابة يقلب فى الأوراق التى أمامه :

« امال ايه حكاية عادل مرقص سيدهم دى ؟ ! »

« ده فى اسكندرية ! »

«ورأفت على سليمان الهجان ؟ ! »

« مانا قلت لسعادتك ان ده اسمى مارضيتش تصدق ! »

« يعنى أنت مسلم ؟ ! »

« وموحد بالله ! »

« مسلم واسمك ليقى كوهين ؟ ! »

« الدين لله والوطن للجميع ! »

« أنت بتهزر يا بن الـ »

«مش ده الشعار اللى معلقاه الثورة على الجدران ؟ ! »

وانقضت الدقائق ، دقيقة وراء الأخرى ، واكتملت ساعة ، ثم

ساعة ونصف !

«الباسبور ده بيقول انك أمريكانى ، وده بيقول انك فرنساوى ،

والورق ده بيقول انك مصرى . . . أنت جنسيتك الحقيقية ايه ؟ ! »

« أرض الله واسعة ! »

فاض الأمر بوكيل النيابة فصاح فيه :

« يعنى أنت مين بالضبط . . . حسن والا مرقص والا كوهين ؟ ! »
وانفجر الجميع ضاحكين . . .

جاءت صيحة وكيل النيابة وسط الجو الذى كان قد توتر ، مثل نسمة انعشت الجميع ، فما أن سمعوا اسم مسرحية الفنان المصرى العظيم نجيب الريحانى هذه ، حتى وجدوا فيها متنفسا للحيرة التى أوقعهم فيها هذا الشاب الذى كان على استعداد لأن يكون حسن أو مرقص أو كوهين بالفعل . . . ظلوا يضحكون لثوان فإذا الرأس نصف الساقطة تشرع فوق العنق ، وإذا القامة المهدلة تستقيم ، وإذا العينان الناعستان تصحوان إلى بريق غريب متيقظ وأخاذ في نفس الوقت ، ثم إذا بالفتى يلتفت نحو محسن بالذات ، ويواجهه وكأنه انسان آخر تلبس الجسد الذى كان ماثلا أمامه . . . وإذا الفتى يقول بصوت له جرس ورنين وكأنه صوت إنسان آخر غير هذا الذى كان يقف امامهم - طوال ساعة ونصف - دون تعب أو ملل :

« أنا شايف إن القعدة دى لها طعم تانى غير طعم القعدات اللى تغم النفس إياها ! »

همّ ضابط الشرطة بأن ينهره وإذا به يستطرد :

« وبالشكل ده ، يبقى مفيش داعى للاساور دى ! »

قال هذا وهو يرفع يديه المصفدتين بالقيد الحديدى أمام عيون الجميع ، وإذا القيد بين أطراف أصابعه يتأرجح فى الهواء ، وإذا هو يتقدم من المائدة فى خطوة رشيقة كى يضع الاصفاد - مغلقة - فوقها وقد علت شفثيه ابتسامة مزهوة . . . وهنا ، هنا فقط ، اعتدل محسن ممتاز فى جلسته !

هتف ضابط الشرطة وهو ينهض إلى القيد الحديدى غير مصدق :

« يا شيطان يا بن الابالسه . . . ! »
ابتسم الفتى وكان الضابط يفحص الاصفاد فإذا هي مغلقة ،
استدار نحوه فإذا الفتى يباده في تحد :
« وياما في الجراب يا حاوى ! »
« تقدر تعمل ايه تانى ؟ ! »
« معاك جنينه ؟ ! »
« حاتنصب علىّ يا ابن الكلب ! »
« طب وحاروح منك فين ؟ ! »

كان الفتى على حق ، فأخرج ضابط الشرطة من جيبه جنيتها من
تلك الجنيهات المصرية القديمة ذات اللون الأخضر والمساحة الكبيرة ،
تناوله الفتى منه وهو يومىء نحو الدولاب في طرف الغرفة :
« حادخل وراء الدولاب عشر ثوان . . . وابقى طلع الجنينه منى بعد
كده ! »

بدا الأمر مثيرا تماما ، بل بدا وكأنه نوع من التحدى بين الضباط
والفتى ، تبادل الجميع النظرات فعاد الضابط إلى مقعده وهو يومىء
للفتى أن يفعل . . . سار هذا نحو الدولاب واختفى خلفه لعشر ثوان
لم تزد ، ثم عاد إليهم وهو يرفع ذراعية قائلا :
« الجنينه معايا ، بس محدش حايعرف يطلعه منى ! »

ابتسم ضابط المباحث ابتسامة ساخرة وهو ينهض اليه ، تناثرت
الضحكات والتعليقات وهو يفتش ملابسه قطعة قطعة ، مضت
الدقائق دون أن يعثر الضابط على الجنينه ، نهض اليه ضابط السجن
وراحا معا يعيدان التفتيش في دقه المحترفين ، كان في بذلته شق امتدت

فيه أصابعهما حتى تمزق الجاكيت واتسع الشق دون جدوى ، نظرا في
ملايسه الداخلية فلم يمانع ، فتشا فتحتى اذنيه وفتحتى انفه وطلبا إليه
أن يفتح فمه ففتحه على أقصى اتساع دون أن يعثرا على الجنية . . .
بدا الأمر محيرا فصاح ضابط السجن بلهجة الواثق :

« تلاقيك حظيته فى »

هتف الفتى مقاطعا :

« عيب يا بيه ماتكملش ! »

قالها بلهجة ابن العائلات المهذب الذى تلقى تربية تمنعه من نطق
فاحش أو حتى الاستماع اليه . . . و . . . ولم يكن هناك مفر من
التسليم بالعجز .

« طب فىن الجنيه ! »

فتح الفتى فمه واخرج ضرسين صناعيين كانا مركبين فى فكه
الاسفل ، ومن تحت الضرسين الصناعيين أخرج الجنيه وكان مطويا فى
دقة مذهلة ، ثم راح يفرده أمامهم طية بعد أخرى !

ولقد مضى وقت ليس بالقصير ، قدم لهم الفتى فيه عرضا سحريا
جذابا . . . لم يكن العرض السحرى هو مايلفت النظر إلى الفتى بقدر
ماكانت لهجته وأسلوب حديثه الذى ينم عن طبقة اجتماعية محترمة ،
وتلك الكلمات الفرنسية أو الانجليزية التى كانت تتناثر وسط الحديث
كما هى عادة ابناء العائلات فى تلك الأيام ، كان يشرح لهم كل لعبة
ويدهم على أصول كل خدعة وكأنه صديق قديم فلقد سقطت فجأة ،
بينه وبينهم ، كل الحواجز . . . مر الوقت وكأنه حفل سمر ، ثم
انفض وقد انتصف الليل منذ ساعة دون أن يعرف أحد من يكون

الفتى . . . حسن أم مرقص أم كؤهين . . . هل هو مصرى أم فرنسى أم
أمريكى . . . هل هو مسلم أم مسيحي أم أنه يهودى ؟ !



مضى بعد تلك الليلة أسبوعان !
كان محسن ممتاز قد صرح لصديقه ضابط الشرطة بعد أن انفضت
الجلسة أنه لا يدري ان كان الفتى يصلح لما يريد له أم لا ، وأنه في
حاجة إلى وقت للتفكير . . . غادرهم وقد انشغل فكره بهذه الشخصية
الغريبة ، بدا له الأمر وكأن القدر قد ساق اليه هدية ممتازة وشخصية
مثالية . . .

كان الفتى بالفعل مصريا لحما ودما . . . لكنه أيضا ، كان يتمتع
بتلك السحنة التي عرف بها يهود مصر ، وهو يتقن الفرنسية
والانجليزية ، أو على الأقل ، لديه حصيلة منها تجعل اتقانه لهما أمرا
ميسورا . . . وهو بقوامه هذا وصوته واسلوبه وقدرته الفذة على التلون
وتطويع ملامحه لما يريد ، يصلح لأن يكون أحد أبناء الجنوب الفرنسى
فيما حول مرسيليا وطولون ، ثم - على جانب آخر - كان يصلح لأن
يكون واحدا من أبناء المستعمرات البريطانية قد تزوج أبوه من انجليزية
وحصل بعدها على الجنسية !

كان الفتى غريبا بحق ، صالحا - من ناحية الشكل - تماما !
ولكن ، هل كان يصلح من ناحية الموضوع ؟ !
وإذا كان يصلح من ناحية الموضوع ، هل يقبل المهمة ؟ !
ولم تكن الاجابة عن هذه الاسئلة سهلة ، كان على محسن أن يتعرف

إلى الفتى عن قرب ، كان لابد له أن يلتقى به ، أن يحاوره ، أن يسهر غوره ، أن يقتحم صدره ويتعرف على تضاريسه الحقيقية . . . وقبل كل هذا ، كان لابد من معرفة الحقيقة : فمن هو ؟ ! . . . هل هو جوني برات ؟ ! . . . أم « دانييل مارتان » ، أم « أحمد العلايلي » ، أم انه « رأفت على سليمان الهجان » ، أم « عادل مرقص سيدهم » . . . كان لابد من يقين يرسو عليه : هل هو حسن ، أم مرقص ، أم كوهين ؟ !

.
.

مضى اسبوعان بعد تلك الليلة دون أن يسأل محسن صديقه ضابط المباحث عن الفتى مرة أخرى ، فأيقن هذا ، كما حدث من قبل ، أن محسن قد صرف النظر عنه !

غير أن الثابت أن أحدا من الذين اجتمعوا في تلك الغرفة بسجن الاستئناف في ليلة من ليالي اغسطس عام ١٩٥٤ ، لم يعرف شيئا عن الفتى بعد ذلك ، وبالقسط فلقد نسوه تماما مع مانسوا من وجوه الآلاف الذين مروا بهم ، فلقد جاء أمر غريب بترحيل الفتى من سجن الاستئناف إلى قسم السيدة زينب ، لكن الأغرب ، أن الاوراق التي وصلت مع الفتى إلى القسم كانت غامضة كل الغموض ، فلم يعرف أحد من ضباط القسم ماهى التهمة الموجهة إلى هذا الفتى بالضبط ، ولماذا نقل من سجن الاستئناف إلى هذا القسم . . . ولكن ، عندما جاءت إشارة أخرى بنقله من قسم السيدة زينب إلى أحد أقسام مصر الجديدة ، بادر المأمور بترحيله فورا وقد أسعده التخلص من هذا

اللغز... ولقد تساءل الفتى لماذا يرحلونه ، ولماذا ينقلونه ، وماهى الأسباب ، وماالذى يحدث ؟ ! ... وهو لم يجد جوابا من أحد لأن أحدا لم يكن عنده جواب ... فى مصر الجديدة مكث الفتى أسبوعا كاملا نقل بعده إلى قسم ثان جيزة ... وكما حدث فى السيدة زينب ومصر الجديدة ، كانت الأوراق فى قسم ثان جيزة غامضة وغريبة... وعندما تساءل المأمور عن هذا الفتى وعن التهم الموجهة اليه لم يجد اجابة كافية ... غير أنه بعد ثلاثة أيام أخرى وصلت اشارة ذات صباح إلى قسم ثان جيزة بترحيل الفتى مع مخصص إلى قسم الزيتون ، وبسرعة ، نفذ المأمور الأمر ، فلقد كان سعيدا بالتخلص من سجين لايعرف له تهمة ، ووصل الفتى إلى قسم الزيتون - والزيتون ضاحية بعيدة من ضواحي القاهرة كانت فى ذلك الوقت تبدو كأنها فى مدينة أخرى - فى الواحدة ظهرا ، ولم يدفعوا به إلى التخشبية ، بل طلبوا إليه الانتظار ، والقيد فى يديه ، حتى يعرض على وكيل النيابة !

لكن وكيل النيابة لم يصل إلا فى صباح اليوم التالى ، ونام الفتى فى تلك الليلة جالسا على مقعد خشبى ، وعندما مثل بين يدي وكيل النيابة كان قد وصل إلى حالة من التعب والارهاق جعلته زائغ العينين ، مستعدا لأن يلقوا به فى جهنم حتى يرحموه مما هو فيه من غموض ... لكن المفاجأة ، أن وكيل النيابة ما إن رآه حتى طلب إلى الشرطى - فى جفاء - أن يفك القيد الحديدى من يديه ، وكانت أربع وعشرون ساعة قد انقضت ويدا الفتى فى الاصفاد ، فأحس مع الراحة التى انتابته بخوف غامض ... نظر إلى وكيل النيابة فإذا هو أمام شاب يبدو حديث التخرج قليل الخبرة ، وكان هذا يقلب فى أوراق يحويها ملف قديم مهلهل وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ، ومالبث أن رفع رأسه

نحو الفتى متسائلا :

« انت أحمد العلايلي ؟ ! »

همّ الفتى بالنطق ، لكن وكيل النيابة في تأفف من يريد أن يتخلص مما في يديه بأى ثمن ، راح يكتب في ورقة من أوراق الملف وهو يقول بصوت عال :

« يفرج عنه بكفالة عشرين جنية ! »

لم يصدق الفتى ماسمعه ، اجتاحتها فرحة غريبة وطاقية ، ولكنه بالرغم من ذلك صاح :

« عشرين جنية حته واحدة ، أجيبهم مين ؟ ! »

عادوكيل النيابة ينظر اليه في ضيق عندما جاء من خلف الفتى صوت يقول :

« الكفالة جاهزة ياسعادة البيه ! »

التفت الفتى إلى الخلف في عنف من هوت على رأسه مطرقة ، فإذا به وجها لوجه أمام محسن ممتاز . . . فغرفه دهشة لكنه عاد ينظر إلى وكيل النيابة الذي كان يسأل محسن في جفاء :

« انت مين ؟ ! »

« أنا ابن خالته ! »

« وحاتف له الكفالة ؟ ! »

أخرج محسن النقود من جيبه قائلا :

« دى مش أول مرة ياسعادة البيه »

راح وكيل النيابة يكتب في الأوراق مكتملا إجراءاته عندما هتف

محسن :

« بس دي آخر مرة وسعادتك شاهد ، دي آخر مرة ! »
لم يرد وكيل النيابة ، بدا مستغرقا فيما كان فيه ، بينما كان الفتى يبدو
ذاهلا ومحسن يخاطبه غاضبا :
« انت حاتفضل طول عمرك مش نافع ، حاتفضل فاضحنا ومغلبنا
لحد امتى ؟ ! »

صاح وكيل النيابة ناهرا محسن :
« اتخانقوا بره مش هنا . . . يالله اتفضل انت وهو ! »
قال هذا وهو يضغط زر جرس دخل بعدها شرطى خاطبه الشاب
قائلا :

« خده ياعسكرى من هنا ونخليه يدفع الكفالة ! »

.
.

كان الفتى قد تعرف إلى محسن منذ النظرة الأولى ، تذكر تلك الليلة
في سجن الاستئناف التي ظل بعدها يتنقل من قسم إلى قسم ومن
تخشية إلى تخشية دون سبب مفهوم . . . أراد الحديث ، لكن وجه
محسن المتجهم ونظراته المخيفة أوقفته ، راح الجندي يدفعه أمامه في
غلظة من مكان إلى مكان حتى تنتهى اجراءات دفع الكفالة . . . لم
يجد الفتى بدا من الاستسلام لذلك القدر الغامض الذي هبط عليه من
حيث لا يدري انتهت اجراءات الافراج ، وخرج الفتى في
صحبة محسن من باب القسم ولم يصدق أنه أصبح حرا . . . على بعد
خطوات كانت هناك سيارة صغيرة فرنسية الصنع مضحكة المنظر ،
دار محسن حولها وهو يقول في جفاء من انتوى سرا :

« اركب ! »

ركب الفتى إلى جوار محسن الذى بدت السيارة صغيرة على جسده المتنامى ، انطلقت السيارة إلى حيث لا يدري ، كان كل ما فعله أن أسند رأسه إلى يده فى إرهاق ، ما ان مضت بهما السيارة بضع عشرات من الامتار حتى التفت إلى محسن متسائلا :
« معاك سجائر يابيه ؟ ! »

أخرج محسن صندوق سجائره والقى به فى حجر الفتى دون كلمة ، اشعل هذا سيجارة راح ينفث دخانها فى تلذذ . . . ولقد حاول فى لحظة ما أن يجرب الحديث . . . لكن نظرة خاطفة من عيني محسن الجمتم لسانه . . . ولقد أيقن لحظتها أنه - حتى الحديث - غير مسموح له به إلا بإذن !

عند بقعة هادئة فى الطريق الموصل فيما بين ضاحية مصر الجديدة والقاهرة ، ويجوار شريط الترام الذى كان يطلق عليه « الترام الأبيض » ، وكان يربط - فى ذلك الوقت - ضاحية هليوبوليس بحى العباسية الشهير ، توقف محسن بالسيارة فى ظل شجرة من الأشجار المتناثرة بطول الطريق !

كان الفتى صامتا فظل صامتا لا ينبس بكلمة . . . ألزمته نظرة محسن النارية حدود الأمر فلم يعصه ، التفت إليه محسن وكأنه يأذن له بالالتفات إليه ففعل ، ظل يرقبه قليلا ، راح يتأمله وكأنه يملأ منه عينيه ، ثم لاح فى العينين الناريتين شبح ابتسامة رطب جو السيارة الملتهب بالقلق والتوتر ، أخيرا . . . أخيرا قال محسن بصوت أمر :
« ودلوقت . . . أنا عاوز أعرف منك حاجة واحدة بس ! »

« ايه هيه يافندم ؟ ! »
« أنت مين ؟ ! »
انتفضر الفتى صائحا :
« أنت اللي مين ياسعادة البيه ؟ ! »

الفصل السادس

صداقة حميمة مع سوء الحفظ !

قالت السيد سمحون إنها تشعر وكأنها تستمع الى خطوات التاريخ في مكان مامن الكرة الأرضية لم يخطر ببالها أن تطأه أو تتعرف عليه... كان عزيز الجبالي قد انقطع عن الحديث عندما أصبح عليها أن يستعدا لتناول طعام الغداء في تلك الغرفة ذات الاثاث المتواضع في جهاز المخابرات المصرية... أكثر ما أثار دهشتها تلك الذاكرة البلورية التي يتمتع بها عزيز الجبالي ، والتي تحتفظ بالتفاصيل في نقاء من عاش الأحداث وشاهدها وتيقن منها... كان الغداء مكونا من شرائح السمك والبطاطس المقلية على الطريقة الفرنسية ، وكان هناك طبق مترع بالسلطة الخضراء الطازجة ، ثم تلا السمك طبق من اللحم البارد المصحوب بقليل من الخضروات المسلوقة ورقائق البطاطس... ثم دورق مليء بعصير البرتقال !

انقطع الحوار عندما أصبح عليها أن ينتقلا الى تلك المائدة الصغيرة التي حملت الى الغرفة عندما أبدت السيد سمحون رغبتها في تناول الغداء في نفس الغرفة حتى لاتنقطع عن « الجو » الذي اجتذبا اليه عزيز الجبالي . . . ما إن جلست الى المائدة حتى ضحكت ، ورفع عزيز عينيه اليها فقالت :

« أنكم حتى تعرفون مم تتكون وجبات طعامي ! »

ابتسم عزيز في خجل غير مصطنع ولم يرد ، فاستطردت :

« لو أن احدا قال لي إنني سأتناول غدائي ذات يوم في أى جهاز من

أجهزة المخابرات في العالم ، حتى ولو كان جهاز المخابرات الألماني ،

لاتهمته بالجنون ! »

غمغم عزيز بصوت خافت وإن كانت نبرته شديدة الوضوح :

« إن الحياة أكبر من أن نحتويها ياسيدتي ! »

كان الشاب الذي يقدم لها الطعام ريفي الملامح الى درجة تدعو الى

الدهشة والاحساس بأنه لم يغادر حقله الا بالأمس . . . ورغم هذا ،

فلقد راح « يخدم » عليها وكأنه واحد من جرسونات أفخم المطاعم

الباريسية !

لاحظت للسيدة سمحون فكرة راودتها أثناء حديث عزيز فلم تشأ أن

تقاطعها ، توقفت عن الطعام فتوقف هو الآخر ، تلاقت نظراتها فاذا

هي تسأله :

« اين كنت طوال تلك الاحداث ؟ ! »

« على الحدود المصرية الفلسطينية ! »

عادت الى الطعام فأكمل :

« كنت ملازما في الجيش المصرى ! »

رفعت اليه عينين متسائلتين فأجابها قبل أن تنطق :
« كان للمعركة هناك وجه آخر ! »

أدركت ما كان يعنيه فعادت إلى الطعام . . . لاحت منها نظرة اليه فبدأ مستغرقا في حلم طويل . . . لزمت الصمت لدقائق ، لكن الحديث سرعان ما اتصل من جديد بعيدا عما كانا فيه ، راحا يدردشان حول السياحة في مصر وإمكان إقامة مشروعات سياحية تساعد على جذب المزيد من السائحين ، ولقد كان عجبيا بالنسبة لها ، أن تكتشف في حديث عزيز ، معرفة تكاد تكون شاملة عن السياحة وأساليبها . . . و . . . وانتهى الطعام ، ورفعت الاطباق وجاءت القهوة ومعها عدد لا بأس به من حبات البرتقال المصرى الفاخر . . . ومالبت عزيز الجبالى أن عاد إلى حكايته من جديد !



كان الموقف غريبا بحق ، الضابط والفتى فى طريق عام ، فى سيارة صغيرة مضحكة المنظر ومنتشرة بين شباب مصر من الطبقة الوسطى فى تلك الايام ، تحت ظل شجرة من تلك الأشجار الوارفة التى تميز الأحياء الراقية أو الطرق المؤدية إليها فى قاهرة ذلك الزمان . . . كانا يجلسان فى هدوء بحيث اذا شاهدهما إنسان ، لا يمكن أن يقول إلا أنها صديقان فى انتظار شخص أو شىء أو موعد . . . وذلك ، بالرغم من أن كلا منهما لم يكن يعرف من يكون الآخر ، وكانا قد افصحنا عن ذلك عندما سأل كل منهما الآخر : من أنت ؟ !

أحدهما يريد التيقن من عشرات الأسئلة التى تضطرم فى رأسه ، يريد التيقن أولا وقبل كل شىء ، من احتمالات الصدق والكذب عند

الفتى ! . . . هل سيصدقه القول أم يزوغ ويروغ ويتلاعب بالموقف واللفظ والحدث معا ؟ ! . . . يتمنى بداية تقوده الى حيث يخدمان معا وطنا هو في أشد ماتكون الحاجة الى خدماتها . . . وهو في تحسسه الى تلك البداية يختار الخطوات في عناية ودقة بالغتين . . . يعلم يقينا أنه يروض وحشا كأمنا في صدر الفتى ، ولو أنه أحس للحظة واحدة بأن القبضة ليست محكمة ، فلسوف يدمر الأحلام جميعا . . . وأن عليه . كما يفعل مدرب الوحوش في السيرك ، أن يسمع الأسد فرقة السوط فقط دون أن يقترب السوط منه أو يلمسه ، إن الفرقة هي التي ترعب الأسد وتخيفه ، لكنه لو ذاق لسعة السوط مرة ، فلسوف يكتشف أن الأمر هين ، وليس في حاجة الى خوف ، ولكانت هذه هي النهاية !

أما الثانى ، فكان - لأول مرة في حياته - يتخبط أمام مجهول عليه أن ينزع عنه أستاره . . . يتساءل الفتى فيما بينه وبين نفسه من يكون هذا الرجل ذو النظرة الرهيبة والابتسامة الساحرة في نفس الوقت ؟ ! . . . هذا الرجل الذى اخرجته من السجن ، ونجاه من ورطة ، وأعطاه حرته دون سبب معلوم ، ثم . . . ثم هو لا يعرفه ، لا يعرف اسمه ولا عمله ، ولا هويته ، ولا ما الذى يريد منه . . . ينظر الى ملامحه مستعينا بكل مأوتى من خبرة وذكاء فطرى ومكتسب ، فيكاد يقسم أنه ضباط . . . ولكن ، أى نوع من الضباط هو ؟ . . . أى نوع من الضباط هذا الذى يفرج عنه ويجلسه بجواره فى السيارة ويجلس معه فى الطريق العام بلا حراسة ولا تهديد ولا حتى حيطة . . . فهو ، الآن ، يستطيع أن يفتح باب السيارة بسرعة لا يتخيلها هذا الجالس الى جواره ، وان يطلق ساقيه للريح ، ولن يلحق به هذا الضابط حتى ولو

استعان بعشرة سيقان مع ساقيه . . . وبالرغم من هذا فانه
لايفعل . . . فلماذا ؟ !
لو أنه - فقط - يعرف ما الذى يريد منه هذا المجهول لاستطاع أن
يلاعبه ويلاعبه !

« أوعدك انك حاتعرف كل حاجة فى وقتها ! »

هكذا قال محسن ردا على التساؤل الصارخ فى عينى الفتى ، ولم
يخف بهذا دهشته فتساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا الضابط يقرأ
أفكار الناس ؟ !

« قول لى بقى انت مين ؟ ! »

أحس برغبة عارمة فى الاستسلام :

« شوف ياسعادة البيه . . . كل اللي قلته قبل كده كان مراوغة ! »
رفع محسن حاجبيه فور سماعه لكلمة « مراوغة » هذه التى لم تكن
من الكلمات الدارجة التى تعود المصريين على استعمالها فى تلك
الأيام ، لاحظ الفتى دهشة محسن فصاح مؤكداً :
« ايوه مراوغة ، وماكانش فيه غير حاجة واحدة بس هى اللي
صح . . . والغريبة انهم مارضيوش يصدقوها ! »
« ايه هى ؟ ! »

« ان اسمى رأفت الهجان ! »

عندها - لدهشة الفتى البالغة - اجتاحت وجه محسن ابتسامة واسعة
وسعيدة ، ظنها الفتى سخرية منه فهتف محتجاً :

« طبعا أنا عارف انك مش حاتصدقنى وحاتقول انى نصاب ! »

لم يرد محسن وظلت ابتسامته معلقة فوق شفثيه .

« ده اسمى فعلا ياسعادة البيه . . . اسمى رأفت على سليمان

الهجان ! «

اتسعت ابتسامة محسن وازدادت اشراقا فعاد الفتى الى الصباح :

« تحب اثبت لك ؟ ! »

« امال ايه حكاية ليثقى كوهين دى ؟ ! »

« ماكنتش عاوز الانجليز يرجعونى من ليبيا ! »

أدار محسن موتور السيارة فورا وهو يقول وكأنه اكتفى تماما :

« طب ياالله بينا ! »

« على فين يابيه ؟ ! »

« على بيتك ! »





كانت الاسباب التي انقضت منذ رأى محسن هذا الفتى في سجن الاستئناف ذات ليلة من ليالى اغسطس عام ١٩٥٤ ، وحتى وقف معه بالسيارة بجوار شريط الترام الأبيض الموصل ما بين ضاحية هيلوبوليس وحي العباسية ، ذات يوم من أيام سبتمبر من نفس العام . . . لم تمض هباء .

كان على محسن ممتاز أن « يعرف » أكبر قدر من الحقيقة عن الفتى قبل أن يلقاه مرة أخرى . . . إن المعرفة هنا ستجعله - أولا - قادرا على امتحان صدق الفتى وكذبه . . . وهى ثانيا - ستساعد على تطبيق ذلك المبدأ الهام من مبادئ علم المخبرات ، والذي يقول إنه لا بد أن تكون لـ « ضابط الحالة » اليد العليا على المندوب أو العميل أو سمه ماشئت من التسميات . . . ولم يكن ممكنا مع شخصية زئبقية ، وهبها الله قدرا هائلا من الذكاء كتلك التي يتمتع بها ذلك الفتى ، التي جعلته يحير ، لا البوليس المصرى فقط ، بل البوليس الدولى أيضا . . . لم يكن ممكنا ان تتم السيطرة عليه ، وأن تكون لمحسن اليد العليا معه ، إلا إذا امتحن صدقة ، ثم بعد ذلك يأتى دور الترويض والتلجيم - إن صحت الكلمة - ثم من بعد ذلك التدريب !

كان السؤال الأول الذى وجهه محسن ممتاز إلى نفسه بعد أن غادر سجن الاستئناف ، قبل أى شى آخر ، هو :

من يكون هذا الفتى ؟ !

وماهى جنسيته ؟ !

وماهو اسمه الحقيقى ؟ !

ولقد كان أمام هذا الضابط الشاب ، بضعة أسماء سمعها من الفتى

أثناء الاستجواب الصورى الذى حدث فى سجن الاستئناف ، كما

ذكرتها الأوراق والوثائق التي كانت موجودة !

كان هناك اسمان اجنبيين واسم يهودى ، وثلاثة أسماء مصرية !
أما الاسمان الاجنبيين فكانا : « جونى برات » - وهذا هو اسم جواز
السفر الذى ضبط مع الفتى فى ليبيا - والاسم الثانى هو « دانييل
مارتان » ، وهو الاسم الذى دلت التحريات أن الفتى كان يقيم به فى
أحد فنادق القاهرة الكبرى !

ولم يكن من السهل على محسن ممتاز أن يعرف شيئا عن شخصين ،
أحدهما أمريكى والآخر فرنسى وكلاهما لا يعيش فى مصر . . . ولكن ،
ولأنه كان على علاقة وثيقة بمصلحة الجوازات والجنسية ، وهى فوق
انها علاقة صداقة وطيدة مع بعض كبار الضباط فيها ، فهى ايضا
علاقة عمل استطاع محسن بواسطتها أن يعرف أن « دانييل مارتان »
الفرنسى ، شاب دخل الى مصر فى زيارة علمية سريعة للأثار المصرية
دامت اسبوعين ، وانه نزل فى احد الفنادق المتوسطة شأنه شأن
الطلبة ، حيث سرق منه جواز سفره ، فابلغ الشرطة عن الحادث
واستخرج من السفارة الفرنسية جوازا آخر عاد به الى بلاده . . . ،
وكانت هذه هى الخطوة الاولى ، فلقد عرف أن اسم الفتى - يقينا -
ليس « دانييل مارتان »

لكنه واجه أثناء بحثه شيئا غريبا . . . ذلك انه لم يجد فى سجلات
المصلحة أى بريطانى دخل مصر باسم « جونى برات » . . . لكنه عثر
على اسم فتاة بريطانية اسمها « جوان برات » دخلت مصر كسائحة ،
وقضت ثلاثة أسابيع فيما بين الأقصر وأسوان والقاهرة ، ثم امتدت
اقامتها أسبوعا آخر عندما فقدت - فجأة - جواز سفرها . . . فأبلغت

الشرطة ، واستخرجت جواز سفر جديداً ، وعادت إلى بلادها !

ثم . . .

ثم كان من السهل أن ينتشر رجاله وسط الجالية اليهودية - في القاهرة والاسكندرية بالذات - بحثا عن الاسم الثالث الذى أدلى به الشاب الى السلطات البريطانية في ليبيا على أنه اسمه ، وهو « ليثى كوهين » . . . ولأن اليهود المصريين كانوا يتوجسون خيفة في تلك الايام من الثورة المصرية ، فلقد كان الأمر يحتاج الى بعض الوقت . . . أما بالنسبة للأسماء المصرية الثلاثة التى وردت في حديث الفتى ، فلقد كان الأمر بطبيعة الحال يختلف . . . كانت هذه الاسماء هى : عادل مرقص سيدهم ، وأحمد العلايلي ، ورأفت الهجان !

وبالرغم من كثافة التحريات في الاسكندرية وشمولها وانتشارها في جميع أحياء الثغر ، فقد جاءت كل النتائج سلبية . . . فلم يكن هناك من يدعى بالتحديد « عادل مرقص سيدهم » . . . لكن محسن ممتاز لم يركن إلى هذا ، وأمر باستمرار التحريات ، بل وامتدادها الى البحيرة ورشيد وغيرها من المناطق المحيطة بالعاصمة الثانية لمصر !

ولأن محسن ممتاز كان من أصل ريفى عريق ، فلقد كانت مسألة « العائلات » بالنسبة اليه مسألة على جانب كبير من الأهمية . . . ذلك أن الناس في الريف المصرى إذا عرفوا - مثلا - ان فلانا قد تزوج من فلانة سألوا : بنت من هى ؟ ! . . . ومن أية عائلة ؟ ! . . . ومن أى فرع من فروع هذه العائلة ؟ ! . . . ثم ، من إخوتها وأخواتها وأعمامها وأخوالها . . . وهم لا يفعلون ذلك من باب الفضول كما يتصور

لبعض ، لكنهم يفعلونه من باب تأصيل الأمور ، ورؤية الصورة كاملة بالنسبة للمجتمع الذى يعيشون فيه !

ولذلك . . . ولما كان محسن يعرف أفرادا من عائلة العلايلي ، فلقد أثبتت التحريات بعد أربع وعشرين ساعة فقط - لأنه كان يعرف كيف يوجهها وإلى أين ولن بالتحديد - ! - أن « أحمد العلايلي » هذا شخص موجود بالفعل ، وأنه يعيش حياة عادية ، متزوج وله ولدان ، يشغل وظيفة محترمة فى أحد البنوك . . . و . . . ومع استمرار التحريات ، عرف أن أحمد العلايلي هذا فقد جواز سفره ذات يوم فى ظروف غامضة وأبلغ الشرطة عن الواقعة ، وكتب محضرا فى القسم ، واستخرج جواز سفر جديدا !

هل كان الفتى يحترف سرقة جوازات السفر؟ ! . . . إن ثلاث حالات من الأسماء الستة التى ادعاها الفتى لنفسه ، ضاعت جوازات السفر الخاصة بأصحابها . . . ولكن ، ووسط عشرات من علامات الاستفهام التى أحاطت بشخصية الفتى ، جاءت المفاجأة مع ورود بشائر التحريات الخاصة باسم « رأفت على سليمان الهجان » !

فى زيارة خاطفة لقريته التى كان أبوه عمدة لها ، وفى دردشة مسائية على المصطبة فى الدوار مع الرجال الذين علموا بوصوله فجاءوا يسلمون ويرحبون ويحتسون الشاي . . . عرف « محسن ممتاز » أن « الهجانة » فى مصر ثلاثة بطون ، كل بطن يقطن محافظة - كان اسمها فى ذلك الوقت لا يزال « مديرية » ! - واحدة فى البحيرة والثانية فى دمياط . . . أما الفرع الثالث فكان فى الشرقية !

وهكذا انطلقت تحرياته بشعبها الثلاث فى سرعة محمومة تبحث عن

« الهجان » الذى ادعى الفتى أنه ينتمى إليه . . . ولم يكن الأمر سهلاً فى حقيقة الأمر ، لكن التحريات فى القاهرة جاءت تقول إن ضابطاً فى الجيش المصرى برتبة « صاغ » - رائد - اسمه محمد رفيق ، متزوج من هجاجة دمياط . . . وكان محسن يعرف محمد رفيق هذا منذ دخل الكلية مستجداً ، وكان رفيق من الطلبة القدامى ، وكان شاويشاً عليه . . . وعندما تحسست التحريات طريقها حول الصاغ محمد رفيق ، جاءت المفاجآت بأن حرم الصاغ محمد رفيق اسمها « شريفة على سليمان الهجان » . . . فاذا كان الفتى يدعى ان اسمه « رأفت على سليمان الهجان » ، فإن تطابق الأسماء يدعو الى الدهشة ، فهل يكون شقيقها ؟ ! . . . أم انه يدعى ذلك ؟ !

فى تلك الأيام كان محسن ، بالرغم من تظاهره بالهدوء ، يبدو وكأنه يقف على أطراف أظفاره . . . وكان السؤال الذى يتردد فى ذهنه ، هل حقاً وضع يده على اسم الفتى الحقيقى ، على أصله وفصله كما يقولون فى مصر ؟ ! . . . وعلى كل فلقد توالى الأخبار تحصل اليه المزيد من المعلومات توالى تقول : ان السيدة شريفة هى ابنة الاستاذ المرحوم على سليمان الهجان الذى كان ناظراً لمدرسة النجاح الثانوية للبنين ، وإن الرجل انجب من زوجته الأولى ثلاثة أبناء هم عادل وسليم ومحمود . . . فلما توفيت زوجته الأولى تزوج من أرملة انجب منها ولداً وبناتهما : « رأفت » و « شريفة » ، ولكن زوجته الثانية توفيت بعد مرض قصير ، فحزن عليها حزناً شديداً ، ولحقها بعد بضعة أعوام تاركاً رأفت وشريفة فى رعاية أخوتها . . . لكن رأفت كان مدلاً فنشأ فاسداً ، ولم يكمل تعليمه رغم محاولات العائلة التى يشغل أفرادها وظائف محترمة من تلك التى يشغلها عادة أبناء الطبقة المتوسطة المتعلمة

في مصر . . . وهو دائما - أى رأفت - مصدر تعاسة لافراد الاسرة مما دفعهم إلى إغلاق أبوابهم في وجهه ، فيما عدا اخته شريفة التي تزوجت بعد حصولها على شهادة التوجيهية - الثانوية العامة - مباشرة - وكان رأفت - لشدة تعلق كل منهما بالآخر - يزورها أحيانا بالرغم من أن زوجها الصاغ محمد رفيق لم يكن يطيق سماع اسمه . . . فلقد حدث أن أحد أصدقائه من الضباط كان في زيارته عندما سأله بشكل يبدو عارضا وغير مقصود بالمرّة ، إن كان يعرف فتى اسمه « رأفت الهجان » ؟ ! . . . فاذا به يستشيط غضبا ، ويصيح بأنه لا يعرفه ولا يريد أن يعرفه كما أنه لا يريد أن يعرف عنه شيئا ، وانه حرم عليه دخول البيت ، وأن العائلة كلها قد تبرأت منه منذ سنين . . . ثم . . . ثم سأل محدثه - الذى كان مذهولا من غضب رفيق فهو لم يكن يعرف شيئا عن الأمر - إن كان رأفت قد نصب عليه أو احتال عليه أو سرق منه شيئا . . . وتلجلج الرجل فعاد الصاغ رفيق يقول : « هو فى أنى سجن دلوقت ؟ ! » واضطر الصديق ، وقد وجد نفسه فى موقف لم يستعدله ، أن يؤلف قصة مؤداها أن ثمة فتى تقدم لخطبة إحدى قريباته ، وأن اسمه « رأفت على سليمان الهجان » ، وأن العائلة لجأت إليه كى يسأل عنه شأن كل العائلات المصرية فى مثل تلك الاحوال . . . فما كان من حضرة الصاغ إلا أن صاح فى صديقه محذرا ومنذرا طالبا إليه تحذير الفتاة والعائلة ، فالفتى نصاب ومحتال وغير متعلم وأفاق ، وأنه ايضا ، رد سجون ولايستطيع أن يعول نفسه فكيف سيعول زوجة ؟ !

وكان محسن سعيدا .

كان سعيدا لأنه - أخيرا وفى زمن قياسي - استطاع ، ان يعرف من

يكون الفتى على وجه التحديد . . . لكن سعادته ازدادت عندما توجت تحرياته بصورة فوتوغرافية لرأفت مع شقيقته شريفة - لم نستطع معرفة الطريقة التي حصل بها محسن على هذه الصورة ، وفشلت كل المحاولات التي بذلناها في هذا السبيل - وكان عمر الصورة بضعة أعوام . . . ولم يكن هذا مهما ، بل كان المهم عند محسن أنه تأكد لأول مرة - وبشكل قاطع - ان الفتى الذى كان فى سبيله لاطلاق سراحه ، هو بالفعل « رأفت على سليمان الهجان ! »

ولذلك فلقد ابتسم محسن ممتاز تلك الابتسامة التى أدهشت الفتى عندما ذكر له اسمه الحقيقى بجوار شريط الترام الابيض . . . وكان للابتسامة فى الحقيقة سببان . . الاول : أن الفتى لم يكذب . . أما الثانى : وهو الأهم ، فلأن الشرط الأول تحقق . . ان الفتى مصرى لحما ودماء وعرقا وأصلا .



كانت الساعة تقترب من الثانية ظهراً عندما توقفت سيارة محسن أمام محل من محلات الكباب الشهيرة فى ميدان الأزهار الذى يتوسط المسافة فيما بين ميدان قصر النيل - الذى اصبح اسمه ميدان التحرير - وبين ميدان قصر عابدين . . . ضغط محسن على بوق السيارة فالتفت « المعلم » من الداخل ، وماأن رأى محسن حتى رفع يده بالتحية مناديا على أحد رجاله مشيراً الى السيارة . . . هرول الرجل حاملاً لفافة كانت جاهزة قدمها لمحسن الذى تناولها منه ووضعها فى المقعد الخلفى ، ثم نقده الثمن مع إكرامية وصلت الى خمسة قروش كاملة - وهو مبلغ لم يكن يدفعه فى تلك الايام سوى الموسرين ! - وعندما عادت السيارة الى السير من جديد ، كان لعاب الفتى يسيل وقد امتلأت برائحة

الشواء . . . بعد دقيقتين ، في أحد الشوارع الخلفية لميدان سليمان باشا في وسط القاهرة ، هبط محسن من السيارة حاملا اللقافة ، فهبط الفتى معه . . . كان نصف ساعة قد انقضى منذ أن غادرا مكانها ذاك في ظل تلك الشجرة على الطريق الموصل فيما بين العباسية وضاحية مصر الجديدة ، لم يجرؤ الفتى خلاله على النطق ، فقط ، طلب سيجاره فأوما له محسن بالموافقة ، أشعل السيجارة واستغرق في التفكير مدخنا وقد استبدبه القلق . . . سارا معا حتى وصلا الى ميدان سليمان باشا ، دلف محسن في باب عمارة من تلك العمارات العريقة المحيطة بالميدان فتبعه رأفت دون كلمة ، دخلا المصعد الذي حملهما إلى الطابق الأخير ، ثم غادراه ليصعدا طابقا آخر أوصلهما الى سطح العمارة ، اخترقا ممرا على جانب منه بضع غرف تشغلها عائلات البوابين ، عند سور منخفض يفصل هذا السطح عن السطح المجاور ، صعدا سلما مكونا من أربع درجات ، ثم هبطا أربع درجات لسلم صغير آخر يوصل الى سطح العمارة المجاورة ، قال محسن شارحا الأمر :

« ابقى تعال من السكة دي علشان العمارة الثانية مفياش اسانسير ! »

سارا بضع خطوات توقف بعدها محسن أمام باب أولج فيه مفتاحا ففتح الباب على الفور ، خطا الى الداخل وهو يقول :

« اقفل الباب وراك ! »

دخل رأفت وهو يغلق الباب خلفه ليجد نفسه في مسكن صغير وبسيط ومكون من صالة متوسطة الاتساع ، في صدرها باب يؤدي إلى غرفة النوم ، ولم يكن الفتى في حاجة إلى أن يعرف أن الممر القائم في الطرف الايمن يؤدي إلى المطبخ والحمام !

ظل الفتى فى مكانه لا يبرحه وهو ينظر الى محسن فى حيرة ، وضع هذا لفافة الطعام فوق مائدة صغيرة تتوسط أربعة مقاعد ، كانت تبدو مستعملة لكنها فى حالة جيدة . . . وقف كل منها قبالة الآخر لثوان ، هتف الفتى بعدها محتجا :

« رجعنى السجن يابيه ! »

ابتسم محسن وهو يشعل سيجارة ويلقى بجسده فوق أحد المقاعد دون رد ، فعاد رأفت يصيح فى احتجاج صارخ :

« على الأقل أنا فى السجن بابقى عارف أنا فىن . . . لكن هنا »

قاطع محسن فى رقة :

« ما أنا قلت لك أنك فى بيتك »

« بيتى منين بس ؟ ! »

صمت الفتى فى انتظار رد ، لكن الرد الوحيد الذى جاءه كان الصمت !

« وازاى . . . إزاى ده يبقى بيتى ؟ ! »

وتلقى الصمت جوابا ، فاسترسل :

« من فضلك ياسعادة البيه فهمنى أنا حاتجنن ! »

فى نعمة معينة قال محسن :

« مش هنا أحسن ؟ »

أدرك الفتى مايرمى اليه محسن فصاح مواصلا الاحتجاج :

« أحسن لو كنت اعرف إيه الحكاية بالضبط ! »

« ولع لك سيجارة ! »

اشعل الفتى سيجارة وهو يدمدم مغاضبا ، نفث الدخان فى

عصبية ، ثم عاد الى التساؤل :

« طب على الأقل أعرف ليه كل ده ؟ »

« أنت قلت للانجليز في ليبيا ان اسمك ايه ؟ ! »

« ليثى كوهين ! »

« خلاص . . . نخلي اسمك ليثى كوهين على طول !! »

في فرع صاح الفتى :

« ايه الحكاية دي بقى ؟ ! »

نهض محسن من مكانه بعد ان انتهى من تدخين سيجارته قائلا :

« في أوضة النوم حاتلاقي بدلة ، هي مش جديدة صحيح انها

احسن من اللي انت لابسها ! »

« أنا مش عاوز بدل . . . أنا عاوز اعرف إيه الحكاية دي ؟ ! »

« وحاتلاقي كام قميص وكام شراب وكام غيار وكام منديل وكرافته

واحدة ! »

« يا بية فهمنى من فضلك ! »

أخرج محسن عشرة جنيهات ألقى بها فوق المائدة بجوار لفافة

الطعام :

« ودول عشرة جنيهه علشان تشتري سجاير وتحلق وتدخل سينما ! »

« الله أكبر ! »

قالها الفتى بنعمة أضحكت محسن بالرغم منه !

« أنا عاوزك النهاردة تاخد دش وتستريح وتتفصح وتعمل كل اللي

نفسك فيه . . . ويكره إن شاء الله ، الساعة عشرة بالضبط ، أنا جاي

لك . ! »

لم يجد الفتى مايقوله ، ثم إنه لم يجد بدا من الاستسلام . . . وقف
ذاهلا وهو يتبع محسن الذى كان يخطو نحو الباب ، لكن هذا ، وقبل
أن يصل الى الباب ، التفت اليه ، وبنغمة شديدة التأثير قال :
« أظن مش صعب عليك انك تقول هنا الى قلته للانجليز فى
ليبيا ! »

تقدم منه الفتى مندفعاً :

« طب ليه ؟ ! »

« كل الناس ، من النهادرة ، لازم تعرف ان اسمك ليثى كوهين ،
وانك يهودى ، وكنت هربان من مصر والانجليز هم اللي رجعوك
تانى ! ! »

لم يستطع الفتى إلا الصمت أمام هذا المنطق الغريب الذى بدا له
وكأنه فوهة بئر بلا قرار ، كان محسن ، وهو يلقي اليه بحديثه ، يبدو
صلباً ، يتحدث عما سيكون وكأنه سوف ينفذ دون مناقشة ، فتح
محسن الباب وهم بمغادرة المكان عندما صاح فيه الفتى :
« ياسعادة البيه ! »

التفت إليه محسن فاذا هو يحمل لفافة الشواء اليه :
« سعادتك نسيت دى ! ! »

« ده غداك ياخواجه ليثى . . تلقاك ماكلتش بقى لك كام يوم ! »
قال محسن هذا ، ثم استدار واختفى دون كلمة !

.
.

لايدرى أحد كيف كان الفتى يفكر فى تلك اللحظات فهو لم

يتحدث عنها كثيرا فيما بعد ، غير أنه ظل ساكنا جامدا لثوان طالت بعض الشيء ، حتى إذا حانت منه نظرة نحو لفافة الطعام ، كانت ست وثلاثون ساعة قد انقضت منذ أن ذاق الطعام لآخر مرة . . . أزاح الجنيهات العشرة جانبا ، وفتح اللفافة ، وانهاه على الشواء يلتهمه !

قبل غروب الشمس بقليل ، كان « رأفت على سليمان الهجان » يغادر باب العمارة المطلة على شارع سليمان باشا وهو يبدو إنسانا آخر . . . كان حليق الذقن ومصفف الشعر ، نظيف الملابس ، ثابت الخطى . . . فكما وجد الملابس في غرفة النوم ، وجد الحمام مجهزا بكل ما يحتاج اليه شاب أعزب . . . وكان بواب العمارة جالسا على دكته التقليدية لحظة مرور رأفت به فلقى عليه التحية :

« مساء الخير ! »

هب الرجل واقفا وهو يصيح :

« مساء الخير ياخواجه ليثى ! »

وهكذا أدرك رأفت على سليمان الهجان ، باحساس شديد الغموض ، أن عليه أن يودع اسمه منذ تلك الليلة لا إلى حين ، ولكن ربما إلى الأبد ، وأنه قد قدر عليه ان يعيش لسنوات قادمة لا يعرف عددها إلا الله . ، كيهودى اسمه ليثى كوهين . . . راح يسير في الميدان المتألىء بالاضواء والمزدحم بالناس ، وكان عليه أن يتلبس شخصية اليهودى . . . ولقد ابتسم في استخفاف ، فلم تكن هذه هى المرة الاولى التى يفعل فيها هذا !!!



دقت الساعة العاشرة في صباح اليوم التالي عندما دق باب المسكن الذي يقطنه رأفت الهجان ، أو ليثى كوهين ... كان محسن ، وهو الواقف بالباب الآن ، قد أدرك منذ الصباح المبكر أن خطته قد حظيت بنجاح لا بأس به ، فلقد تلقى تقريراً في الثامنة صباحاً عن كل ما فعله رأفت طوال ليلة أمس . . . علم أنه اشترى صندوقين للسجائر من صنف غال وفاخر ، ثم ارتاد إحدى دور السينما التي تعرض فيلماً أجنبياً ، وعندما غادر السينما توجه الى مطعم قريب اشتهر بوجباته السريعة ، ثم شرب زجاجة مياه غازية ... وعاد الى البيت فلم يبرحه . . . ولكن هذا لم يكن مهماً بالنسبة لمحسن ، كان الأهم لديه ، أن الفتى عندما فتح له الباب ، بدت ملامحه وقد عادت الى استقرارها ، كان قد نام ليلته نوما عميقاً فالتمعت نظراته منبهة عن نشاط غير عادي ، اما ابتسامته التي استقبل بها محسن ، فلقد كانت تعلن عن أنه فكر طويلاً ، وأن رأيه قد استقر ، وأنه موافق على كل ما يريده محسن ، حتى ولو كان مجهولاً !

« شوف ياليثى »

قاطعته الفتى :

« ليثى ده ايه ؟ ! »

استمر محسن وكأنه لم يسمعه :

« شوف . . . أنا عاوز منك حاجتين ! »

« ايه هم ؟ ! »

« الحاجة الأولانية انك تطمئن تمام ! »

« يابية اذا كنت عاوز تعرف حاجة عن اليهود أنا

مستعد »

« ليثى ! »

هكذا زجزر محسن منذرا ، فهتف الفتى :

« ليثى تانى ! »

« ماهى دى الحاجة الثانية اللى أنا عاوزها منك ! »

« إيه هى ؟ ! »

« انك تنسى حكاية رأفت الهجان »

« إنك تنسى حكاية رأفت الهجان دى نهائى ! »

« بس أنا اسمى الحقيقى رأفت الهجان يافندم ، احلف لك

ب »

قاطع محسن :

« طب مانا عارف ! »

فغر الفتى فمه دهشة ، سأله متوجسا :

« عارف ؟ ! »

« أيوه عارف ! »

« يعنى أنت مصدقنى ؟ ! »

« طبعا ! »

ولايئسى محسن ممتاز منظر الفتى فى تلك اللحظات ، فلقد

اجتاحت ملامحه ابتسامة راضية . . . ألقى بنفسه الى الخلف واشعل

سيجارة وظل ساكنا لثوان قال بعدها :

« بالشكل ده حتلقانى تحت أمرك فى أيها حاجة تعوزها ! »

هم محسن بالحديث عندما أردف الفتى :

« بشرط ! »

« ايه هو؟ ! »

« إنك فى يوم من الايام تقول لى ايه الحكاية دى بالضبط ! »

لم يرد محسن ، فقط ، بادل الفتى الابتسام ، فقال هذا :

« ودلوقت ، ايه اللى سعادتك عاوزه منى ؟ ! »

« عاوز اعرف حكايتك من أولها ! »

نظر إليه الفتى وقد انداحت فوق الملامح سحابة من حزن عميق

ودفين ، أدرك أن عليه أن يستسلم لهذا الرجل الذى لا يعرف حتى الآن

اسمه ، ولا من هو ، بل لقد ادرك انه يريد الاستسلام ويرغب فيه !

« حاتصدقنى ؟ ! »

« حاصدقك ! ! »

« أنا اسمى رأفت على سليمان الهجان ، أبوياالله يرحمه هو الاستاذ

على سليمان الهجان ناظر مدرسة النجاح الثانوية للبنين . . . اخواتى

أربعة ، ثلاثة اكبر منى هم : عادل وسليم ومحمود ، وشريفة هى

الوحيدة التى أصغر منى ، دى آخر العنقود

هكذا بدا الفتى يحكى قصته !



نحن لانملك أمام بعض الوقائع التى سردها ذلك الفتى على ضابط

المخابرات المصرى « محسن ممتاز » - وكما نقلت عنه حرفيا - إلا لأن

نأخذها على علاقتها وكما ذكرها رأفت الهجان أو ليثى كوهين ،

دون أن ندعى الوصول إلى يقين كامل بصحتها . . . لالشيء ، لأن

مايزيد على الثلاثين عاما قد انقضت منذ أن وقعت تلك الأحداث

وحتى يومنا هذا ، وتفرق ابطالها أو رحلوا - فى الغالب - عن

عالمنا . . . أما محسن ممتاز - الذى يشغل الآن وظيفة عادية من وظائف الحكومة المصرية - فلقد رفض الحديث رفضاً قاطعاً . . . مرة بحجة أنه من الصعب أن يتذكر التفاصيل بعد كل هذه السنين ، ومرة بحجة أن هذا كلام لا لزوم له مادام الفتى قد قام بواجبه تجاه وطنه . . . غير أنه بلغنا من مصدر ثقة أكيدة ، أن الموضوع عندما فتح ذات ليلة - وفى جلسة خاصة - أمام محسن ممتاز ، قال إن ضابط المخابرات يحمل كما « هائلا » من الأسرار بل والمعارف أيضا ، وعلى ذلك ، فيجب عليه ألا يتحدث ، ففى الحديث نوع من المباهاة بما بذله من أجل وطنه ، وهو بذل يقدمه الرجال دون انتظار لمقابل ، حتى ولو كان المقابل كلمات تتحدث عن جهد بذله . . . ولم تفلح معه كل الحجج التى سيقى إليه ، ولم يقنعه ان « التاريخ المصرى الحديث » فى حاجة إلى أن تحفظ ذاكرته هذه التفاصيل للأجيال القادمة ، خاصة بعد تلك الحملة الضارية والشرسة التى تحاول تزييفه . . . و . . . ولكنه أصر على موقفه !

وعلى ذلك ، فان التأكد من صدق هذه الأحداث أو كذبها ، بشكل قاطع ويقىنى ، يصبح أمرا بالغ الصعوبة ، إن لم يكن مستحيلا ! غير أن الذى يجعلنا نركن الى ما قيل ونصدقة ، أن حديث الفتى وإن كان يقبل التأويل ، فانه - دون شك - يقبل التحليل أيضا . . . ثم ، وحتى بعيدا عن التحليل ، فلقد أثبتت التجربة - بطول عشرين عاماً كاملة - أن تلك الأحداث التى ذكرها الفتى صادقة بشكل عام ، بل إن بعضاً منها نزعى عنه الأيام رداء الغموض فأصبح واضحاً أشد ما يكون الوضوح ، وأثبت صدقه . . . وعلى ذلك ، فليس منطقياً أن نصدق جزءا ، ونكذب الآخر !

وإذا كنا لانلقى هذا الكلام لمجرد الثثرة . . . فإن قصة حياة هذا الفتى - الذى التقى به واحد من ضباط المخابرات المصرية ذات ليلة وهو بلا اسم ولادين ولاجنسية - تبدو مثيرة وغريبة غرابة تدعو بالفعل إلى الشك . . . ولأن قصة حياته ليست من قبيل التزويد الأدبى ، أو حتى الاحاطة بالشخصية الرئيسية التى تلعب دور البطولة فى هذه الملحمة الوطنية ، فان هذه « المعرفة » سوف تكون « الاحساس » الذى سيبنى محسن ممتاز حكمه بناء عليه ، فيما اذا كان هذا الفتى الجامع يصلح لأن يحمل تلك الأمانة الثقيلة التى كان عليه ، لو سارت الأمور على مايرام ، أن يحملها لسنوات لايدرى أحد عددها ، ولحقة قادمة كانت بشائرها تبدو فى الافق مزغرده بالأمل فى وطن عظيم !

.
.

دون شك كان رأفت مدللًا - هكذا قال لمحسن وهو يحكى قصة حياته فى ذلك المسكن الصغير فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا - لكنه لم يكن فاسداً . . . وربما كان للأب بعض العذر فى تدليله هو وشريفة ، فلقد توفيت أمه وهو لايزال فى الخامسة وكانت شريفة فى الثالثة . . . وهكذا تولى إخوته تربيته بعد وفاة أبيه الذى رحل عن عالمنا عندما حصل رأفت على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية - وهى شهادة كانت ذات قيمة ووزن فى تلك الأيام - وكان هو فى الثانية عشرة من عمره . عندما اجتمع الأخوة وقرروا أنهم لا يستطيعون إلحاق الصبى باحدى المدارس الثانوية التى تؤهله لدخول الجامعة ، وأنه لامفر من إلحافه باحدى المدارس المتوسطة . . . وبالرغم من أن هذا كان يشكل نوعاً من العار فى تلك السنوات ، الا أن الفتى لم يستطع

الاعتراض وان كان قد أحس بالمرارة ، فابوه كان ناظر مدرسة ثانوية ، وأخوته الثلاثة جميعا تعلموا في المدارس الثانوية والتحقوا بالجامعة ، وأصغرهم في الطريق اليها . . . وعلى كل حال ، فلقد اختاروا له مدرسة « التجارة المتوسطة » - كان هذا اسمها - التي كانت تؤهل التلاميذ للعمل في البنوك والشركات والاعمال الحسابية بفروعها المختلفة . . . وتفوق الفتى في دراسته خاصة في اللغتين الانجليزية والفرنسية ، وهما لغتان كانتا اساسيتين في تلك المدارس نظراً لأن البنوك والشركات وقتها كانت في الغالب أجنبية وتستعمل في تعاملاتها احدى هاتين اللغتين . . . وانتقل الفتى من السنة الأولى الى الثانية الى الثالثة الى الرابعة وهي السنة النهائية دون أن يعرف - كعادته من قبل - معنى الرسوب ، لم يكن أمامه سوى بضعة شهور ويحصل على الدبلوم الذي يؤهله للالتحاق باحدى الوظائف . . . وكان في السادسة عشرة من عمره عندما تزوج أخوه وجاء بعروسه كي تعيش معهم في البيت . . . وبدأت الخلافات تدب بين رأفت وشقيقه لأوهى الأسباب ، وهي خلافات أثرت على الصبي تأثيراً شديداً ، لم يكن من السهل عليه أن يهان أمام عروس أخيه التي كانت تقاربه في السن ، وجاءت اللطمة عندما رسب في الامتحان النهائي ، كما رسب في الملحق ، بدأت الخلافات تتفاقم حتى وصلت إلى ذروتها ، عندما رسب في العام التالي أيضا ، ثم أصبحت حياته في البيت لاتطاق فقرر ان « يطفش » قبل ان ينهى دراسته ، وأن يلقي بنفسه في خضم الحياة !

وهكذا . . . لم يكن الفتى قد تخطى الثامنة عشرة من عمره ، عندما وجد نفسه في الطريق فلم يحاول أحد من أخوته أن يمنعه ، وكان الآن ، بلا مأوى ، بلا عمل ، بلا عائلة ، وبلا ملجأ أو مال !

... ..

راجت صناعة السينما في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية رواجاً شديداً ، جاء هذا مع إيجاد فرص عمل لعشرات الألوف من شباب مصر الذين نزحوا من كل مكان في القطر المصري - هكذا كان اسم مصر في ذلك الوقت ! ! - كى يلتحقوا بالعمل في معسكرات الجيش الانجليزى التى كانوا يطلقون عليها اسم « الاورنس » . . . وكان أنور وجدى وحسين صدقى ويحىى شاهين وبدر لاما ومحسن سرحان وفؤاد جعفر وصلاح نظمى وابراهيم حمودة والوجه الجديد محمد فوزى ، نماذج يتلهف المراهقون على تقليدها . . . ولم يكن أمام الفتى من طريق يسلكه سوى السينما ، خاصة انه لم يكن عاملاً يتقن صنعة فيستطيع الالتحاق بالأورنس . . . ولم يكن صعباً أن يجد لنفسه عملاً وسط الوف الكومبارسن أو مساعدى الاخراج أو الريبجستيرات أو المشهلاتية . . . وعلى كل ، فلقد راح يتلطم هنا وهناك ولم يكن يظنيه سوى شىء واحد . . . ليس هو الجوع الذى أصبح يعانى منه أغلب الأيام ، وليس هو الحرمان من المأوى وقد أصبح يلجأ إلى أحط الفنادق والغرف ، وإنما هو حرمانه من شقيقته التى كان يزورها بين الحين والحين ، وكلما ازداد تبرم زوجها من زيارته ازداد تعلقاً بها وازدادت تعلقاً به . . . ثم تعرف رأفت على فتاة من فتيات السينما كانت تكبره سناً وتكسب مبالغ لا بأس بها من عملها فى الأفلام التى كانت تظهر فيها وسط الفتيات أو الراقصات . . . وقعت الفتاة فى حبه وعرضت عليه الزواج . . . وكان قبوله لعرضها كفيلاً بأن يحميه من العوز أو اللجوء إلى إخوته بين الحين والحين ، وعندما يعرضه الجوع وتذله الحاجة طلباً للمساعدة ، فلا يلقى منهم سوى الازدراء والاحتقار والتفريع والصد ، ثم الابواب المغلقة فى وجهه . . . ولم ينكر رأفت على سليمان

الهجان أنه ساير فتاة السينما لأسابيع ، ثم تحولت مسيرته الى محاولة للارتباط بها دون جدوى ، ثم نداء خفى في أعماقه كان يؤكد له انه لا ينتمى الى هذا الحضيض . . . ثم لم يستطع الاستمرار ، فهجر فتاة السينما كما هجر السينما نفسها يوم قرأ إعلانا في احدى الصحف عن وظيفة خالية ، نشرته احدى شركات البترول الأجنبية - وكانت كل شركات البترول في مصر ، وبلا استثناء ، أجنبية في ذلك الوقت - التي تعمل في البحر الأحمر ، وكانت شروط الالتحاق بها صعبة ، بل كانت أمنية يتلهف الشباب على تحقيقها ، ذلك أن اغلب موظفي هذه الشركات كانوا من الاجانب أو اليهود الذي يتقن الواحد منهم عدة لغات في طلاقة درب عليها منذ الصغر كما دربوا على احتلال مثل هذه الوظائف وطرد المصريين منها . . . وتقدم الفتى وسط عشرات من اقرانه ، وجاءت المفاجأة يوم أن اعلنت الشركة عن نجاحه فسافر الى البحر الاحمر ، وتسلم عمله هناك !

من الأسباب التي دعت رأفت الهجان الى السعى وراء هذه الوظيفة ، انه أصبح في الأيام الاخيرة غير قادر على الا يرى شريفة بعد ان أصبحت معارضة زوجها لزيارته البيت صارخة ، لم يكن يستطيع أن يسبب لها أزمات عنيفة كلما زارها ، ولم يكن يستطيع في نفس الوقت ألا يزورها وهو قريب منها . . . وجاء عمله الجديد في البحر الاحمر مخرجا له ، انغمس في عمله انغماسا كاملا ، كانت تجربته في حقل السينما قد أمدته بالكثير من الخبرة في كيفية التعامل مع الآخرين . . . واذا اكتشف فائدة اللغتين الانجليزية والفرنسية في عمله ، فهو لم يكتف بحصيلته منها ، بل استجلب من القاهرة ، كما استعار من بعض موظفي الشركة ومهندسيها من الاجانب ، عددا لا بأس به من الكتب

راح يلتهمها التهاما ، فلقد فتحت له هذه الكتب آفاقا عظيمة . . .
وما ان مضت شهور قليلة حتى كان رأفت يشكل خطرا على الموظفين
اليهود والاجانب والقللة القليلة من المصريين هناك . . . كان قد أصبح
محل أعجاب رؤسائه . . . فما كان من زملائه إلا أن راحوا يدسون له -
على مهل - يوما بعد يوم ، حتى فوجيء ذات صباح أنه منقول الى
القاهرة !

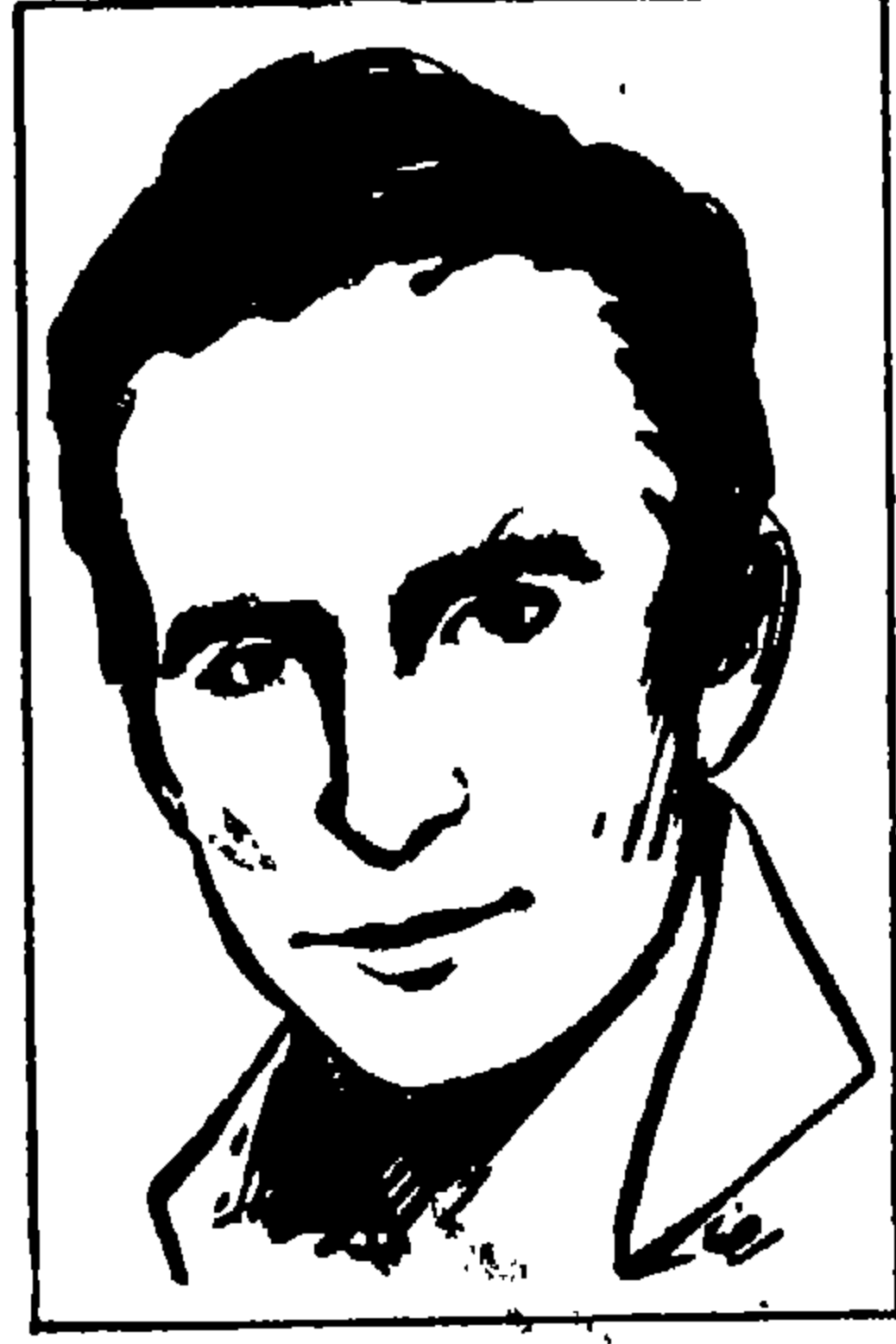
وعاد رأفت الى القاهرة رغما عنه ، لم يكن يريد أن يعانى من
جديد ، وكانت شريفة في تلك الأثناء قد أنجبت طفلا اسمته
« طارق » وقع رأفت في حبه منذ النظرة الأولى ، وكلما رأى حاجة
شقيقته الى رؤيته ازداد عذابه ، ولم يكن امامه سوى الهرب من جديد ،
حاول العودة الى البحر الاحمر دون جدوى ، فما كان منه إلا أن قدم
استقالته ، والتحق بعمل في شركة بترول أخرى - وكان قد اكتسب
خبرة لابأس بها - وسافر إلى البحر الأحمر دون أن تقبل استقالته من
الشركة الأولى !

ومن جديد تلاحقه كفاءته وتفوقه وحب رؤسائه ، وراح يعانى من
حرب ضروس شنها عليه أقرانه ، كان مجرد نجاح المصرى وسط جو كله
أجنبى ، أمر بالغ الصعوبة . . . وعندما وشى به احدهم ذات يوم الى
المدير ، عرف هذا أن استقالة رأفت لم تقبل فى الشركة الأخرى ،
وحسب قانون عقد العمل فى ذلك الوقت ، وحسب الاتفاق المقام بين
الشركات المتنافسة ، فلقد فصل من هذه الشركة وفقد كل حقوقه قبل
الشركة الأولى . . . و . . . وعاد الى الضياع من جديد !

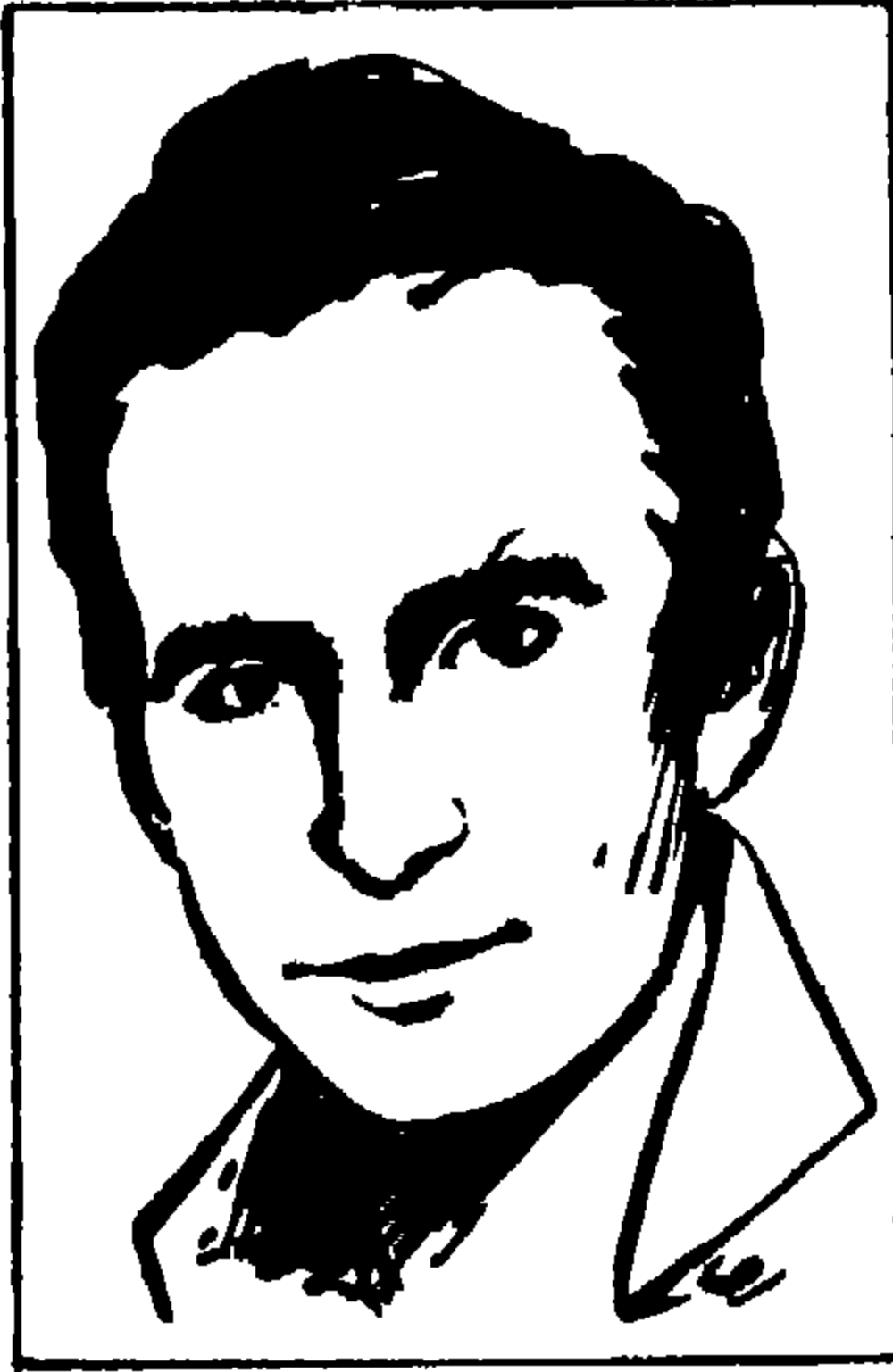
.
.



ليفى كوهين



عادل مرقص سيدهم



دانييل مارتان



رافت الهجان

توقف رأفت عن الحديث وراح ينظر الى محسن الذى كان ينصت اليه فى صمت وكأنه كله قد تحول الى آذان تصغى لقصة حياة هذا الفتى الذى لازمه سوء الحظ ملازمة تدعو الى الدهشة والشك معا . . . ولقد ظل محسن على صمته ، فأشعل الفتى سيجارة نفث دخانها فى صوت مسموع ، فكأنه ينفث من صدره حمما ، ومالبث أن رفع رأسه نحو محسن متسائلا :

« مصدقنى يابيه ؟ ! »

قال محسن فى حنان أنكره على نفسه :

« واياه اللى يخلينى ما اصدقكش ؟ ! »

« أصل انا نفسى مش مصدق . . . كل ما أروح فى حته يطلع لى

فيها عفريت ! »

عاد الفتى الى الصمت لثوان ثم انفجر :

« ليه . . . واشمعنى أنا ؟ ! »

أحس محسن أنه يقاوم فى داخله انفجارا يوشك أن يبدده ، ذلك أنه

مالبث أن هب واقفا وقد جحظت عيناه ، كان صوته مختنقا وهو يهتف :

« طب اروح فىن . . . اروح فىن ؟ ! »

ولقد كان هذا هو السؤال الذى وجهه رأفت لنفسه عندما أصبح فى

الشارع من جديد يستقبل الضياع ، ويستقبله الضياع ، كصديق طال

الشوق اليه . . . فألى أين ؟ !

الفصل السابع

تراجيديا النكبات

قالت السيدة سمحون في اهتمام واضح ، إن ما يحكيه عزيز الجبالي يبدو وكأنه إحدى التراجيديات الكلاسيكية وإنه يذكرها بتلك الروايات التي تجرى أحداثها في القرن التاسع عشر فابتسم عزيز قائلاً : إنه عندما سمع هذه القصة لأول مرة من محسن ممتاز ، بدت له وكأنها كوميديا مسرحية للفنان المصري الراحل « نجيب الريحاني » !

« كوميديا ؟ ! »

هكذا هتفت فراو سمحون متسائلة ، فأجاب عزيز :

« نعم ياسيدتى . . . فيبدو أن الشعب المصري ، لكثرة ما عانى على مدى قرون متصلة من المآسى ، لم يجد وسيلة لمواجهة مآسيه سوى السخرية منها ! ! »

ويبدو أنها لم تفهم ما الذي يعنيه ، فلقد رفعت حاجبيها دهشة ، فراح يحكى لها بعض المواقف التي جاءت في مسرحيات الريحاني

وأفلامه ، وكيف أنها كانت تسخر من سوء الحظ إلى الحد الذى كان يجعل الناس تدمع من كثرة الضحك ! . . . قال عزيز هذا ثم أردف وهو يزفر :

« وعلى كل فلم تكن هذه سوى البداية ! »
برقت عيناها الزرقاوان بتساؤل صارخ ، فعاد يقول :

« نعم فراوسمخون ، لم يكن هذا الذى تسمينه تراجيديا كلاسيكية سوى البداية ، فلقد راح سوء الحظ يطارد الفتى الى بريطانيا وأمريكا وكندا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ثم المانيا . . . حتى دفعه مرة أخرى الى مصر ، كى تبدأ مرحلة جديدة فى حياة هذا الشاب الذى قدر له أن يلعب دورا حاسما فى حياة وطنه ! »



فصل رأفت الهجان من شركتى البترول بعد اكتشاف أمره ، ووجد نفسه يعود الى الضياع من جديد . . . فراح يتساءل : الى أين ؟ !
فى البداية بدت له الطرق مسدودة ، لم يكن أمامه سوى طريق واحد ، لكنه رفض العودة الى قاع السينما المصرية حيث كان ألوف المتعطلين يقفون فى انتظار إشارة لأى عمل وأية حياة وأى شىء فى سبيل لقمة العيش . . . غير أنه فى غمرة يأسه ، تذكر « ذكرى بك »

كان ذكرى بك مختار مديرا لشركة مصرية شهيرة - ومازالت حتى اليوم - للكيمياويات ، وكان الرجل فى زيارة عمل للبحر الأحمر ذات يوم عندما التقى برأفت الهجان هناك ، ولاحظ تفوقه واجادته للغات الأجنبية واستمع الى رأى رؤسائه فيه ، فطلب إليه - فى مجاملة سريعة - أن يزوره فى الاسكندرية - حيث مقر الشركة الرئيسى - إذا ما احتاج

إلى شيء .

وسافر الفتى إلى الاسكندرية ، والتقى بذكرى بك فرحب به الرجل ، واستمع الى ما حدث وسرعان ما أوجد له عملا في الشركة الكبرى التي يريدتها .

كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت منذ عامين تقريبا عندما أحس رأفت على سليمان الهجان لأول مرة - منذ وفاة أبيه - انه استقر أخيرا بعد طول ضياع ، ومع الرعاية التي أسبغها عليه ذكرى بك مختار ، راح يبذل قصارى جهده في العمل الذي أسند اليه ، وأصبح بعد شهرين قليلة مصدر فخر للرجل الذي عينه في الشركة والذي أصبح يعامله كما يعامل ولده تماما . . . ومع الأيام عرف ذكرى بك قصة رأفت بالكامل،فتح له الفتى قلبه وبأدله حبا بحب . . . واكتشف الرجل أنه يمت بصلة نسب بعيدة لأسرة الهجان ، ولأنه كان يفكر في هدف معين فلقد أدرك - خاصة بعد زيارة عائلية قامت بها إحدى قريباته لشريفة أخت رأفت ، دون أن تذكر لها شيئا عن أخيها - أن الفتى حرم من حنان الأبوين واحدا وراء الآخر ، وأنه غانى - حقيقة - من معاملة اخوته . . . فراح يسبغ على رأفت حنانا جعل الفتى يتفانى في عمله أكثر . . . ووصل الأمر الى الحد الذي ألمح فيه ذكرى بك ذات مرة أنه يفضل لابنته الوحيدة عريسا في مثل كفاءة رأفت ومواهبه ومستقبله الذي أصبح الآن يبشر بنجاح أكيد . . . ثم دعاه إلى العشاء في بيته وقدمه لأسرته الصغيرة التي رحبت بالفتى ترحيبا أعاد اليه ثقته بنفسه ، ففكر في اكمال دراسته ، بل إنه بالفعل - وكان هذا في عام ١٩٤٩ - بدأ الاستعداد لدخول الجامعة بدراسة مقررات أربع سنوات مرة واحدة في التعليم الثانوى - وكان هذا نظاما معمولاً به في تلك الأيام - لنيل شهادة

الثقافة ، ثم بعدها التوجيهية - ثانوية عامة - تمهيدا لدخوله الجامعة
التي كانت حلم احلامه جميعا !

كان رأفت قد أصبح واحدا من شباب الشركة المرموقين عندما أرسله
ذكرى بك في مأمورية سرية الى فرع الشركة في القاهرة ، والذي كان
يديره موظف قديم يدعى « باسيلى جبران » . . . وكان باسيلى جبران
هذا ذا ناب أزرق كما يقولون ، كان يتلاعب في حسابات الشركة دون
أن يستطيع أحد أن يمسك عليه شيئا ، وكانت مهمة رأفت السرية هي
الكشف عن هذا التلاعب !

في تلك الأيام عاد رأفت لزيارة أسرته وقد أصبح الآن موظفا محترما
في شركة محترمة لها سمعتها المدوية . . . وكانت شقيقته شريفة سعيدة
به سعادة تفوق الوصف وهو يحمل الهدايا إلى صغيرها طارق الذى تعلق
بخاله كما تعلق خاله به . . . ولقد أثار رأفت الكثير من الجدل داخل
الأسرة التى انقسمت على نفسها . . . قسم تزعمته شريفة التى
استبشرت خيرا خاصة بعد أن زاره فى الشركة واحد من اخوته ولاحظ
المكانة المرموقة التى وصل اليها أخوه ، والتى كان باسيلى جبران يبالح
فيها لغرض فى نفسه . . . وقسم آخر كان يسخر من كل ما يحدث ،
مؤكدًا أن « ذيل الكلب لا يستقيم » وهو مثل شعبى مصرى يوحى بأن
رأفت سوف يعود سيرته الأولى ان أجلا أو عاجلا . . . ولا بد أن تلك
الأيام من عام ١٩٤٩ ، كانت أسعد أيام هذا الفتى على الاطلاق .
كان سعيدا الى الحد الذى لم ينتبه فيه إلى الاعيب « باسيلى جبران »
الذى كان سهلا عليه أن يكتشف حقيقة مهمته منذ الأيام الأولى ،
فدبر له فخا سقط فيه الفتى بسهولة ، واذا به ذات صباح متهم

باختلاس مبلغ من المال كان في خزانة الشركة !

كانت الصدمة عنيفة على الفتى لدرجة أنه سقط صريع المرض ولزم فراشه في البنسيون الذي كان يقيم فيه . . . ووصل الخبر الى ذكرى بك الذي رفض أن يصدقه ، وإن كانت الأدلة دامغه ، ولا بد أن حال الفتى وصلت الى درجة من السوء جعلت قلب « باسيلي جبران » يرق له ، فتظاهر بأنه وجد المبلغ بالكامل في غرفة الفتى بالبنسيون . . . وهكذا أعيد المبلغ الى خزانة الشركة واكتفت الشركة بفصله دون إبلاغ النيابة !

.
.

سأل رأفت الهجان محسن ممتاز بصوت مغموس في دمع خفى :

« مصدقنى يابيه ؟ ! »

هتف محسن في حرارة :

« مصدقك ياليتي ! »

« تصور سعادتك ان اخواتي لما حصل الي حصل ، كذبوني

وصدقوا باسيلي ؟ ! ! »

اختلف صوت رأفت بالدمع الذي كان يفيض تحت جفنيه ، فأشعل

سيجارة في محاولة للسيطرة على انفعالاته ، ولزم محسن الصمت تماما ،

حتى اذا انقضى بعض الوقت عاد يقول :

« محدش صدقنى غير شريفة وذكرى بك ! »

اعتدل محسن في جلسته منتبها ، فاستطرد الفتى :

« ذكرى بك قال لي بالحرف الواحد : أنا مصدقك يارأفت وعارف

إنك برىء وإن الغلطة مش غلطتك ، دي غلطتى أنا لانك مش قد

باسيلي جبران . . . لكن ما باليد حيلة ، ماأقدرش أرجعك الشركة
تانى بعد كل اللى حصل !! »

ران الصمت طويلا وكان رأفت مطرقا فسأله محسن :
« وبعدين ؟ ! »

« ولاقبلين ، حلفت مانا قاعد فى مصر ! »

« سافرت ؟ ! »

« ذكرى بك هو اللى اتوسط لى بنفسه فى شركة الملاحةبتاعة عبود
باشا ، وعينونى مساعد ادارى على مركب اسمها « لوتس » سافرت
عليها بعد اتناشر يوم ! »

شعر محسن أن ثمة إضافة فريدة ستضاف الى تجربة هذا الفتى . .
هم بسؤاله عن البلاد التى زارها لكنه توقف ، كانت ملامح الفتى
تقلص الآن تقلصا رهيبا ، بدا وكأنه يعانى من انفعلات لا قبل له
بها ، مال نحوه مناديا فى رقة :

« ليقى ! »

فاذا الفتى ينفجرفيه :

« ما هو أنا لو حكيت لك الى حصل لى بره مش حاتصدق ! »



كانت آخر الموانىء التى توقفت فيها السفينة المصرية « لوتس » هى
ميناء ليثربول فى غرب انجلترا . . . وكان رأفت طوال أيام السفر يبدو
منطويا على نفسه ، لم يفلح معه الحاح زملائه لمشاركتهم لهوهم على ظهر
السفينة أو فى الموانىء التى توقفت فيها اثناء الطريق . . . كانت
الصدمة التى سببها له باسلي جبران من العنف بحيث جعلته زاهدا
فى الحياة راغبا عن العودة الى مصر . . . ولطالما جلس الفتى - فى أوقات

فراغه - على ظهر السفينة يرقب سطح المياه ويتأمل الكون اللانهائى المحيط به ، ويتساءل عن الأسباب التى من أجلها حدث له كل هذا الذى حدث بدت له الدنيا سخيفة ، والحياة أكثر منها سخفا حاول أن يجد لنفسه برا يرسو عليه ، لكن الطريق الوحيد الذى ارتأه أمامه ، كان مواصلة الهرب !

ولقد قال لمحسن فى جلسته تلك بذلك المسكن الكائن فوق سطح إحدى عمارت وسط القاهرة العريقة إنه عندما قرر عدم العودة الى مصر ، كان مؤمنا أنه لا يريد العودة الى الماضى لا إلى مصر نفسها ، كان يريد العودة الى شريفة وطارق وذكرى بك وأسرته ولكنه لم يكن يريد العودة الى إخوته الذين ظلموه دونما ذنب جناه ، وباسيلى جبران الذى كاد يلقى به فى السجن وإلى زملائه الذين تسببوا فى فصله مرتين !!

فى نفس اليوم الذى رست فيه السفينة « لوتس » فى ليثربول تعرف على « كاي وولف » فى أحد محلات الرقص التى كانت منتشرة أثناء الحرب العالمية الثانية للترفيه عن الجنود ، ثم أصبحت فى السنوات التالية سمة من سمات المجتمع البريطانى ضغط عليه زملاؤه وجروه جرا الى هذا المحل المزدهم لكنهم ما إن دخلوه حتى غاصوا وسط الراقصين والراقصات وظل هو - رغم اتقانه لكل الرقصات المعروفة - بعيدا والتقت عيناه بعينيها ذات لحظة وكان وحيدا ، كما كانت هى الأخرى وحيدة وعلى غير العادة وجدها تتقدم منه سائلة إياه إن كان ينتظر أحدا فلما أجابها بالنفى سألته إن كان يمانع فى مراقبتها !! وهكذا التقيا ، ولم يفترقا الا عند مغادرته لانجلترا !!!

.
.

كانت « كاي وولف » فتاة انجليزية تخطت العشرين ببضعة أشهر ،
أبوها رجل من رجال الميناء من ذوى السمعة الطيبة ، والمكانة المرموقة
التي أضفاها عليه تدينه الشديد ، وبعده عن الدنيا . . . ولا يدري
رأفت ما الذى اكتشفته كاي فى شخصه ، كل ما يدريه أنها تعلقت به
فى أيام معدودة الى حد كان يصعب عليها بعده أن تفارقه . . . مكثت
السفينة لوتس فى ليثربول بضعة أسابيع لاجراء إصلاحات ضرورية
تمهيدا لرحلة طويلة الى بومباى بالهند . . . فى تلك الأسابيع وجد رأفت
فى صديقته فرصته المواتية . . . هو لم يحبها رغم جمالها ورقتها وأدبها
الشديد وتفانيها فى تلبية كل ما يطلب وما يريد ، ولقد حاول أن يبادلها
تلك العواطف التي أغرقته بها دون جدوى ، طلبت إليه « كاي » أن
يبقى فى انجلترا ، وبالرغم من أن المجتمع البريطانى كان يعانى فى
تلك الحقبة من تاريخه من أزمات اقتصادية طاحنة بعد خروجه من
الحرب التي دامت ست سنوات ، وبالرغم من أن منحة تأشيرة تسمح
له بالاقامة كان يبدو مستحيلا ، فإنه - مع الحاج « كاي وولف » - راح
يفكر فى الموضوع جديا ، كما راح يخطط له . . . حتى اذا تقرر موعد
إبحار السفينة أصيب الفتى ذات ليلة بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية
استلزم نقله فورا الى المستشفى وإجراء جراحة عاجلة له ، هكذا
أبحرت السفينة بدونه وبقي هو فى المستشفى لعشرة أيام ثم غادرها الى
بيت المستر « ادوارد وولف » والد كاي ! !

قال مستر « وولف » للفتى فى ذلك المساء الأول وقد اجتمعت
العائلة أمام المدفأة انه مسيحي ، وهو سعيد لأن ابنته اخيرا وقعت فى
الحب واختارت فتاها لكنه سيكون أكثر سعادة لو ان الفتى اعتنق
المسيحية !!!

قال رأفت لمحسن ممتاز وهو يصف تلك اللحظات إنه كان يشعر بأن الأرض تميد من تحت قدميه ، فلقد وضع في اعتباره كل الاحتمالات الممكنة وكل الظنون المحتملة ، واستعد لكل شيء وأى شيء الامفاجأة كتلك التي جاءت كضربة فوق الرأس . . . وهو ليلتها لم يجد مايقوله فلزم الصمت ، وعندما طال صمته أشعل الرجل غليونه مخاطباً الفتى :

«ليس مطلوباً منك أن تتخذ قرارك الآن فأنا أعرف أن شيء صعب ولكن . . . وقبل أن تفكر في الأمر ، عليك أن تلتقى بالأب جوشام راعى كنيستنا وأن تجلس إليه !»

ووافق رأفت حتى يعطى نفسه فرصة للتفكير في المآزق الذي وجد نفسه فيه على غير انتظار . كان الآن بلا مأوى ولا مال ولا عمل وفي بلاد غريبة . . . وكان المال الذي يحصل عليه من مكتب وكيل الشرطة لا يكاد يكفيه ثمن الطعام . . . لكنه عندما انفرد بكاي قال لها في وضوح : ان الأمر ليس بالسهولة التي يتخيلونها ، فهو - كمسلم - إن لم يعترف بأن السيد المسيح رسول من عند الله ، فلسوف يصبح إسلامه ناقصاً . . . شرط الاسلام بعد الشهادة ، أن يعترف المسلم بالانبياء والرسل الذين سبقوا محمداً عليه السلام . . . ولكن أن يترك ديننا اقتنع به الى دين آخر ، فهذا هو المستحيل نفسه ، وعليها أن تفهم ذلك !

قالت كاي وولف إن الأمر لا يعنيها ولا يهمها ، بل إنها تفضل أن يظل رأفت على دينه ! . . . فلقد أحبته كما هو ، وهي على استعداد للزواج منه وكل منها على دينه . . . لكن المشكلة تكمن في أن «الأب جوشام» هذا ، هو الشخص الوحيد في ليثربول الذي

يستطيع أن يجد له عملا وأن ينهى مشكلة إقامته في إنجلترا ، بل وأن يحصل له على الجنسية إن أراد !!

وقالت كاي وولف أيضا : إن أباهما - قبل أن يتحدث إليه - ناقش معها المسألة من هذا المنطلق وليس من منطلق آخر ، وأن على رأفت أن يفهم هذا حتى لا يظلم أباهما !

وازدادت -سيرة الفتى وازداد حرجه فلقد كان يقيم في غرفة نائية من بيت مستر وولف ، وكان يعامل كواحد من أفراد الأسرة . . . هاهي عقبة صعبة تقف في طريق انطلاقه وحرية . . . ولقد طال بقاءه في ليثربول لشهور ، والتقى بالأب جوشام مرات ومرات وتحول الأمر بينهما إلى مناظرة . . . واكتشف الفتى أنه يعرف عن دينه الكثير دون أن ينتبه إلى ذلك ، وأنه مقتنع به اقتناعا يفوق قدرته على استمرار المناقشة . . . كان وكأنه يختزن في قلبه كل هذا الايمان العميق ، الذي دفعه بمجرد عودة السفينة لوتس من الهند إلى الصعود إليها بعد أن ودع مستر وولف وزوجته وشكرهما على كل ما قدماه من رعاية وحنان طوال الشهور الماضية ، كما ودع الأب جوشام وداعبه قائلا : ان عليه أن يفكر جديا في اعتناق الإسلام . . . وعندما حانت لحظة الرحيل بكت « كاي » ، بكت وهي تقول انها سوف تظل في انتظاره ، وانها مؤمنة من انه سيعود يوما !

.
.

ياللحنين عندما يتفجر من القلب طوفانا بلا نهاية ، هاهي ذى أرض مصر تلوح في الأفق بعد طول غياب ، يرقب البحارة الذين تجمعوا فوق السطح عندما غدت الأرض ظاهرة وهم يطبلون ويزمرون ويغنون للشوق واللهفة والحب والحنين والحبيب العائد ، يفتحون

الراديو على أغنيات مصر التي طال الشوق اليها ، فلم تكن أذاعة مصر تصل إلى أبعد من الشاطيء ببضعة كيلومترات ، كما يفتحون القلوب على مصاريحها لاستقبال نسائم الأرض الحبيبة . . . وعلى السطح وحيدا بعيدا كان رأفت يبكي بدموع غزيرة ، هاهو ذا يعود الى مصر مسلما كما كان مؤمنا وموحدا بالله ، وعندما وطئت قدماه أرض الوطن ، كان كل ماقاله :

« اشهد أن لا إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ! »

كان عليه قبل أن يستقل القطار الى القاهرة ، أن يذهب الى مكاتب الشركة . . . وهناك وجد له بقية من حساب ، بضع عشرات من الجنيهات ومعها أمر بفصله من الشركة دون إبداء الأسباب !

.
.

كان رأفت وهو يغادر مقر الشركة يحمل في يمينه حقيبة امتلأت بالهدايا ، هدية لذكرى بك ، وأخرى لزوجته ، وثالثة لابنته . . . كما كانت الحقيبة مكدسة بالهدايا لطارق ابن شريفة . . . كم اشتاق اليه ، وكم يهفو لأن يرى شريفة . . . وهاهو يضرب في الاسكندرية على غير هدى ، لمن يذهب في القاهرة وقد عاد عاطلا من جديد ؟ . . . ساقته قدماه إلى طريق الكورنيش ظل يسير ويسير بلا هدف ، ثم التمع في ذهنه خاطر تشبث به ، إن الحياة تحاربه فلم لا يحارب هذه الحياة ! وهكذا طوح رأفت على سليمان الهجان حقيبته المليئة بالهدايا إلى البحر . . . تخلص حتى من أحبابه وعاد أدراجه الى الميناء وكان الآن يعرف طريقه جيدا !!



بعد سبعة أيام بالضبط قضاها رأفت الهجان في واحد من أحط فنادق الثغر دون أن يفكر في الاتصال بأى ممن يعرفهم ، كان يقف على ظهر سفينة فرنسية مبحرة الى مرسيليا . . . على ظهر السفينة التقى بمجموعة من الشباب المصريين الذين كانوا في طريقهم للدراسة في الخارج . . . ولم يعد حيلة - وهو فوق السفينة راكبا من ركابها في الدرجة الثالثة - لأن يكسب عددا لا بأس به من الفرنكات الفرنسية القليلة القيمة في ذلك الوقت . . . في مرسيليا لم يبق سوى بضعة أيام أدرك بعدها أنه لا بد من السفر الى العاصمة . . . في باريس ذرع العاصمة الفرنسية طولا وعرضا واكتشف بعد أيام استحالة البقاء ، كان العرب هناك من الكثرة بحيث يستحيل إضافة واحد جديد ، فوق أن البطالة كانت تنخر في المجتمع الباريسى كالسوس ، ولم تكن فرنسا وحدها بل كل دول أوربا ، وهكذا لم يكن أمامه سوى طريق واحد ، هو العودة الى كاي ، الى ليثربول والى الأب جوشام !!

.
.

أكثر ما حز في نفسه بعد وصوله الى ليثربول أن « كاي » ظنته قد عاد من أجلها ، كانت سعيدة بعودته سعادة تفوق التصور، وكانت على استعداد لأي شيء من أجله . . . وما ان هدأت حرارة اللقاء حتى قال لها بوضوح ودون لف أو دوران ، انه - أبدا - لن يتخلى عن دينه !

قالت كاي وهي تتلاعب بازرار سترته :

« الا تستطيع التظاهر أمام الأب جوشام ؟ ! »

« حتى هذا لا يستطيعه ! »

رفعت اليه عينين متوسلتين فغمغم مبتسما :

« ولكن »

قالها ولزم الصمت مفكرا فاستحثته الفتاة المدلّهة :
« ولكن ؟ ! »

« الاتعنى عودتى شيئا دون الحديث فى الأمر ؟ ! »

برقت فكرته الخبيثة فى ذهنها فابتسمت مستجيبة والتقط هو

ابتسامتها متوسلا :

« كاي . . . انى فى حاجة الى فرصة واحدة اثبت لهم فيها كفاءتى

ولسوف ينسون بعدها مسألة الدين تماما ! »

نظرت اليه كاي فى شك فأردف :

« لقد تناقشت طويلا مع الأب جوشام ، وأعرف يقينا أنه متحمس

للدين المسيحى لكنى أعرف يقينا ياعزيزتى أن أصحاب الشركات

لا يتحمسون الا للمال ! »

كان الفتى مقنعا وكانت هى عند حسن ظنه ، فلعبت دورها بعيدا

عنه ، وهكذا ما إن مضت أيام حتى وجد له الأب جوشام - بتشجيع

من كاي ووعد منها بالذهاب الى الكنيسة صباح كل أحد - عملا فى

إحدى شركات السياحة !

.
.

« من مرسيليا لباريس للندن لليقربول ضحكت على ناس كثير قوى

كان لازم القط رزقى والاقى ثمن اللوكاندة واكل واشرب . . . فى

باريس حسيت أنى ممكن ابقى مليونير بشوية فهلوة، ورغم اللى انا عملته

حسيت ان مش ده اللى نفسى فيه برضه ، كان نفسى اشتغل زى بقية

الناس وابقى محترم وأثبت لاخواتى انهم ظلمونى . . . ويوم ما استلمت

شغلى فى شركة السياحة فى ليقربول كنت عارف ومتأكد إن الأب جوشام

حاييسى حكاية الدين ، واذا افتكرها هو أصحاب الشركة

حائسوها... لانى كنت عارف انى حانجح !! «

هكذا قال رأفت الهجان لمحسن ممتاز وهما يستعدان لتناول طعام الغداء فى ذلك المسكن فوق سطح إحدى عمارات ميدان سليمان باشا... كان الباب قد دق اثناء الحديث وقد انتصف النهار منذ ساعتين ، وعندما فتح رأفت الباب وجد البواب أمامه يحمل لفافه تفوح منها رائحة الشواء :

« الكباب ياخواجه ليشى ! »

ارتد رأفت ببصره نحو محسن الذى أوما إليه أن يأخذ اللفافة ، تناوضا من البواب قائلا :

« حسابك كام ؟ ! »

« ما أنت بعت الفلوس مع الأفندى الى قاعد عندك ده ! »
وابتلع رأفت ارتبائه ، شكر البواب ونفحه خمسة قروش وعاد باللفافة مغمغما :

« هو انت ما بتنساش حاجة أبدا ؟ ! »

وسرعان ما فتحت اللفافة فيما بينهما وكانا جائعين ، فراحا يلتهمان الطعام فى تليذ !!

كانت عاصفة الحزن قد خفت وحل محل الشاب المظلوم فتى آخر راح محسن يرقبه فى انتباه بالغ !

كان أول ما فعله الفتى مع مدير شركة السياحة اقتراحا بأن يحول الى شركته كل المسافرين المصريين ثم يتلوهم بالعرب... كانت شركة «توماس كوك» العالمية ذات النفوذ ، تحتكر- حتى ذلك الوقت- تسفير المبعوثين المصريين واعادتهم الى بلادهم ، ولقد سخر منه مدير الشركة قال : ان «توماس كوك» لها نفوذ وان الأولى به أن يجد طريقا آخر كى

يكسب عيشه فسأله الفتى :

« أعلم كل هذا . . ولكن لم لانحاول ؟ ! »

هز الرجل كتفيه في لامبالاة ، وبدأ رأفت مشواره الأول الى لندن !
في السفارة المصرية بلندن استطاع رأفت الهجان بشخصيته الجذابة
أن يجتذب عواطفهم ثم عقولهم اليه ، كان يعرف كيف يتعامل مع
الناس ومع المصريين بالذات . . . إن تحويل البعثات من توماس كوك
الى شركته سوف يوفر لهم الوف الجنيهات ، كانت وسائل النقل هي
هي، والامكانيات هي هي ، وفوق هذا فلسوف يدفعون أقل مما يدفعونه
لتوماس كوك !

مع جاذبية الفتى ولباقته واسلوبه الفريد في الاقناع ، كانت هناك
الوطنية المصرية التي دفعت المسؤولين في السفارة الى مساعدة فتى
مصرى يبنى مستقبله في بلاد الانجليز . . . وعلى كل فلم يلبث الفتى
في لندن سوى بضعة أيام عاد بعدها الى ليثربول وقد عقد صفقة كان
نصيبه فيها - وحده - الفين من الجنيهات الاسترلينية !

ولقد كانت « كاي وولف » هي أكثر الناس سعادة ، ليس فقط لأن
فتاها عقد صفقة هامة واثبت كفاءته ، بل ايضا لأن الأب جوشام نسى
مسألة الدين تماما . . . واذا كان النجاح يجلب نجاحا أكبر ، فلقد راح
الفتى يضرب في كل اتجاه ، وازدهرت أعمال الشركة ازدهارا جعل
طموح الفتى يمتد الى بعيد ، الى الشاطئ الأخر من المحيط ، الى
الولايات المتحدة الأمريكية ! . . . إنه هناك يستطيع أن يعقد للشركة
صفقات سياحية تدر عليها أرباحا لاشك فيها ، وعندما عرض رأفت
فكرته الطموح على مدير الشركة كان ينتظر أى شىء الا أن يوافق

الرجل فورا ودون مناقشة ، ولقد كان الأمر مفاجأة بالنسبة اليه ، لكنه كان سعيدا... ان له في الشركة حسابا وصل الى خمسة الآف جنيه استرليني لم يأخذ منها سوى ألف فقط ، اعطاه الرجل تذكرة على احدى طائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية طار بها رأفت الى نيويورك فخورا بنفسه ، فها هو يعبر المحيط الى الدنيا الجديدة ، ودعته « كاي » في المطار على وعد باللقاء بعد أسابيع لن تطول ، لكنه لم يكن يعرف وهو يودعها أن هذه هي آخر مرة تقع فيها عيناه عليها !

ذلك أنه ما ان دخل مكتب الشركة في نيويورك وقدم نفسه للمدير الأمريكى حتى كانت مفاجاه في انتظاره ، كان في انتظاره أمر بالفصل من الشركة بحجة أنه سرق تذكرة الطائرة !!!

ولم يصدم الفتى هذه المرة ، أدرك على الفور سر ترحيب المدير الشديد بفكرته الطموح ، غادر مكتب الشركة الى شوارع نيويورك وقد أدرك أنهم استولوا على الاربعة الاف جنيه استرليني وانهم ارادوا أن يوفروا عمولته من الصفقات التى عقدها بالفعل كما أدرك أنه لا يستطيع شيئا والمحيط يفصل بينه وبينهم !

كالفار المدعور راح يخوض في شوارع نيويورك وحواريها وأزقتها ودرومها وأحيائها الدنيا ، هو الآن مهدد بجريمة لم يرتكبها ، راح يتحرك بحذر وكانت أمواله تنفذ يوما بعد يوم... ثم عاد الى المحاولة من جديد حتى استطاع أن يجد لنفسه عملا في إحدى شركات السياحة التى أصبح خبيرا بأعمالها ، واستطاع بما له موهبة ودراية أن يحقق نجاحا جعلهم يثقون فيه حتى اذا طلب إليهم اعطاءه شيكات سياحية بمبالغ من المال تسهل له عمله على أن يرد المبالغ مرة أخرى ، اعطوه ماطلب

ورد لهم المال بعد بضعة أيام ، ثم طلب شيكات أخرى بمبالغ أكبر، ثم رد المبالغ ثم طلب شيكات بمبلغ خمسة آلاف دولار صرفها كلها دفعة واحدة وطار الى كندا !!

لكنه لم يمكث في كندا طويلا ، كان يعرف الآن أن التهمة أصبحت تهمتين ، وأنه في مونتريال ليس بعيدا عن ايدى الشرطة الامريكية ، وسرعان ماتفتق ذهنه عن حيلة . . . أودع الخمسة آلاف دولار في أحد البنوك الشهيرة ثم طلب دفتر شيكات . . . وكان النظام المعمول به في تلك الأيام هو طبع المبلغ المودع على دفتر الشيكات وهكذا لم تمر أيام قليلة حتى سحب المبلغ كله بشيك واحد وبقي معه دفتر الشيكات الذى يؤكد أن رصيده في هذا البنك الشهير هو خمسة آلاف دولار . . . ثم طار الى أوروبا !!

كانت أوروبا في تلك السنوات لاتزال تتغذى على مشروع مارشال الشهير ، وكان للدولار الامريكى فى كل دول أوروبا قيمة بالنسبة للعملات المحلية . . . هبطت به الطائرة فى باريس وكانت هذه المرة الثانية التى يزور فيها العاصمة الفرنسية . . . ولم يكن صعبا عليه أن يتحرك فى حذر فهو مطلوب من شرطة بريطانيا وشرطة الولايات المتحدة ، وهكذا راح يعرض على البعض أن يعطيهم شيكا بمبلغ ما من الدورات وان يقبض ثلث قيمة الشيك بالفرنك الفرنسى على ان يحصل على الثلثين بعد صرف الشيك ، وما ان يأخذ المال حتى يذوب ، ينتقل من بلد الى بلد ومن دولة الى أخرى ، ومن فرنسا الى هولندا الى بلجيكا الى المانيا . . . وكان - اذا ما أعيتته الحيلة - دخل ناديا للقفاز كى يتحين فرصة يدرسها جيدا ، حتى اذا حانت ألقى على المائدة

بمبلغ من الدولارات كى يخسره فى لامبالاة ويمضى ، وهو يعلم أن هناك من يسيل لعابهم للدولارات الأمريكية وانهم لابد سوف يتبعونه ، فلا يفعل أكثر من أن يعرض عليهم شيكا بمبلغ ما على أن يأخذ ثلثه بالعملة المحلية ثم يتسلم الباقي عندما يصرف الشيك وهكذا ، يكتب الشيك ويستولى على المال . . . و . . . ويزوب !! !

ولقد كان لابد من نهاية لهذا الطواف !

وجاءت النهاية فى مدينة فرانكفورت الألمانية عندما اعترضت طريقه فتاة راحت تنصب شباكها من حوله . . . من النظرة الأولى عرف ماتريد ومن هى ، كان قد أصبح الآن أفقا مجربا مؤمنا أن الفتاة انها تحوم من حوله طمعا فى ماله المزعوم ، جاراها ساخرا لكنه فى صباح اليوم التالى وجدها قد تبخرت ومعها جواز سفره ودفتر الشيكات معا !!

لم تكن الكارثة فى دفتر الشيكات بل فى جواز السفر الذى كان قد استخرجه قبل اسبوع بعد أن انتهت مدة جواز سفره القديم ، وكانت تجارة جوازات السفر فى تلك الأيام منتشرة فى المانيا بالذات ، حيث كان النازيون القدامى يحاولون الحصول على جوازات سفر أجنبية تخفى شخصياتهم . . . وعندما ذهب الى القنصلية مطالباً بجواز سفر جديد رفض القنصل واتهمه بأنه باع جوازه الجديد !

وجد رأفت الهجان نفسه فى مأزق كان يضيق من حوله يوماً بعد يوم ، ولم يكن أمامه سوى العودة الى مصر من جديد ولكن . . . من أين له بثمان التذكرة ؟ ! . . . ولقد ظل يبذل المحاولات حتى وافقت شركة الطيران الهولندية على أن تصرف له تذكرة اذا مادفع ثمنها فى القاهرة ، وهكذا أبرق الى أخية كى يدفع عنه ثمن تذكرة العودة ثم

جلس ينتظر .

في كل يوم يذهب رأفت المهجان الى مكتب شركة الطيران سائلا عن رد من القاهرة دون جدوى ، ومرت الأيام وكانت حالته تسوء ، حتى اذا ذهب ذات صباح يسأل ان كان هناك رد من القاهرة طلبوا إليه الانتظار قليلا فاستبشر خيرا ، مضت دقائق جاءت بعدها الشرطة كي تقبض عليه بتهمة سرقة تذكرة طائرة من مكتب السياحة الذي كان يعمل فيه في ليثربول !

في فرانكفورت دخل السجن لأول مرة ، مكث فيه ثلاثة أشهر ثم حوكم وحكم عليه بالبراءة لعدم كفاية الأدلة . . . ولم يكن هذا مهما ، كان المهم أن المحكمة أمرت بترحيله الى بلاده !!!

.
.

في مصر كانت كل الأبواب موصدة في وجهه حتى باب شريفة ، فلقد صارحه زوجها اليوزباشى - نقيب - محمد رفيق - لم يكن قد أصبح صاغا بعد - ان حضوره الى البيت أمر غير مرغوب فيه ، هكذا بوضوح ودون لف أو دوران أو اعتبار لدموع شريفة أو توسلات طارق الصغير . . . كانت ثورة ٢٣ يوليو قد قامت في ذلك الوقت وعرف رأفت أن الشرطة تبحث عنه لسبب لا يدرىه ، وهكذا . . . وجه نفسه يدخل مع الدنيا في صراع جديد !

ذات يوم التقى بشاب فرنسى اسمه « دانييل مارتان » جاء الى مصر في زيارة علمية للاثار ، واستطاع أن يصحبه في إحدى جولاته ثم سرق

جواز سفره ، ولم يكن صعبا عليه أن يغير الصورة ويزور الختم ، وهكذا وضع صورته بدلا من صورة الشاب ، ونزل في أحد الفنادق الكبرى لبضعة أيام استولى فيها على جواز سفر جديد ثم اختفى ليظهر في فندق آخر بجواز سفر آخر وباسم آخر . . . ولا يذكر الفتى كم مرة لعب فيها هذه اللعبة ، لكنه اعترف بوضوح انه لعبها كثيرا وأنه برع في تغيير الصورة وتزوير الاختام . . . حتى اذا وقع في يده ذات يوم جواز سفر باسم « أحمد العلايلي » غير الصورة وزور الختم وسافر الى بورسعيد !

كان حنينه إلى الحياة المستقيمة يعاوده ، وفي بورسعيد التحق بعمل في إحدى الشركات تحت اسم أحمد العلايلي ، وما ان مضى شهران حتى طلب إليه صاحب الشركة ان يستعد لاستقبال عميل هام من عملائه وهو اسماعيل بك شوكت . . . ما إن سمع رأفت هذا الاسم حتى هرول الى بيته ، جمع أشياء كلها وركب القطار عائدا الى القاهرة . . . فلم يكن شوكت بك هذا سوى زوج خالته !

باسم أحمد العلايلي نزل في أحد فنادق القاهرة والتقى في الفندق بفتاة أمريكية ، تدعى « جوان برات » ، ما ان مضى يومان حتى هامت به الفتاة ، لكنه لم يكن يريد هيامها بل جواز سفرها الذي استولى عليه وغير صورتها بصورته وبدل اسمها من جوان الى جوني وغادر مصر عن طريق ليبيا .

لم يكن يعرف الى أين هو ذاهب ، في الطريق الى بنى غازى كان يتنقل من سيارة الى أخرى بطريقة الاتوستوب ، وكثيرا ما كان يقطع الأميال في الصحراء وتحت لهيب الشمس سيرا على الأقدام حتى حملته سيارة الى بنى غازى ، وهناك توقفت أمام نقطة تفتيش انجليزية ، وما

ان طلب إليه الجندي جواز سفره حتى قدمه له في لامبالاة وثقة دون أن ينتبه الى أن العرق كان قد أفسد الجواز وكشف التزوير وخلع الصورة من مكانها ، وكان طبيعيا أن يلقوا القبض عليه فادعى أن اسمه « ليفى كوهين »، وأنه يهودى هارب من الثورة المصرية . . . ولأنه كان يتقن الانجليزية كاحد أبنائها ، فلقد شكت السلطات البريطانية في أمره ، ظنوه واحداً من جنود الامبراطورية الذين فروا أثناء الحرب وكان هذا شائعا في تلك الأيام ، وعندما اخذوا بصماته وارسلوها الى الشرطة الدولية « الانتربول » ، وحتى وعادت الأوراق لتقول إنه مصرى وإن اسمه « رأفت الهجان » !

وهكذا أعيد الفتى الى مصر من جديد !!!

لكنه لم يستسلم . . . فما ان وصل الى الاسكندرية حتى راح يصيح ويهدد ويؤكد أنه أمريكى وأنه يريد القنصل فورا . . . كانت الأوراق التى عاد بها من ليبيا تقول إنه مصرى اسمه رأفت ، وان له اسما آخر يهوديا هو « ليفى كوهين » ، وشاع في القسم اسمه اليهودى كما شاع انه يحمل جواز سفر أمريكى باسم جونى برات . . . فى السجن التقى بيهودى آخر اسمه « افرایم سلومون » راح يرقبه من بعيد حتى تحين الفرصة ، وما ان حانت الفرصة حتى اقترب منه سائلا إياه عن يكون . . . فاذا برأفت ينهره همسا ويحدثه فى فرنسية ذات لكنه من تلك التى كان يتحدث بها يهود مصر فى تلك الأيام ، قال :

« لاتتحدث كثيرا . . . الحيطان لها ودان ! »

كان الجزء الأول من الجملة بالفرنسية والجزء الثانى بالعربية ، هكذا كان يهود مصر يتحدثون فى الغالب الأعم ، التصق به « افرایم سلومون » سائلا إياه عن المشكلة فنهره بالفرنسية :

« ليست هناك مشكلة ! »

ثم أردف بالعربية :

« دول مغفلين ! ! »

وسقط أفرايم سلومون في حبائل رأفت ، صدق أنه يهودى وأدرك انه يلعب دورا عظيما وسريا لمصلحة الجالية اليهودية ولمصلحة اسرائيل ! غير أن شكوك رجال الشرطة في الاسكندرية تزايدت عندما لم يصلوا الى حقيقته فقررروا ترحيله الى القاهرة !!



ساد الصمت وراح محسن يرقب رأفت وقد تهدجت أنفاسه ، كان يلهث وكأنه أزاح من فوق كاهله عبئا هائلا . . . بدأ الفتى شاحبا ذلك الشحوب الناتج عن الانفعال الشديد ، كان يبدو غاضبا وكأنه يعيش هذا الذى يحكيه وهو يحكيه ، القى برأسه الى الخلف وراح يحملق فى السقف داريلا ، احترم محسن صمته فلم ينطق حتى قفز الفتى فجأة وهو يصيح فى غضب :

« مايمنيش ! »

كان الفتى يتحدث إلى نفسه فابتسم محسن متسائلا :

« هو ايه اللى مايمكش ؟ ! »

« مايمنيش انك تصدقنى ! »

رفع محسن حاجبيه دهشة فاردف الفتى :

« اشمعنى انت اللى حاتصدقنى ؟ ! »

سأله محسن مغيرا مجرى الحديث :

« انت فاكر الراجل اليهودى اللى اسمه افرايم سلومون ده ؟ ! »

« طبعا فاكر شكله ! »

« كان مقبوض عليه ليه ؟ ! »

« ما اعرفش ! »

حاول رأفت أن يتذكر ، لكنه فشل :

« أنا في الحقيقة قلت اللي قلته علشان أخوفه منى وابعده عنى ! »

« يعنى هو يعرف ان اسمك الحقيقى مش ليثى كوهين ؟ ! »

« ده اللي انا قلته له ! »

عاد الصمت يخيم عليهما من جديد كان قلب محسن ممتاز يرقص

الآن طربا ... فها هو القدر يؤازره ويضع - بمصادفة غير مقصودة -

بذرة للهدف الأسمى الذى يريد له هذا الفتى الذى مالبت أن قال :

« أدينى قلت لك كل حاجة، مش حاتقول لى بقى أنت مين ؟ ! »

نهض اليه محسن استعدادا للانصراف :

« عاوز تعرف ايه ؟ ! »

« على الاقل اعرف انت اسمك ايه ؟ ! »

« محسن »

صاح الفتى :

« البلد فيها خمسة مليون محسن وحسن وحسين وحسان يابيه ! »

ضحك محسن قائلا :

« اسمى محسن ممتاز ! »

« كسبنا صلاة النبى ! »

« عاوز تعرف ايه تانى ؟ ! »

« يابيه فهمنى ايه الحكاية ، كفاية علىّ اللي حصل أنا مش ناقص ! »

ربت محسن على كتفه فى ود متسائلا :

« مانفسكش تاخذ اجازة ؟ ! »

« من الاجازة اللي أنا فيها ؟ ! »

« مانفسكش تتفسح ؟ ! »

« نفسى اشوف شريفة وطارق ! »

« بلاش دلوقت ! ! »

« هيه ؟ ! »

« مش لازم تروح لاختواتك الا وانت ملو هدومك ياليقى ! »

« حاتشغلنى يابيه ؟ ! »

أخرج محسن من جيبه ورقة من فئة العشرة جنيهات قدمها اليه

قائلا :

« خذ العشرة جنية دى وقدامك ثلاث أيام تتفسح فيهم زى ما أنت

عاوز ! »

« ليه ده كله ؟ ! »

« اوعى تنسى إن اسمك ليقى كوهين ! »

« ولا يهملك »

« واذا صادف وقابلت افرام سلومون ده ، خليه يعرف إن ده مش

اسمك الحقيقى برضه ! »

« واذا سألتنى عن اسمى الحقيقى ؟ ! »

« ماتقولوش حاجة الا لما أقول لك أنا ! »

قال محسن هذا وهو يخطو نحو الباب مستطردا :

« واشوفك يوم الخميس الساعة عشرة الصبح ان شاء الله ! »

هتف رأفت :

« واذا احتجت لك ؟ ! »

« حاتلقانى جنبك ! ! »

قال محسن هذا وانصرف !!!





بدت السيدة هيلين سمحون متعبة ، كانت الساعة تشرف على الرابعة عندما توقف عزيز الجبالي عن الحديث وكان هو الآخر يبدو منهكا ، لم يطل الصمت بينهما فلقد قالت هيلين :

« لقد تجشمت من أجلى عناء عظيما ! »

« إن هذا دين فى اعناقنا لذيقيدا ! »

« تقصد رأفت ؟ ! »

التفت عزيز نحوها وقد اجتاحت ملامحه سعادة جارفة ، وعادت

هيلين تقول :

« أشعر وكأني تسلقت جبلا شاهقا ! »

« أمازلت تريدين معرفة الحقيقة ؟ ! »

« أكثر من ذى قبل ! »

قالت هذا وهى تنهض فنهض عزيز قائلا :

« اذن فالى اللقاء غدا »

وودعها عزيز الجبالي حتى باب السيارة التى كانت تقف أمام المدخل الخاص لكبار الزوار فى مبنى جهاز المخابرات العامة المصرية ، وعندما كانت السيارة السوداء الألمانية الصنع تجتاز البوابة الخارجية لمبنى الجهاز ، كان عزيز الجبالي يعود مهرولا الى مكتبه وهو ينظر فى ساعة يده ، فلقد كان وراءه الكثير مما كان عليه أن ينجزه ! !

الفصل الثامن

ياكوف بنيامين حنايا

عاود هيلين سمحون ذلك الإحساس الملح بأنها تعيش حلماً غربياً
لن تلبث أن تستيقظ منه وتستعيده في دهشة . . . أو أنها تعلب دوراً في
فيلم مثير لاصلة له بالواقع الذي عاشته وتعيشه . . . كانت - عندما
غادرت تلك الغرفة المتواضعة الأثاث في مبنى جهاز المخابرات العامة
المصرية - قد التقت بالضابط حسين شكرى الذى لازمها في الطائرة من
براغ حتى القاهرة ، ثم قدم لها نفسه في السيارة الميكروباس التابعة
لشركة مصر للطيران ، والتي حملتها إلى تلك السيارة السوداء اللون
الألمانية الصنع ، ثم جاء بها من تلك القيللا الهادئة بضاحية
هليوبوليس الى هذا الجهاز الذى احتوتها جدرانها منذ الصباح ، فاذا
هى في دوامة عنيفة تتصارع فيها الأفكار والانفعالات ، حتى قبيل
غروب الشمس من ذلك اليوم من أيام يناير ١٩٧٩ .

لم تكن الجولة التي قامت بها مع عزيز الجبالي ، عبر التاريخ القريب لشعب من شعوب الأرض هو الشعب المصري ، هينة عليها . . . وبرغم كثرة المعلومات ، وكثافة الشحنات العاطفية ، بقدر ما كان هذه الكثرة والكثافة من ضغط عنيف على أعصابها!!!

في داخلها عشرات من الاسئلة ، وعشرات من الاحاسيس المتضاربة والمتشاحنة . . . فلقد كانت تعرف هذا الفتى الذي كان يتحدث عنه عزيز الجبالي . . . في بعض الأحيان كانت تستمع اليه فتستغرق معه فيما يروييه من أحداث وتنسى تماماً من هو هذا الفتى ، فكأنها تقرأ قصة أنستها أحداثها الغريبة كل شيء ، وفي لحظة أخرى تتذكر أن هذا الفتى هو « ديفيد » . . . حبيبها وزوجها فتصاب بما يشبه الصاعقة!!!

الاستماع إلى الاحداث أو قراءتها في كتاب أو مشاهدتها في فيلم شيء ، ومعرفة البطل شيء آخر . . . أنت تشاهد فيلماً تشترك أحداثه ، تنفعل معها ، وتضطرب ، ويداخلك الخوف وأنت في مقعدك وربما الرعب أيضاً ، لكنك في النهاية تستشعر نوعاً خفياً من اللذة ، هي لذة إحساسك بأن هذا كله غير حقيقى . . . ثم أنت تقرأ قصة فتهزك سطورها هزاً ، وقد تضحك مع الكلمات ، وقد تبكيك الأحداث ، لكنك عندما تغلق الكتاب تشعر بفيض من الراحة يداخلك ، ولا بد لك - مهما كانت المأساة الكامنة في السطور وفيها بينها - من أن تبتمس وتثنى على الكاتب وتشيد بالعمل . . . ولكن ، أن تستمع الى كل هذه الاحداث ، أو تقرأها ، أو تشاهدها وأنت موقن أنها حقيقية ، بل إن بطلها كان صديقك أو أخاك أو زوجك . . . فهنا تكمن المأساة ، وهذا ما كان عليها أن تستوعبه كما ينبغي أن يكون الاستيعاب جاءت

عليها لحظات أحست فيها بذلك الاحساس الغيبي بأن ديفيد أو رأفت أو دانييل أو جوني أو أيا ما كان الاسم الذي تسمى به ذلك الرجل الذي أحبته وتزوجته وأنجبت منه ثم مات . . . موجود معها !!

في لحظات بعينها كانت تكاد تشعر بأنفاسه تملأ الغرفة من حولها وحول عزيز ، ولكم تمت . . . كم تمت من أعماق القلب ألا يكون هذا مجرد إحساس ، وأن يعود ديفيد إلى الحياة مرة أخرى . . . فقط ، كي تأخذ برأسه فوق صدرها ، وأن تربت على شعره الناعم ، وأن ترضعه حنانا افتقده وحرماً منه بقسوة . . . ولكن هيهات !!

لقد مات ديفيد ، مات رأفت بين ذراعيها منذ ما يقرب من شهرين ، وهي تشعر الآن برغبة عارمة في أن تنفرد بنفسها ، أن تغوص حتى أعماق ذكرياتها عنه ومعه ، أن تعود إلى السباحة في بحره مرة أخرى . . . فهي الآن ، تعلم يقيناً أن كل هذا الذي سمعته لم يكن سوى مقدمة لحياة محفوفة بالأسى والحرمان والمخاطر جميعاً !!

ألقت ببصرها عبر نافذة السيارة إلى طرقات القاهرة وقد هبط عليها الظلام وأضيئت الأنوار ، كانت السيارة تزحف في ببطء وسط زحام الطريق ، على يسارها كان يجلس حسين شكرى صامتاً في احترام عميق لصمتها . . . كان قد حاول - عندما غادرت تلك الغرفة المتواضعة الأثاث مع عزيز الجبالي - أن يشيع المرح من حولها ، فصاح مازحاً فور رؤيته لها وكأنه ينبهها إلى أن أفكارها تنعكس على صفحة وجهها :

« فراو سمحون . . . ما الذي فعله بك هذا الرجل ؟ »

« لقد تجشم من أجلى عناء كثيراً »

قالت هذا فلزم حسين شكرى الصمت ، كان ردها صلباً

كصخرة ، وكانت تعلم الآن أن طبيعتها الألمانية الجافة قد عاودتها بعنف . . . في الطريق إلى تلك الفيلا التي اختارها المصريون مقراً لها ، سأها حسين شكرى في رقة غير مصطنعة :
« كيف تريدان أن تقضى المساء ؟ »

« وحدي »

كانت الكلمة كالطلقة ، لكنه لم يستسلم :

« في القاهرة أماكن متميزة لتناول العشاء »

« ليس الليلة هر شكرى . . . ليس الليلة »

وهكذا انتهى الحوار ، وهكذا استقبلت فتيات الفيلا بوجه مجهد فاحطنها برعاية فاقت قدرتها على الاحتمال . . . فطلبت إليهن في رجاء أن يتركنها وحدها . . . بدلت ملابسها وتناولت عشاء خفيفاً وتبادلت مع عزيزة - فتاة الفيلا الخمرية المليحة التقاطيع المجيدة للغة الألمانية - حديثاً قصيراً ، تركتها الفتاة بعده لأفكارها . . . وهكذا جلست في الشرفة المطلة على تلك الحديقة الصغيرة - ورغم برودة الجو الشديدة - وفي ذهنها يدور سؤال بدا لها محيراً :

لقد عانى ديفيد - أو رأفت - كل هذا الذي عاناه من وطنه . . .

عانى الجحود من أهله ، والخبث من قوم آذوه دون ذنب جناه ، دفعوه إلى التشرد فتشرد ، دفعوه إلى اليأس فاحتال ، غاضبوه فغضب منهم وهجرهم ، هجر الوطن كله . . . ولكن ، ما ان نادته مصر ، حتى حمل رأسه فوق كفه من أجلها ، وحتى نهاية عمره ، وعاش حياة محفوفة بالموت في كل لحظة من لحظاتها ، وكان - عندما التقت به - راضياً ، سعيداً ، يحمل الحنين كله إلى هذا الوطن . . . الآن ، الآن فقط تستطيع هيلين سمحون أن تفهم ذلك الحنين الدافق إلى القاهرة ، إلى



مصر . . .

مصر؟! !

ماهى مصر تلك التى يجبها أبنائها الى حد الموت ، رغم قسوتها البالغة
على بعضهم؟

وحتى صباح اليوم التالى ، لم تكن هيلين سمحون قد نامت سوى
ساعات جد قليلة ، ولم تكن بعد قد توصلت إلى جواب

.
.

أما عزيز الجبالى فلقد كان فى صباح اليوم التالى بادى الاجهاد . . .
قضى جزءا كبيرا من الليل فى عمل متواصل الزمه مكتبه . . . وعندما
أوى إلى فراشة ، شعر وكأن عظامه قد تحطمت تحت وطأة ثقل لاقبل
له به . . . اكثر ماكان يظنيه ، هو ذلك الانفصال المفروض عليه وهو
يحكى لهيلين سمحون - أو حرم المرحوم رأفت الهجان - قصة زوجها
الراحل . . . كان يحكى لها « مايجب » عليه أن يحكيه ، لكن الحقائق
كانت تفرض نفسها عليه فرضاً . . . كان لسانه يقول بحساب ،
وعقله يجمع بلا حساب ، هذا تاريخ عاشه وعاشه ، هذا جزء من
وطنه ، جزء قدر له برغم كل شىء الا يرى النور أبداً - هكذا كان
يقدر - وجزء آخر كان يخرج من بين شفثيه من ثقوب مصفاة شديدة
الضيقة . . . لكنه ، وعندما سمع آذان الفجر يسرى فى سماء القاهرة ،
تقلب فى فراشة وهو يغمغم :

هذا دين فى عنق مصر لرأفت الهجان ، ولن يؤديه غيرى!!

.
.

عندما التقى عزيز بهيلين في صباح اليوم التالي ، حاول كل منهما الابتسام في وجه الآخر ، لكن ملاحظتهما كانت تصرخ بأن أيا منهما لم يعرف للنوم طعماً في الليلة التي مضت الا لحظات خاطفة ، فهي : كانت تتلهف لسماع القصة . . . وهو كان يضع على لسانه ألف قيد وقيد !!



قال الفتى فيما بعد ، إنه لم يترك نفسه للحيرة بعد أن غادره محسن ممتاز في ذلك اليوم طالباً إليه أن يأخذ إجازة ثلاثة أيام . . . ذلك أنه كان موقناً بأن محسن لن يكون إلا ضابطاً من ضباط المباحث الذين تخصصوا في التعامل مع يهود مصر ، بعد أن تزايد نشاطهم في تهريب أموالهم من البلاد ، بالرغم من أن أحداً من المصريين - حتى بعد حرب ١٩٤٨ - لم يربط بينهم وبين إسرائيل ، ولم يتعامل معهم معاملة تختلف عن أي مواطن مسلم أو مسيحي .

حقاً كان محسن يبدو مختلفاً عن كل ضباط الشرطة الذين عرفهم وخبرهم ونحبر أساليبهم ، لكنه اختلاف أرجعه الى طبيعة محسن نفسه لا إلى طبيعة عمله . . . ولقد علمته الأيام أن اصابع اليد الواحدة لا تشابه ، فهو لم يكن في حاجة الى أن يفكر أو يقدر ذهنه لأن الأمور بدت له شديدة الوضوح . . . ولقد كان السؤال الذي طرحه على نفسه في البداية هو : ما الذي يريده منه ضابط مثل محسن ممتاز ؟ ! . . . وكانت الاجابة النهائية - بعد أن قلب الفتى الأمر على كل وجوهه - ان محسن لا يمكن أن يطلب أكثر من نقل أخبار هؤلاء المهربين إليه . . . أما السؤال الذي طرحه على نفسه ولم يجد له إجابة فكان : هل يحتاج الأمر - أمر نقل أخبار اليهود - إلى كل هذه الاحتياطات ، وكل هذا

التبكتم ، وكل هذا التنبيه على عدم الافصاح عن اسمه الحقيقي المزعوم ؟ ! ...

لم يجد الفتى إجابة عن السؤال فنحاه جانبا ، لا إهمالاً منه ، ولكن لأنه وجد أنه لن يخسر كثيراً . . . فهو - بداية - قد تحول من مطارذ - بفتح الراء - الى مطارذ - بكسر الراء - وهو أخيراً قد أمن شر التشرد ، ثم انه عندما سأل محسن إن كان سيجد له عملاً ، كانت إجابة الرجل صامته حقاً ، لكنه صمت كان يعد بالكثير !

كل هذه العناصر كانت عناصر ربح من وجهة نظره ، في الوقت الذي وجد فيه أن الأمر لن يكلفه كثيراً من المشقة ، فلقد تعود على انتحال الشخصيات ، واتفق هذا الانتحال الى حد أنه كان يعيش أحياناً بالشهور على أنه مسيحي فلا يخطيء مرة ، وعلى أنه يهودى فلا يكشف أمره ابداً . . . فالأمر كان بالنسبة إليه سهلاً ، وهكذا . . . ما إن غادره محسن في ذلك اليوم حتى استعد ومعه ما يقرب من العشرين جنيهاً ، كى يقضى ثلاثة أيام في نزهة حقيقية وراحة بال طال الشوق إليها . . . و . . . و . . . ودون خوف من مطاردة ، وكان هذا هو أهم ما في الأمر !!

ولقد كان رأفت الهجان على حق في تفكيره تماماً ، ذلك أن أحداً في مصر في تلك السنوات لم يكن يعرف شيئاً أو جهازاً اسمه « المخابرات » ، ولم يكن في مصر جهاز بهذا الاسم . . . وبالرغم من أن القاهرة كانت مسرحاً لعمليات تجسس لا يستهان بها إبان الحرب العالمية الثانية وفي السنوات التي تلتها . . . ففي اثناء الحرب العالمية الثانية - على سبيل المثال - ذاعت قصة هانز إبلر وحكمت فهمى ، كما كانت الشائعات حول الدور الذي لعبته المطربة العربية البللورية

الصوت « اسمهان » مع الحلفاء ، تملأ سماء القاهرة ومنتدياتها ، بل وفي الاحاديث العابرة والعادية بين المواطنين . . . وما أن انتهت الحرب حتى ظهر دور الجماعات الصهيونية ، وكان اغتيال اللورد « موين » وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الاوسط قبل انتهاء الحرب بما يقرب من عام - وبالتحديد فى عام ١٩٤٤ - نذيراً بأن لليهود تنظيمات سرية وشبكات تجسس لا يستهان بها فى مصر . . . وبالرغم من هذا ، فإن أحداً من حكام مصر فى تلك الفترة العصبية التى كانت تغلى بالأحداث ، لم يفكر ، بل ربما كان الأصح انه لم يفهم ، أهمية وجود جهاز للمخابرات يحمى الدولة . . . أما نشاط التجسس هذا ، فلقد كان يتولاه فى وزارة الداخلية قسم كان يطلق عليه اسم « القلم السياسى » أو « القسم المخصوص » !

.
.

وبينما كان رأفت الهجان يجوب القاهرة طولا وعرضاً فى استمتاع طال البعد عنه ، يرتاد دور السينما والمسرح ، ويقضى يوماً تحت سفح الهرم الأكبر ، ويوماً فى حديقة الحيوان ، وقد استعاد ذلك الاحساس الغامر بالأمن الذى جعله يتحرك بلا خوف ولا حذر . . . كان محسن ممتاز غارقاً لأذنيه فى مهمة بدت له شديدة الصعوبة والتعقيد !

كانت المهمة هى إيجاد تاريخ للفتى ، ونخلق ماض له !
وصعوبة هذه المهمة وتعقيدها كانا يكمنان فى أن اليهود فى كل الدنيا - لافى مصر وحدها - كانوا مجتمعات مغلقة يطلق عليها فى العالم كله اسم « جيتو » ، وفى مصر اسم « حارة اليهود » ، وفى بعض البلدان العربية اسم « حى الملاح » . . . وكانوا بالتالى - أو فى

الغالب - يعرفون بعضهم البعض . . . وكانت الجالية اليهودية في مصر بالذات ، تمتد شرائحها الاجتماعية من الذروة حتى القاع . . . لكنهم كانوا يعرفون بعضهم البعض خاصة تلك العائلات الكبيرة والغنية الشهيرة ، تلك العائلات التي كان على محسن أن يتجنب البحث فيها عن « أصل » للفتى . . . كان عليه - مرغماً - أن يحرص بحثه في العائلات المتوسطة او الدنيا ! !

ذلك أنه إذا ما أراد أن يزرع الفتى في قلب اسرائيل ، وأن يرسل به إلى هناك كى يعيش كاسرائيلي لحمياً ودمياً ، فلسوف يصبح عليه بداية أن يجد له « أصلاً » اسرائيلياً يصعب اكتشافه ، إن لم يكن من المستحيل اكتشافه . . . كانت الكتب التي وصلت إلى يديه ، وقصص « الطابور الخامس » الألمانى بالذات ، قد أمدته بالكثير مما يحتاج إليه في مهمة كهذه . . . وهكذا وجد محسن ممتاز نفسه أمام مأزق آخر . . .

لأنه لو أراد رد الفتى الى « أصل » من الأصول اليهودية التي تعيش في مصر ، أو كانت تعيش في مصر حتى وقت قريب ، فلسوف يجد الفتى بالقطع من يعرف هذا « الأصل » فينكشف أمره ، وكان لا بد أن ينحصر بحثه في تلك « الأصول » التي غادرت مصر منذ زمن طويل ، والتي اندثرت أو كادت ذكرها أن تندثر !

كان المجتمع اليهودى مازال - حتى ذلك العام وفيما تلاه من أعوام وحتى عدوان ١٩٥٦ - يعيش أفراده حياتهم الاجتماعية والاقتصادية بحرية كاملة . . . كانت هناك تجمعات لليهود في المقاهى والبارات والنوادي ، بل كان هناك ناد رياضى اسمه «نادى المكابى» خاص بأبناء الجالية اليهودية الذين كانوا يملكون واحدة من أقوى فرق كرة السلة في مصر . . . وكان من أعضاء هذا النادى ملاكم يهودى مشهور

هو « رورو هرارى » ، كما كان هناك مقهى « ماتاتيا » الذى كان يضم تجمعات من شرائح شتى فى المجتمع المصرى ، من الصحافة إلى الأدب ، إلى الفكر إلى الاقتصاد والتجارة ، إلى السياسة . . . إلى . . . إلى اليهود الذى كان لهم ركن - كبقية الشرائح - شهير فى هذا المقهى . . . ثم المعابد اليهودية فى القاهرة والاسكندرية . . . ثم . . . ثم اذا كانت المصادفة قد لعبت دورها لصالح محسن عندما ادعى الفتى وهو فى الاسكندرية ، أمام يهودى آخر هو « افرائيم سلومون » ان اسم « ليثى كوهين » ليس اسمه الحقيقى ، فلا بد ان يلتقى به السيد سلومون هذا ذات يوم ، ثم لابد ان يسأله احدهم - سراً بالطبع - عن اسمه الحقيقى ، وهو اسم لابد ان يكون مرتبطاً بماض وتاريخ واسرة وعنوان وجيران واصدقاء ومعارف !

عادت الحلقة تضيق أمام محسن ، فلقد كان « افرائيم سلومون » هذا يعرف أن الفتى جاء من ليبيا مقبوضاً عليه . . . اذن فلا بد من البحث عن « أصل » هذا الفتى فى المغرب العربى !

نعم ، كانت المهمة صعبة ومعقدة ، وكانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم . . . ولم تكن هذه الأيام الثلاثة التى أعطاها محسن للفتى كإجازة ، سوى - فى واقع الأمر - فرصة أعطاها لنفسه لاستكمال بحثه الذى كان قد بدأه منذ أن اتخذ القرار بخصوص الفتى . . . ولقد كان ملاذه - فى هذه المشكلة أيضاً - هو سجلات مصلحة الجوازات والجنسية .

وهناك ، لم تكن المهمة سهلة !
لم يكن هناك أرشيف بالمعنى العلمى لهذه الكلمة ، ولم يكن سهلاً البحث وسط الوف الدوسيهات والملفات والأضابير عن عائلة يهودية ذات مواصفات معينة ، هاجرت من مصر إلى المغرب العربى

بالتحديد ، وكانت كلمة المغرب هذه تشمل ليبيا وتونس والجزائر
والمغرب معاً ، فوق أن هذه البلدان كلها كانت لاتزال واقعة تحت
سيطرة الاستعمار الفرنسي أو البريطاني ، ثم ان المدن - غالباً - في
بلدان هذا المغرب في ذلك الوقت كانت مقسمة إلى ثلاثة أحياء :
أولها الحى الأوربي وهى حى بنى وصمم على أنه قطعة من
أوروبا ! وكان مخصصاً للجاليات الأوربية سواء المنتمية الى الدولة
المستعمرة أم الى سواها !

وثانيها هو الحى العربى حى أبناء البلاد وأصحابها الأصليين ،
وكان محاطا بسور - ولاتزال بعض هذه الأسوار قائمة حتى اليوم - له
بوابة ، ولايستطيع المواطن العربى اجتياز هذه البوابة خروجاً أو عودة
إلا بتصریح !!!

أما الحى الثالث فكان يطلق عليه اسم حى « الملاح » ، وهى
تسمية لها أصول تاريخية بالقطع ، لكن حى « الملاح » هذا ، كان حى
اليهود ، وكان له أيضا - مثل الحى العربى - سور له بوابة ، الفرق
الوحيد بينهما أن اجتياز البوابة خروجاً أو عودة ، لم يكن يحتاج الى
تصریح !!

كان معنى هذا أن يهود المغرب معروفون ، فى أى بلد كانوا ، فلا بد
أن يعرفهم أهل حى « الملاح » مهما صغر شأنهم أو كبر هذا الشأن !
وكان معنى هذا أيضا ، أن الحلقة كانت تضيق أمام محسن ممتاز أكثر
وأكثر !

لكن هذا الشاب الريفى الأصل كان عنيداً لا يعرف اليأس ،
لذلك فلقد داوم بحثه فى سجلات مصلحة الجوازات والجنسية
وأرشيدها وأضابيرها وملفاتها حتى عثر ذات مساء على كنز !!!

.
.

في سجلات المصلحة عشر محسن على عائلة صغيرة مكونة من أب وأم وولد وبنت . . . المثير في الأمر ، أن الولد أو الصبي ، وكان اسمه « ياكوف » كان في مثل عمر رأفت ، فهو مولود في نفس العام . . . وكان اسم الأب « بنيامين حنانيا » ، واسم الأم التي غادرت مصر في سن الثلاثين هو « راشيل » ، أما اسم الصبية التي كانت تصغر أختها بعامين فكان « جان » !

كان « بنيامين حنانيا » تاجراً متجولاً للاقمشة والخردوات ٠٠٠ وإذا كانت أسرته تقيم في أحد أحياء القاهرة الشعبية ، فلقد كان هو ، يجوب ببضاعته التي يحملها على ظهره في « بقجة » هائلة ، قرى الوجه البحرى ونجوعه . . . كان بنيامين معروفاً في هذه القرى جيداً ، وكان له زبائن كثيرون ، وكان أهلها ينتظرونه بطربوشه الذى صنع العرق مع الأتربة حول حافته سياجا من السواد ، وبذلته البنية الكالحة ، ثم تلك « البقجة » التي تحوى العجائب مما يعجب النساء والفتيات . . . ولكن ولسبب ما - قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بعام وبعض عام - قرر بنيامين حنانيا أن يهاجر من مصر الى المغرب ، وكانت سجلات المصلحة ، التي انهال محسن عليها بحثا وتقليبا ، تؤكد أن السيد حنانيا ، وابنه ياكوف وابنته جان وزجته راشيل ، لم يعودوا الى مصر مرة أخرى !

كان معنى هذا أن تعس الحظ بنيامين حنانيا وأسرته - وبكل الحسابات الممكنة - كان يقيم في المغرب عندما اجتاحتها جيوش المحور أثناء الحرب العالمية الثانية . . . وكان معنى هذا أيضاً ، أن العائلة بكاملها ، إما أنها ابيدت ، أو تفرقت !

من أوراق المصلحة ، عرف محسن العنوان ، الذى كانت عائلة حنانيا تقيم فيه منذ ما يقرب من سبعة عشر عاماً ، وعلى الفور ، انتشر رجاله يبحثون ويتقصون ويستفسرون ، وجاءت كل النتائج بما اثلج صدر محسن تماماً ، فالعائلة التى هاجرت لم يسمع أحد عنها شيئاً منذ ذلك الوقت . . . وان كان بعض كبار السن ، قد أدلوا بمعلومات وافية عن هذه العائلة ، وتحدث الجيران الذين يذكرون « الست راشيل » والدة « ياكوف » الذى كانوا جميعاً ينادونه باسم « ياكو » والبنت « هند » - ولقد أصر الجميع بلا استثناء ، على أن اسم الفتاة كان « هند » ولم يكن « جان » كما كان مدوناً فى سجلات المصلحة ، وانهم لم يسمعوها باسم « جان » هذا منذ مولد الفتاة فى أحد الأدوار الأرضية فى بيت كان لا يزال قائماً من بيوت الحجارة ! - وفى جلسات سمر مع بعض شباب الحى ورجاله ، تذكر بعضهم - بوضوح شديد - « ياكو » الصغير الذى كانت له نوادر وطباع يختص بها هو دون سواه !

أما الكبار الذين دهشوا من السؤال عن « الخواجة بنيامين » وتساءلوا عن سبب السؤال عنه ، فلقد ذكروا أنه كان عزوفاً عن مخالطة الناس بعكس زوجته الودود ، وانه كان يختفى لأيام وأحياناً لأسابيع ، ليعود مجهداً متعباً ، فلا يمكث مع العائلة إلا لأيام يشتري فيها بضاعته من بعض تجار حى الموسيقى الذين ذكروا أسماءهم .

وكان بعض هؤلاء التجار لا يزال على قيد الحياة ! . . . وكانوا يذكرون بنيامين تماماً ، بل إن بعضهم ذكر بضعة أسماء للقرى التى كانت أسواقاً لهذا البائع اليهودى المتجول . . . وفى تلك القرى ، أدلت بعض العجائز من ذوات الذاكرة الحديدية ، بالعديد من الحكايات عن الخواجة بنيامين - وإن كن جميعاً لا يعرفن عنه سوى اسم

بنيامين فقط - وعن اقمشته ذات الألوان الزاهية ، وعن الحلى الشعبية الجميلة التى كان يحملها إليهن كلما زارهن فى جولة بعد أخرى !
انقضت الأيام الثلاثة ، وكان محسن قد ألم إلاماً وافياً بأسرة حنانيا . . . كما أنه استطاع أن « يؤلف » قصة محكمة كان على الفتى أن يرويها اذا ما سئل عن أصله وفصله . . . وهكذا أصبح جاهزاً للخطوة الأولى فى مهمته الصعبة ! !



لم يكن من المعقول أن يصارح محسن رأفت بطبيعة مهمته فى البداية ، بل كان هذا مستحيلاً بكل المعانى . . . كانت المشكلة التى تشغل باله وهو مقدم على الخطوة الأولى ، هى « ترويض » هذا الثعلب الجامح . . . وفى حقيقة الأمر ، فان محسن لم يأخذ كلام الفتى وهو يقص عليه قصة حياته وما حدث له مأخذ صدق مطلق . . . حتى اذا كانت تحرياته قد تطابقت بشكل يدعو إلى الدهشة مع مذكره الفتى عن نفسه . . . الا أنه - احتياطاً - وضع فى اعتباره نسبة للمبالغة أو التحريف أو إخفاء ما يشين أو ينجل . . . لكن الواقع الذى واجهه محسن بعد تلك الأيام الثلاثة التى قضها الفتى وحده ، أكد له أن الفتى يصدقه القول الى حد يفوق التوقعات وكل تفاؤل ممكن !
ذلك لى شيئاً غريباً قد حدث . . . فبالرغم من أن الفتى فى اليوم الأول واليوم الثانى ، قد فعل كل ما يريد وكل ما يشتهى وكل ما يتمنى ، فإنه فى اليوم الثالث لم يغادر البيت اطلاقاً !

ظن محسن فى البداية أن وعكة قد أصابته ، أو نوبة برد كانت تجتاح

القاهرة أيامها قد وصلت اليه ، غير أنه عندما ذهب في الموعد ودق الباب في ذلك المسكن القائم فوق سطح إحدى عمارات ميدان سليمان باشا . . . فتح له الفتى وكان في كامل ملابسه ، حليق الذقن ، بادي الصحة . . . بل تبدو في ملامحه راحة أضفت عليها نوعا من البهاء والسحر !

« عملت ايه في الايام الثلاثة اللي فاتوا ياليتي ؟ ! »

هكذا سأله محسن بعد أن وضع الفتى بينها كوبين من الشاي المعد على الطريقة المصرية ، ولقد كان محسن يعرف بالطبع ما الذي فعله الفتى دقيقة بدقيقة ، بل كانت له ملاحظات بدت له شديدة الأهمية . . . منها أن الفتى كان يتصرف تصرف الأثرياء وأولاد الذوات . اكتشف محسن أن رأفت الهجان يهوى « الفخفخة » وأنه كان يتصرف في كل مكان ذهب اليه وكأنه ولد وفي فمه ملعقة من ذهب . . . وبدا لمحسن أن هذا الداء ، أو تلك العادة أو الهواية تمثل خطرا حقيقيا على خطته التي وضعها . ولذلك . . . فما إن حكى له رأفت مافعله في الأيام الثلاثة التي انقضت ، حتى سأله :

« يعنى انت امبارح ماخرجتش من البيت ! »

« لا ! »

« ليه ؟ ! »

« بصراحة يا محسن بيه خفت ! »

« من ايه ياليتي »

« أول امبارح وأنا خارج من « البيروكية » الساعة واحدة بالليل ، لقيت الرجل اللي اسمه افرام سلومون خارج من قهوة استانبيلوس ! »

كان البيروكية هذا - ولا يزال - ملهى ليليا في وسط القاهرة ، كما كان مقهى وبار « استانبولوس » يقع في المبنى المجاور مباشرة عند التقاء شارع سليمان باشا وعبد الخالق ثروت . . . وكان محسن يعلم من هو ذلك الذي يدعى « افرام سلومون » ، فهو ذلك الفتى اليهودي الذي التقى برأفت الهجان في سجن الاسكندرية عندما كان هذا محتجزا بعد وصوله من ليبيا . . . بدا له الفتى على حق في تحفظه ، كما بدا له ذكاء الفتى غريبا وحرصه أشد غرابة . . . وعلى كل ، فلقد سأله متحسسا الطريق اليه :

« واياه اللي يخوف في انك شفت افرام سلومون ! »

« مش عارف ! »

قالها الفتى مفكرا ، ثم عاد يقول :

« كحسيت انه ممكن يشبط فيّه ، وممكن يسألني اسمك الحقيقي

إيه ؟ ! »

« افرض انه سألك ؟ ! »

« ما انت ماقلتليش على الاسم ده ! »

« وهو انت كان لازم تقوله ؟ ! »

« لا ماكانش لازم بس »

توقف الفتى عن الحديث ، ثم دق نظراته في عيني محسن شارحا :

« أنا لما ما أقولش وأنا أعرف الاسم . . . غير لما ما أقولش وأنا

ما أعرفوش !!! »

كان رد الفتى مفحما ، فعاد محسن يسأل ضاغطا :

« وده اللي خلاك ما تخرجش امبارح ؟ ! »

« أيوه . . . لاني بأحب اشتغل وأنا فاهم راسي من رجليه !! »

لم يستطع محسن أن يخفى دهشته ، رفع حاجبيه متسائلا :
« تشتغل ؟ ! »

« أكيد سعادتك عاوزنى فى شغل ! »

قال محسن ممتاز فيما بعد - رغم كل وقاره وتجهمه الطبيعى - إنه لفرط إعجابه بما نطق به الفتى ، كاد ينهض اليه ويقبله . . . ذلك أن « وعيه » بالأشياء بدا غريبا ولافتا للنظر وباعثا على الشك فى نفس الوقت . . . طال الصمت بينهما حتى سأله الفتى واجفا :
« أنا غلطت فى حاجة يا محسن بيه ؟ »
« أيوه ! »

« شفت بقى . . . أنا قعدت امبارح فى البيت علشان ما أغلطش »
زعدت الفرحة فى قلب محسن ، فسأله :
« يعنى أنت عارف انت غلطت فى ايه ؟ ! »
« لو كنت اعرف ما كنتش سألتك ! »
« اسمع ياليتى . . . انت المفروض جاي منين ؟ ! »
« من ليبيا ! »

« يعنى يهودى هربان ، وعلى الحديدة لأنك جيت بطولك وما كنتش لاقى تاكل إلا الأكل اللى كانوا بيقدموه لك فى القسم ! »
راح الفتى يحملق فى وجه محسن محاولا أن يستشف ما يدور فى ذهنه !

« هو اليهودى المفلس يسهر فى البيروكية برضة ؟ ! »

لم يرد رأفت الهجان . كان يفكر فيما قاله محسن ، وكان يبدو عليه عدم الاقتناع بهذا المنطق !
« ساكت ليه ؟ ! »

«مستنى لما سعادتك تخلص !»

«أنا خلصت !»

«وأنا مش غلطان فى دى !»

«ازاى ؟ !»

«لأن سعادتك اللى اديتنى الفلوس ، ده أول هام . . . وتانى هام
لأنى ما اعرفش حاجة عن اللى انت عاوزنى اعمله غير إنى يهودى وكان
الله يحب المحسنين !»

ابتسم محسن لمنطق الفتى الذى لم يتوقف ، بل تدفق فى الحديث :
«واليهود فيهم جاتينيو وصيدناوى ، وفيهم ليقى كوهين اللى مش
لاقى ياكل . . . وفيهم اللى ممكن يسهر فى البيروكيه !»
قال محسن منبها الأمر :

«على كل حال لازم تحط ده فى اعتبارك ، لازم تعيش على قدك !»
مال الفتى نحو محسن هاتفاً :

«ياسعادة البيه قول لى انت عاوزنى اعمل ايه وانا اعمله !»
«عاوزك تعرف إن دى آخر مرة أجى لك فيها الشقة !»
بان الذعر على وجه الفتى فصاح :

«هو حضرتك كلفتنى بحاجة وانا قلت لأ لا سمح الله ؟ !»
ابتسم محسن مطمئنا إياه :

«مش ده ياليتى . . . مش ده !»

كان رأفت قلقا :

«أمال مش عاوز تشوفنى تانى ليه ؟ !»

«أنا ماقلتش أنى مش حاشوفك ، أنا قلت إنى مش جاي الشقة

دى تانى !»

«مش فاهم !»

«احنا حانتقابل فى مواعيد منتظمة . . . بس بعيد عن الناس ،

مش لازم حد يعرف على الاطلاق اننا بنتقابل !»

« آآآاه »

قالها الفتى بارتياح صارخ ، وعاد محسن الى الحديث :

« ده نمرة واحد . . . نمرة اثنين انت لازم تعرف ان لك عندى

مرتب شهرى !»

قال محسن هذا وانتظر أن يسأل الفتى عن هذا المرتب لكنه لم

يفعل !

« انا حاديلك الفلوس اللى تقضيك وبس . . . ولازم تعيش بيها

حتى ولو جعت !»

«اللى تشوفه حضرتك . . . بس أنا عاوز أعرف حاجة !»

« ايه هى ؟ !»

« أنا مطلوب منى أعمل إيه بالضبط ؟ !»

« ولا حاجة . . . تعيش على انك يهودى ، تروح الحتت اللى بيروحها

اليهود . . . وتفضل فى وسطهم تتكلم معاهم وتحاول تفهمهم

كويس ، وتعرف هم عايشين ازاي ، وتعيش زيهم !»

« بس كده ؟ !»

« بس كده !!»

« بسيطة !»

« بيتها لك !»

«مش فاهم !»

اعتدل محسن فى جلسته وراح يتحدث بكلمات بطيئة واضحة حتى

تصل الى أعماق الفتى !

كان المفروض أن يعيش رأفت الهجان ، لا باسم يهودى فقط ، بل كيهودى أصيل . . . عليه أن يتردد على كل الاماكن التى يتردد عليها اليهود . . . ابتداء من المعبد وحتى قهوة « متاتيا » ، ونادى المكابى ، وقهوة وبار « استانبيلوس » الى تجمعاتهم الخفية والعلنية . . . عليه أن يحكى قصة عائلته وتشردها فى المغرب وما فعلته بها جيوش المحور . . . عليه أن يعرف أين كانت تسكن عائلة « حنانيا » المكونة منه ومن الأب بنيامين والأم راشيل والأخت جان التى تصغره بعامين والتى عرفت فى الحارة باسم « هند » . . . وان يعرف بدقة شديدة عمل أبيه والقرى التى كان يزورها ببضاعته ، والتجار الذين كان يتعامل معهم فى سوق الموسيقى . . . لأن السيد « حنانيا » - كما قال بعض الجيران - كان يصحب ولده طوال إقامته القصيرة فى القاهرة ولايفلرقة أبداً . . . وكان عليه أن يعرف أنه بالرغم من هجرته من مصر وعمره لايتجاوز السبعة أعوام فهو يذكر كل شىء بوضوح كاف ، فلقد كانت للفتى ذاكرة من حديد وذكاء من نوع غريب . . . ذاق الأمرين فى المغرب هو وعائلته جميعاً عندما اجتاحتها جيوش المحور ، مات أبوه ثم ماتت أمه وافترق هو عن شقيقته التى لايعرف إن كانت قد لحقت بأبيه وأمّه أم أنها لاتزال على قيد الحياة . . . ثم لا بد له من زيارة مراتع الطفولة بل والتعرف - ولكن فى حذر شديد حتى لايقع فى خطأ قاتل - على بعض أقرانه . . . وعليه أيضاً أن يبحث عن عمل ، أى عمل مهما كان تافهاً لأن قروشه التى استطاع إخفاءها جد قليلة ، لاتمكنه الا من العيش على الكفاف . . . حلم عمره أن ينتقم من العالم كله ، خلاص اليهود الوحيد فى دولة اسرائيل والصهيونية هى اعظم فكز عرفته البشرية ،

الشرطة تطارده في المغرب لأسباب خفية لا يدلى بها لأحد مهما كانت مكانته ، كما تطارده الشرطة في مصر مثلما طارده الانجليز في ليبيا بلا رحمة !

عليه أن يترك نفسه تماما لقدره وسط اليهود . . . في نادي المكابي يستطيع التعرف على انماط من مستويات اجتماعية مختلفة ، وفي المقاهي والبارات سيالتقى بنوعات عليه أن يعقد معها صداقات حذرة لأن سره الكبير يجب ألا يعرف . . . في المعبد عليه أن يتعلم صلواتهم ، وأن يعرف ، وبدقة شديدة ، مذاهبهم الدينية ، والخلاف بين هذه المذاهب . . . عليه أن يكون متديناً ، وأن يواظب على زيارة المعبد ، وأن يحترم في صرامة يوم السبت ، ثم يختار لنفسه « مقراً » في النادي أو أحد المقاهي أو أحد البارات . . .

ثم هو سوف يلتقى بمحسن مرتين كل أسبوع . . . لن يكون اللقاء عادياً ، بل لقاء له خطة وأسلوب سرى وغريب ومعقد ، عليه أن يتبعه بدقة مهما كانت الظروف ، سيعلمه محسن كيف يعرف إن كان مراقبا أم لا . . . سيدربه على كيفية الافلات من أية مراقبة . . . ولكن ، حذار حذار حذار ، أن يلتقى به أو يتحدث اليه وهو مراقب حتى ولو كان ملتصقاً به . . . اذا لم يستطع الافلات من المراقبه فله أن ينصرف كي يلتقى بمحسن في موعد آخر له جدول خاص سوف يلقنه اياه .

« ومين اللي حايراقبني يابيه ؟ »

« البوليس طبعا »

« يا نهار اسود »

ابتسم محسن متسائلاً :

« ايه مالك ؟ »

« إذا كان البوليس هو اى حايراقبنى ، امال سيادتك تبقى ايه ؟ »
لم يرد محسن لكنه استطرد :

« ده مش حايراقبك بس ياليفى . . . ده ممكن يقبض عليك
كمان »

كان هذا فوق طاقة الفتى ، فوق قدرته على الفهم بهذه السرعة
وهذا الهجوم الذى تعمدته محسن حتى يختبر قدرته الفتى على مواجهة
الاحتمالات والصمود أمام المفاجآت .

ولقد استلزم الأمر ثمانى ساعات كاملة . . . ثمانى ساعات بقيها
محسن مع الفتى وهو يقص عليه قصة عائلة حنانيا ، وكيف يتصرف ،
ومع من ، وماذا يفعل . . . كان يلقنه كل ما يريد أن يلقنه إياه ،
ويدربه على أسلوب اللقاء ويسأله ، ويعيد السؤال . . . ثم ان عليه ،
فى النهاية ، أن يحفظ رقمى تليفونه فى البيت وفى المكتب . . . لا
لا . . . ليس كتابة فهذا ممنوع منعاً باتاً ، عليه أن يحفظها عن ظهر
قلب ، لا للاستعمال ، بل للضرورة القصوى وعندما يصبح آمنه كله
فى خطر . . . هل هذا مفهوم ؟ »

« مفهوم يابيه ! »

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساءً عندما أحس محسن أن
الفتى قد تشبع تماماً بكل ما أراد له أن يتشبع به ، نهض مستعداً
للانصراف وهو يطلب إلى رأفت الهجان أن يتحرك على مهل وفى حذر
والا يتعجل الأمور مهما بدت له سهلة وميسرة . . . وأن يكتب ،
وكلما كانا على موعد ، كل كبيرة وصغيرة عما حدث له أو فعله أو رآه أو
سمعه فى الأيام السابقة . . . ورغم الإجهاد الشديد الذى كان يصبغ

ماحول عینی رأفت الہجان بلون داکن ، فلقد كان يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، وعندما سأله محسن عن سر ابتسامته ، قال :
« لأنك قلت لي اسم أبويا وأمي وأختي ، ومقلتلش أنا اسمي الحقيقي ايه ؟ »
« ياكوف »

ساد الصمت لبرهة ، قال بعدها الفتى :
« ياكوف بنيامين حنانيا ! »

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتعرف فيها الفتى على الاسم الجديد الذي كان عليه أن يحمله لشهور قادمة . . . أما محسن ، فلقد كان موقنا الآن ، أن رأفت - أبدا - لن ينسى اسمه الحقيقي المزعوم بعد أن حجبته عنه طوال تلك الساعات وأشعل شوقه لمعرفة . . . حتى إذا ما ذكره له ، غاص الاسم إلى اعماق الفتى ، واستقر هناك !

الفصل التاسع

استانيپوس

انقطع الحديث عندما دخل الشاب الريفى ليضع كأسين من عصير الليمون وفنجانين من القهوة المصرية أمام فراو سمحون وعزيز الجبالى الذى كف عن الحديث فور دخوله . . . ران الصمت وشمل الغرفة إلا من الأصوات الهامسة التى كان يصدرها ذلك الريفى فى حركته الرشيقة ، قبل انقضاء دقيقة انتهى من مهمته وغادر الغرفة ، ولكن الصمت ظل معلقا فوق رأسيهما !

بدا عزيز الجبالى مستغرقا فى التفكير وقد ركز عينيه فوق هدف غامض بدا وكأنه معلق فى الفضاء ، احترمت هيلين هذا الاستغراق وظلت ساكنة تكاد تكتم أنفاسها ، حتى مد يده نحو فنجان قهوته ، فمدت يدها إلى كأس العصير !

كان ما يحدث لها الآن شيئا غريبا تماما ، شيئا وعته ورفضته لكنها لم تستطع إلا أن تستسلم له . . . شعرت فى تلك اللحظات وكأنها تحيا

حياة أخرى ، لم تكن مندمجة فيما كان يحكيه عزيز فقط ، بل كانت تحياه . . . فالحرارة التي راح هذا الرجل يحكى بها ، وتدفق الكلمات من بين شفثيه في انجليزية سليمة ، وإشارات ، وإيحاءاته ، وحركات يديه القليلة والشديدة التعبير ، جعلتها تشعر وكأنها تتنفس الأحداث ، فداخلتها نشوه غامضة صاحبها احساس شديد العمق بالراحة ، فاستسلمت . . . ولم تنبس ببنت شفة ، حتى عاد عزيز - بعد أن أشعل سيجارة واسترد أنفاسه - إلى الحديث من جديد !



في أواخر عام ١٩٥٤ ، كان حي مصر الجديدة شبه ارستقراطي ، تسكنه العائلات المتوسطة الكبيرة ، وعدد لا بأس به من الأثرياء . . . وكانت بيوته ذات طراز خالص ، فالعمارات القديمة الواسعة الردهات والشرفات والسقوف العالية ، تلك التي بنتها الشركة البلجيكية التي كانت تملك هذا الحي بأراضيه ومرافقه وخط المترو الشهير الذي كان يربط الحي بوسط المدينة التجارية عند ملتقى شارع فؤاد بشارع عماد الدين ، كل هذا كان يجعل للحي مذاقا غريبا غير مصرى ، حتى تلك الفيلاوات التي بناها الأثرياء هناك ، كانت تتناثر في تباعد يحيطها بوقار ذى طعم خاص . . . غير أن بعض العمارات الحديثة كانت قد بدأت في الظهور مع قيام ثورة يوليو منذ ما يقرب من عامين ، فلقد أحس المصريون - ربما لأول مرة - أن هذه الأرض أرضهم . . . وكانت الأرض صحراوية ورخيصة ، فزحف إليها بعض من يملكون مالا يسيرا ، وبدأت تلك العمارات في الظهور وفي تكوين شوارع بكاملها في تلك الضاحية !

ولذلك فإن شوارع مصر الجديدة في تلك الأيام - بعد الغروب - كانت تبدو شبه خالية ، فأصحاب السيارات كانوا يضعون سياراتهم في جراجات خاصة ، وكان المار في أحد هذه الشوارع ، لا يرى سوى سيارة أو سيارتين تقفان في الطريق ، وغالبا ما يكون اصحابها في زيارة عائلية أو ودية ، ولم يكن المار يلمح سوى شخص أو شخصين ، أو - في الغالب - حبيين يسيران في خطوات متلكئة وهما يتهامسان !

كان أمرا طبيعيا أن تدخل الشارع - أى شارع - سيارة كبيرة أو صغيرة ، ثم تقف أمام إحدى العمارات ، وأن يتوقف دوران الموتور ، ثم لا يغادر السيارة أحد فان الاحتمالات هنا لم تكن تخرج عن حبيب في انتظار حبيبته ، أو زوج في انتظار زوجته التى تزور صديقة لها . . . وإذا ما كانت السيارة تقف في آخر الشارع فان القادم من أوله كان يستطيع - بسهولة بالغة - أن يكتشف - قبل أن يبلغ السيارة - إن كان هناك من يتبعه أم لا .

كان الموعد في التاسعة مساء !

وفي التاسعة إلا خمس دقائق كانت سيارة سوداء اللون أمريكية الصنع ، ذات ماركة شهيرة من تلك التى يركبها ذوو اليسار والأراضى من أهل مصر ، تدخل إلى واحد من هذه الشوارع في سرعة عادية للغاية ، ولقد ظلت هذه السرعة تتناقص حتى توقفت السيارة امام عمارة جديدة بدت عالية جدا ، فلقد بلغ ارتفاعها خمسة طوابق ! وكان الجالس خلف عجلة القيادة ، هو محسن ممتاز .

مرت ثلاثة أشهر منذ امتنع محسن عن زيارة الفتى في ذلك المسكن الكائن فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا ،

وكانت لقاءاته بالفتى قد تعددت وتعقدت واتخذت اشكالا عديدة . . . في كل لقاء من هذه اللقاءات ، كان محسن ممتاز يذهب اليه بسيارة ذات ماركة مختلفة ولون مختلف وحجم مختلف ، لكن الرقم الموضوع على السيارة أيا ماكانت ، لم يكن يتغير أبدا !

كان محسن ، طوال هذين الشهرين ، يدرّب الفتى على اكتشاف المراقبة والإفلات منها ، في بعض الأحيان كان يرسل وراءه من يراقبه عمدا ، ويبدأ الفتى في المراوغة ، ويبدأ المراقب في استعمال مهاراته لكن الفتى غالبا ماكان ينتصر ، فلقد أظهر قدرة فائقة بل وعبقرية ، على الاستيعاب ، كما أظهر قدرة فذة ، على تطوير الأساليب وادخال التعديلات عليها بما يتلاءم مع طبيعته . . . كان يمارس دور اليهودى فى اندماج واستغراق جعلاه فى بعض الأحيان « يساوم » محسن على أى شىء ، لم يكن يساوم لهدف ، بل كان يساوم للمساومة ، ثم يتسم قائلا : إنه أصبح يهوديا أكثر من اليهود !

كان الفتى يتقدم بسرعة مذهلة وغير متوقعة . . . وكان تقدمه هذا مثار مناقشات مضمّنية بين محسن ممتاز وحسن صقر . . . ذلك الذى ترك أمر العملية كله لزميله وصديقه ومرءوسه منذ أن شاهدا معا ذلك الفيلم الأمريكى الذى كان يعرض فى القاهرة ، والذى كان قلقا أشد ما يكون القلق لتطور الفتى السريع ، مطالببا محسن ، مع كل خطوة الى الأمام ، بأن « فى الثانى السلامة » !

يقول عزيز الجبالى عن تلك المرحلة فى الأوراق التى كتبها :

« وهكذا كانت العملية تتطور وتتقدم نحو الهدف بكل أثقالها الخطيرة على كواهل كل الأطراف . . . حسن صقر ، قائد العملية

السرى ، والمسئول الأول عن مسارها ونتائجها وسلامة جميع القائمين عليها ، وهو لذلك يهيمن عليها ويقف على تفاصيلها ويساهم بالفكر فى كل شؤونها ، ولا تتخذ خطوة من الخطوات إلا بموافقته وتصديقه ومحسن ممتاز المدير ، المنفذ ، قائد العملية وروحها ، دارس الظروف ، واضع المخططات ، المسك بزمام الأمور ، والمحافظ على سلامة الاتجاه نحو الهدف ثم مجموعة قليلة من ضباط العمل السرى الذين ساهموا بأقصى مايمكن من السرية والكتمان فى إحكام جوانب هذه العملية وبناء سواترها وتدعيم قصصها الوهمية الزائفة بما يجعلها تنطلى على الجميع فى داخل مصر وخارجها على السواء !!!

وأخيراً سلاح العملية المتقدم واداتها الرئيسية . . . ذلك الذى كان رأفت ثم أصبح ليقى ، وهو الآن ياكوف !! «

كان محسن ممتاز فى تلك الليلة يحمل للفتى نبأ مهولاً ، كان يستعد لمصارحة بالهدف من الأمر كله ، وهو ، قد شحذ كل ملكاته ، واستعد بكل أدواته لتلك اللحظة التى كان يعرف كم هى رهيبة ، وشاقة وصعبة !

أطفأ الأنوار وأبطل حركة موتور السيارة وراحت عيناه تعسان فى المكان بحذر كان باقياً خمس دقائق ، وكان السكون شاملاً ، والشارع خالياً ، وكل شىء يبدو على مايرام !

فى ذلك الوقت هبط الفتى من أحد قطارات المترو فى إحدى محطات مصر الجديدة النائبة كان قد اتخذ طريقه من وسط المدينة حتى تلك البقعة الصحراوية عبر عدة مواصلات ومسارات مركبة وهو .

في حقيقة الأمر كان دهشا لهذا الإفراط في السرية كلما كان على موعد مع محسن الذي قال له ذات مرة عندما سأله عن السبب في كل هذا ، بأنه من الأفضل لسلامته ألا يراه أحد من اليهود ، أو حتى من رجال الشرطة معه . . . ولم يقتنع الفتى ، وإنما ابتلعها - كما قال فيما بعد - « بمزاجه » ، وظلت دهشته امتقدة ، وراح يتساءل :

سرية على من ؟ !

إن السرية هنا لا يمكن إلا أن تكون على رجال الشرطة ، فكيف يحتاط رجل شرطة من رجل شرطة آخر ، ولماذا ؟ ! . . . كان رأفت الهجان مقتنعا أشد ما يكون الاقتناع بأن محسن رجل من رجال الشرطة له وظيفة خاصة باليهود ، وإن كل ما سيطلبه إليه في النهاية هو أن يأتيه بأخبارهم ، فلقد كان نشاطهم في تلك الأيام يتزايد ، وكان قد امتد - في مصر بالذات - من تهريب الأموال وتهجير الشباب ، إلى تدمير المنشآت ! ! . . . أقنع الفتى نفسه بأن محسن إنما يفرض كل هذا الذي يفرضه من كتمان ، وإعداد وتدريب وما إلى ذلك ، لأن البلد في عهد جديد بعد أن باد عهد آخر ، « والغربال الجديد له شدة » كما يقولون في المثل العامى المصرى . . . اقنع الفتى نفسه بهذا لأن محسن كان قد أصبح في تلك الشهور القليلة يمثل بعثا جديدا لحياته . . . ولطالما قارن بينه وبين أخيه الأكبر ، ذلك الذى ظل يضيق عليه الخناق حتى لم يجد أمامه سوى الفرار من البيت . . . وما ان ينتهى من المقارنة - رغم شدة محسن في بعض الأحيان ونظراته المخيفة في أحيان أخرى - حتى يسلم قياده له أكثر ، مقتنعا بأن كل ما يطلبه إليه هو الصواب بعينه !

كان الجو في تلك الليلة باردا ، وقد حمل شتاء هذا العام الى

القاهرة ، مع الأعاصير السياسية التي كانت تجتاحها ، أعاصير طبيعية من رياح وأمطار ورعد وبرق وبرودة . . . غادر الفتى المترو لكنه لم يغادر المحطة ، ضم طرفي سترته وانكمش منتظرا مغادرة كل الركاب . . . ولم يكونوا سوى راكب واحد ، عبر الطريق هرولة واختفى في الظلام وهو ينحني الى الأمام متقيا دفع الريح . . . مضى المترو مبتعدا ، واختنق صوت عجلاته في صمت الليل الكثيف ، القى الفتى ببصره في حرص من تدرب بقدر يكفى لممارسة هذه النظرات بحنكة .

كان يبدو عليه البؤس !!

هكذا كان يجب أن يكون . . . كان حليق الذقن مصفف الشعر حقا ، لكنه كان شاحب الوجه رث الملابس رغم كبتها بعناية . . . دس يديه في جيبي سرواله وألقى نظرة أخيرة على المكان ومضى يعبر الطريق ، فبدأ جسده الذي ازداد نحولا وكأنه يتهايل مع هبوب الرياح . . . بعد عشرين ثانية كان يدلف الى الشارع الذي توقفت فيه السيارة التي يقودها محسن ، في خطوات منتظمة سار . . . لكنه ، وعندما حاذى بيتا من البيوت ، توقف ومال محمقا في رقم البيت المعلق وكأنه يقرؤه بصعوبة في ضوء الطريق الخافت . . . لكن عينيه كانتا هناك من حيث جاء ، حتى إذا اطمان تماما إلى أنه غير متبوع ، اعتدل ، وسار نحو السيارة في ثقة . . . القى نظرة على الرقم ، ثم مال نحو الباب ففتحه ودلف الى الداخل !

.
.

منذ البداية وقع اختيار رأفت ومحسن على أن تكون قهوة وبار

« استانبيلوس » هى مقره الدائم . . . ذلك أن المقهى - مثله مثل قهوة متاتيا - يتميز بطابع خاص . . . كان مقهى استانبيلوس يحمل سمات المقهى المصرى الصميم ، فهناك لاعبو الطاولة والدومينو وأحياناً الشطرنج ، وكان هؤلاء لهم ركن خاص بهم لا يرتاده الا اللعيبة . . . ثم هناك ركن لأصحاب المزاج الخاص ، يتجمعون فيه من العصر وحتى أذان العشاء يتسامرون ويتهامسون ويتناقلون النكات والأخبار والاسعار ، ثم ينصرفون فى جماعات صغيرة أو فرادى ، كل الى بغيته بعيداً عن الأعين . . . وكان هناك ركن ثالث للسياسيين ، هؤلاء الأصدقاء الألداء المختلفو المذاهب والمشارب من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، والذين لا يكفون عن المناقشة لحظة ، ويتبارون بالاحداث والأحزاب التى الغيت ويعير بعضهم البعض بالوقائع فى صيحات متشنجة ، لكنهم ، ومهما اشتد بينهم الخلاف ، كانوا دائماً ما يلتقون ، ودائماً ما يختلفون ، لكنهم يشربون الشاي والقهوة معا ، فى لقاء حميم من أجل مصر !

أما ركن الصحفيين والأدباء فقد كان مجاوراً لركن السياسيين ، كان منهم من يحترف الصحافة أو الأدب لكنه يمارس السياسة ، ومنهم من كان يحترف السياسة ويتخذ من الصحافة وسيلة . . . وهؤلاء كانوا أكثر الأركان هدوءاً ، وأشدّها صخباً لو احتدمت المناقشة حول نظرية أو موقف أو قصيدة أو قصة نشرت فى الصفحة الأولى لحدى الجرائد اليومية . . .

ثم يبقى بعد ذلك ركن اليهود !

كان ركن اليهود مجاوراً لذلك السائر الخشبي الأخضر اللون ،



والذى يفصل المقهى عن البار . . . وكان يتميز بشىء خاص تماما ، وهو أن كل فرد من رواده ، كان لابد أن تكون له علاقة بأحد الأركان الأخرى . . . كان منهم صحفيون ، ومنهم أصحاب مزاج ، ولعبة طاولة ودومينو ، كما كان منهم التجار . . . لكن الواحد منهم - بالرغم من هذا - كان يعود دائما إلى ركن اليهود لممارسة حياته الحقيقية بين بنى جلدته . . . كان من المستحيل أن تجد واحدا منهم يعمل عملا واحدا ، أو يشغل وظيفة واحدة ، وكانوا - جميعا - مهتمين أشد ما يكون الاهتمام بكسب المال ! . . . كان هذا الركن يتميز بسحن أصحابه رغم أن منهم من ولد وعاش وتربى فى مصر ، لكنهم غالبا ما كانوا يتهايمسون ويعقدون الصفقات ويختلفون ويتشاحنون وقد تعلو أصواتهم ويتبادلون الاتهامات ، ثم يعودون مرة أخرى متلاصقين ، حتى أطلق عليهم أحد أدباء المقهى اسم : « المتلاصقون المتنافرون » !

فى الساتر الخشبى الذى يقوم بين المقهى والبار باب صغير أسدلت عليه ستارة ذات لون داكن كى لا تظهر فيه البقع . . . جرسونات المقهى من ذلك النوع الذى يرتدى البنطلون الأسود والجاكيت الأبيض و « البايون » يزين واجهة العنق ، فى الناحية الأخرى خلف الساتر الخشبى ، كان اسم البارمان هو « مانولى خرالامبو » ، لكنهم جميعا كانوا ينادونه باسم « مانو » فقط ، أما نجم مقهى وبار « استانبيلوس » ، فلقد كان هو نفسه الخواجة « استانبيلوس » صاحب المقهى ، اليونانى الأصل ، ذا اللكنة التى كانت من علامات المجتمع المصرى فى ذلك الحين . . . فى البداية كان هناك استانبيلوس الأب ، ثم جاء من بعده « استانبيلوس » الابن الوسيم المتفجر بالحوية والسخرية معا . . . ابن البلد الدون جوان العاشق للنميمة ، الخائض فى سير

كل رواده ، العارف بكل تفاصيل حيواتهم ومشاكلهم واحتياجاتهم ونقاط ضعفهم ونقاط القوة في كل واحد فيهم ، صاحب النوادر الشهيرة ، والحسان اللواتي كن يقفن أمام المقهى بسياراتهن للحدث معه أو للتشاحن حول موعد أخلفه !!!

في مقهى وبار استانبولوس بدأ رأفت الهجان خطوته الأولى نحو عالمه الجديد والخطر . . . في بداية الأمر لم يكن الأمر صعبا عليه ، فلم تمض أيام قليلة ، حتى عرف جميع رواد المقهى وزبائنه الدائمين ، خاصة اليهود منهم ، أن هذا الفتى النحيل ذا الملابس المتواضعة والعينين النفاذتين القلقتين ، اسمه « ليقي كوهين » . . . هو يأتي وحده يشرب فنجانا واحدا من القهوة لايزيد ، يجلس ساهما ساعة أو ساعتين ، يحدث من يتحدث إليه في أدب ورقة بالغين ، ولا يتطفل على ركن أو شخص مهما طالت جلسته ، ثم ينصرف من حيث جاء !!!

غير أنه ما إن مر أسبوع وبعض أسبوع ، حتى عرف الجميع قصة هذا الفتى الغامض ! . . . عرفوها من « استانبولوس » الابن نفسه . . . ذلك أن هذا الشاب كان يعشق النميمة ويعتبرها إحدى الفضائل الانسانية ، كان يتلذذ بسماع الأخبار وروايتها في نفس الوقت . . . وعندما أعيته الحيلة مع هذا الفتى اليهودي دعاه إلى كأس في الناحية الأخرى من الساتر الخشبي . . . وفي بساطة ورقة قبل الفتى الدعوة ، ودلف مع « استانبولوس » إلى حيث كان « مانو » خبيرا في فك الألسنة المعقودة . . . والشىء الغريب الذى حدث ، أن صاحب المقهى انجذب بشكل غامض نحو هذا الفتى الذى - بعكس ما كان يبدو عليه - كان جذابا في جلسته التى امتدت معه حتى حان موعد

اغلاق المقهى والبار أيضا . . . كان الفتى حاضر البديهة ، ابن نكته ،
تقطر السخرية من بين شفثيه مرة كالعلقم ، ثمينة كالذهب . . . هو
بلا أهل ، قتل الألمان أباه وأمه في المغرب وافترق عن أخته التي لا يعرف
عنها شيئا . . . ماله قليل ، ولهذا فهو يبحث عن عمل . . . ولقد
تطوع « استانبيلوس » في اليوم التالي وهو يقص قصة الفتى ، بسؤال
بعض « البكوات » الذين كانوا يستطيعون النظر في الأمر ، وإيجاد عمل
لهذا الفتى البائس ! . . . غير أن مصادفة غريبة حدثت في اليوم
التالي .

جاء ليثى كوهين - أو رأفت الهجان - في مواعده ، واحتل نفس
المقعد الذي تعود أن يجلس عليه بجوار الباب المطل على شرطى المرور
في ركن الشارع . . . ولقد أحس الفتى ، منذ خطوته الأولى داخل
المقهى بأن كل الأنظار قد اتجهت اليه فأيقن أن « استانبيلوس » الابن
قد قام بمهمته خير قيام ، وإن كل رواد المقهى قد عرفوا الآن قصة
حياته المزعومة . . . طلب فنجانا من القهوة ، ما إن وضعه الجرسون
أمامه حتى اندفع من الباب شخص اتجه نحو ركن اليهود ، حيث
كانت هناك مجموعة من بضعة أشخاص انضم اليهم . . . اختار
الوافد مقعدا واستدار كي يجلس عليه لكنه لم يفعل ، حملق فيما أمامه
صائحا :

« مين ؟ ! .. ليثى كوهين ؟ ! »

ابتسم الفتى في ترحيب خجول ، وتقدم منه « افرايم سلومون » -
ذلك اليهودى الذى التقى به في سجن الاسكندرية - مرحبا ، فنهض
الفتى كي يصافحه في حرارة ، هم افرايم بالحديث لكن الفتى ضغط

على يده ضغطة خفيفة ، فانتبه افرام وتوقفت الكلمات خلف شفثيه ، دعاه الفتى إلى فنجان قهوة فرحب . . . دار الحديث بينهما عاديا ، السؤال عن الأحوال وكيف تسير ، ثم همسات وغمغمات عن المصريين والحكومة وماتفعله وماتنتويه ثم - وكأن افرام تذكر شيئاً - سأل الفتى بغتة :

« هم كانوا ماسكينك ليه ؟ »

لم يرد الفتى بل تلفت يمناً ويسرة في تأفف ، ثم أمسك بدفة الحديث وراح يشكو الحال قائلاً : إنه يبحث عن عمل منذ أُفرج عنه دون جدوى . . . لكن افرام عاد إلى الإلحاح :

« هم الانجليز مسكوك في ليبيا ليه ؟ ! »

كانت قصص الصراع بين اليهود في فلسطين وبين جنود الامبراطورية البريطانية لاتزال تملأ الأذهان ، فاسرائيل - في ذلك الوقت - لم يكن عمرها يتعدى ست سنوات ، التفت الفتى نحو افرام متسائلاً في سخرية :

« هم الانجليز بيمسكوا اليهود ليه ؟ ! »

أراد افرام الاستطراد في الحديث لكن الفتى نهض وقد بدا عليه الضيق ، وضع قرشين على المائدة مستأذناً بأنه على موعد مع رجل وعده بعمل . . . ثم رحل عن المقهى مهرولاً وكأنه يفر من شىء غامض ! لم ينتبه رواد المقهى لما حدث ، فلقد تلهت كل مجموعة بما كانت تتلهى فيه كل ليلة . . . حتى ركن اليهود ، كان يبدو على رواده وكأن شيئاً مما حدث لايعنيهم . . . أما افرام سلومون ، فكان عندما عاد إلى المجموعة ، شارد الذهن ، ينظر إلى حيث انصرف الفتى وقد استغرق في التفكير ، وعندما سأله أحدهم :

« ايه الحكاية يا فرايم ؟ ! »

راح يقص عليهم قصة لقائه بالفتى فى سجن الاسكندرية ، وكيف حير رجال الشرطة هناك . . . لقد جاء مرحلاً من ليبيا لكن التهم التى كانت موجهة إليه لم تكن من الانجليز فى ليبيا فقط ، بل من امريكا وانجلترا وألمانيا وكان البوليس الدولى يبحث عنه . . . جاء من ليبيا يحمل اسم « ليفى كوهين » لكنه كان يصرخ ويهدد طالبا القنصل الامريكى فى الاسكندرية ، ولم ينطق كلمة بالعربية إلا معه وعندما انفردا وأطمأن أنه يهودى مثله . . . حاول أن يعرف التهمة الموجهة اليه ففشل ، وعندما سأله عنها نصحه الفتى بالابتعاد عنه حتى لا يصيبه الضرر . . . استمع الرفاق الى افرايم جيداً ، ثم قصوا عليه ما استطاع استانبيلوس أن يستخلصه من الفتى على يد مانولى وكئوسه المجانية فتطابقت الأقوال مع الأقوال ، وعندما انفضت الجلسة فى آخر الليل ، كان الحديث مازال يدور همساً بين اليهود حول الفتى ومن يكون . . . لكن افرايم سأل فجأة :

« هو بييجى هنا من أمتى ؟ ! »

« من أسبوعين ثلاثة ! »

« وبييجى كل يوم ؟ ! »

« وبيقعد لوحده ! »

وهكذا انصرفوا جميعاً ، وقد ترك الفتى فى نفس كل منهم تأثيراً واضحاً وغامضاً فى نفس الوقت !

.
.

في اليوم التالي ، وقبل الموعد الذي تعود الفتى أن يرتاد فيه المقهى ، كان افرائيم سلومون هناك . . . كان يبدو عليه الترقب والقلق ، حتى إذا هلّ الفتى عند الباب نهض إليه هذا مرحباً ، سائلاً إياه في اهتمام وهلّة لم يحاول إخفاءهما ، إن كان قد وجد عملاً بالأمس ، فجلس الفتى مكتئب الوجه بادي الارهاق وهو يقول :

« لو كنت لقيت شغل ، ايه اللي كان حاجبيني هنا دلوقت ! »

« انت عاوز تشتغل ايه ؟ ! »

وتبسم الفتى في سخرية وهو يقول :

« أي حاجة ! »

« تشتغل قومسيونجى ؟ ! »

في لهفة استدار الفتى نحوه متسائلاً :

« مع مين ؟ ! »

« مع أخويا ! »

وهكذا ، تحققت خطوة هامة في الخطة الموضوعية ، تحققت قبل أن

تكتمل ثلاثة أسابيع !

.
.

كان تاجر الساعات « موريس ليثى » مشهوراً في ميدان العتبة الخضراء باسم « سوسو » ، فلقد ناداه أبوه وأمه بهذا الاسم في الصغر فظل ملازماً له حتى أواخر أيام حياته . . . كانت تجارة موريس رائجة ، فرغم أن كل من تعامل معه كان يشكو من حرصه . . . ويهوديته ، فقد كان أميناً لا يغش أبداً ، مما جعل زبائنه والمتعاملين معه

يتمسكون بعلاقتهم به . . . وكان موريس ليثى هو شقيق افرايم سلومون - فشلت كل المحاولات التي بذلت للبحث عن السبب في اختلاف اسمى الشقيقين ، وليس هناك تفسير سوى ولع اليهود في تلك السنوات بتغيير اسمائهم لأسباب لم تعد خفية !! - وكان افرايم ، اثناء المشوار الذى قطعه مع الفتى من شارع سليمان باشا ، حيث مقهى وبار استانبيلوس ، الى ميدان العتبة الخضراء حيث محل سوسو الساعاتى ، سيرا على الأقدام ، يلح على الفتى كى يعرف منه حكايته ، وفي اقتضاب وتذمر قص عليه الفتى نفس القصة التى حكاها للخواجة استانبيلوس ، ولم يكف افرايم عن الألاح ، فراح يسأله عن السبب الذى من أجله رحله الانجليز من ليبيا . . . هنا توقف الفتى عن السير مستديراً نحو افرايم الذى هتف :

« انت خايف منى ياليثى ؟ ! »

« أنا اسمى مش ليثى !! »

« ماأنت قلت لى فى اسكندرية ! »

« أيوه . . . بس مش حاقول لك الانجليز رحلونى ليه ؟ »

هم افرايم بالحديث فلاحقه الفتى :

« لأن المصريين لو عرفوا حايدخلونى السجن تانى . . . وانا

تعبت بقى من التلطيم فى السجن ! »

عادا الى السير من جديد ولقد لفهما الصمت ، بعد بضع خطوات

كان يغمغم كمن يتحدث إلى نفسه :

« أنا تعبت وعاوز أعيش لحد مانشوف آخرتها ايه !! »

وهكذا وبهذا المنطق ، فلقد وافق فوراً ودون مناقشة ، عندما عرض

عليه الخواجة سوسو - أو موريس ليثى تاجر الساعات - ان يقدمه لتجار

الجملة لتسويق بضائعهم ، وان يضمه عندهم ، على أن تكون له
نسبة من ارباحه !

وتحقت الخطوة الثانية في الخطة الموضوعية !

.....
.....

الذي لاشك فيه أن الفتى كان ذا موهبة خارقة في التعامل مع الناس
من ناحية ، وفي تقمص الشخصيات من ناحية أخرى . . . فبعد
أسابيع قليلة لاتتعدى أصابع اليد الواحدة ، كان قد حقق نجاحاً
تجارياً لافتاً للنظر . . . كان هناك - أولاً وقبل كل شيء - تلك المساندة
التي ساندها له يهود مصر من التجار الكبار والصغار على السواء ،
انتشرت قصته بينهم بسرعة غريبة أكدها الفتى باصراره على عدم
الحديث عن هذا الموضوع أو ذكر أى شيء عن اسمه الحقيقي . . .
وكانت هناك ثانيا براءة الفتى في التأثير على من يلتقى بهم ، واتقانه
الشديد لدور المطارد المتخفى ، ولقد تحقق هذا في صورة مكتملة ،
عندما قبض عليه ذات مساء وهو جالس في مقهى وبار
« استانبولوس » !

كان الفتى قد عرف أن هذا سوف يحدث قبل أيام عندما طلب إليه
محسن أن يتحصن في الأيام القليلة القادمة بمزيد من الملابس الثقيلة ،
فلما سأله الفتى ان كان هناك تنبؤ بموجة باردة في الطريق ، ضحك
محسن قائلاً ان هناك تنبؤاً بموجة من الاعتقالات لبعض اليهود المشتبه
في نشاطهم !

لم يكن القبض على اليهود يتم في مصر لمجرد الاضطهاد . . . واذا

كانت البلاد قد مرت إبان عام ١٩٥٤ بصراع سياسى عنيف ، حتى استقر الأمر أخيراً بازاحة اللواء محمد نجيب عن القيادة ، وتولى الضباط الشبان لأمر الثورة ، فلقد كان هناك - على الجانب الآخر من الحدود - صراع سياسى من نوع آخر منذ استقالة «ديفيد بن جوريون» من رئاسة الوزارة الاسرائيلية ووزارة الدفاع فى عام ١٩٥٣ ، وتولى موسى شاريت رئاسة الحكومة ، وبنحاس لاقون وزارة الدفاع كان بنحاس لاقون تواقاً لأن يصنع شيئاً ويثبت وجوده فى مواجهة خصومة السياسيين ، وكانت اسرائيل فى ذلك الوقت تبذل قصارى جهدها كى تدمر أى علاقة بين الضباط الشبان ، وخاصة ذلك البكباشى الشديد الوطنية والاعتزاز بوطنه جمال عبد الناصر ، وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، وخاصة بعد أن أصدر عبد الناصر أوامره بمنع السفن الاسرائيلية من المرور فى خليج العقبة كان واضحاً أن مجموعة الضباط الشبان ليسوا من هذا النوع من الحكام الذين عرفتهم مصر قبل الثورة ، وعلى هذا ، فلقد قرر لاقون الاستعانة بـ « مجموعة للعمليات الخاصة » من الجيش الاسرائيلى كى تدمر بعض المنشآت الامريكية فى القاهرة ولقد وصلت المجموعة إلى القاهرة فعلاً ، ونفذت العملية التى اشتهرت فيما بعد تاريخياً باسم « فضيحة لاقون » ، لكن الشرطة المصرية استطاعت ان تقبض على افرادها ، وان تكشف اللعبة بكاملها وهكذا توتر الجو بين الحكومة المصرية وبين اليهود المقيمين فى مصر ، وخاصة هؤلاء الذين لم يكونوا يحملون الجنسية المصرية ولهذا فلقد تعددت حملات الاعتقال لليهود فى أواخر هذا العام ، وكان يتم ترحيل غير المصريين منهم ، بينما اليهود المصريون كانوا - اذا ما قبض عليهم وأفرج عنهم - يتقدمون فوراً

بطلبات للهجرة ، منها ماكان يقبل ، ومنها ماكان يُرفض لأسباب
أمنية !!

كان الفتى قد أصبح يكسب مايكفية من المال ، وعن طريقه كان
« سوسو » تاجر الساعات يجنى أرباحا هو الآخر دون جهد يبذله ،
وتوطدت علاقة الفتى بعدد كبير من يهود مصر ، أصبح يعرفهم
ويعرفونه ، وعقد بضع صداقات مع بعض التجار . . . ولقد دعاه
أحدهم ذات مرة إلى العشاء مساء يوم الجمعة فرفض في غضب ، قال
إن « السبت » يبدأ في مغرب الجمعة وينتهي في مغرب السبت ، وعرف
الجميع أنه متدين حقا ، وأنه لا يذهب إلى المعبد لمجرد التظاهر فقط كما
يفعل الكثيرون . . . كان الفتى - في البداية - يتردد على المعبد بغير
انتظام وعندما بدا أن أحواله المالية قد استقرت ، راح يتردد عليه
بانتظام ، ويتحسس الطريق إلى أصول العبادة عند اليهود ، ويقرأ في
التوراة ويتعرف على المذاهب . . . وهكذا ذاع صيته بينهم واشتهر أمره
حتى كان ذلك المساء .

كان رأفت يجلس في مقهى استانبولوس كعادته ، وبجواره يجلس
افرايم سلومون يجاذبه أطراف الحديث ، كانت حادثة تفجير بعض
المنشآت الأمريكية بواسطة ثلاثة من مجموعة العمليات الخاصة
الاسرائيلية لاتزال تزكم الأنوف ، كان الفتيان الثلاثة - افراد
المجموعة - قد حوكموا وحكم عليهم بالاعدام . . . وكان طبيعيا أن
يتحول أمثال هؤلاء إلى أبطال اسطوريين بالنسبة لليهود ، كما كانت
الاياءات التي القاها رأفت على مسامع افرايم قد اهبت خياله ، فراح
يطارد الفتى - كلما التقى به - بسؤاله عن حقيقة اسمه وعمّا فعله

بالانجليز في المغرب ، عندما توقفت سيارة « البوكس » - وهو الاسم الذى كان يطلق على نوع معين من سيارات الشرطة يجمع فيه المعتقلون - أمام المقهى ، وهبط من « البوكس » ضابط وبضعة جنود القوا القبض على رأفت وافريم معاً .

بدا الفتى رابط الجأش فى مواجهة المعاملة القاسية والسيئة التى كان يلقاها من الجنود والضابط بشكل خاص بينما كان افرايم - الذى لم توجه إليه تهمة أو إهانة أو سؤال - يرتعد فرقاً . . . لم يحملها « البوكس » الى القسم كما هى العادة ، بل حملها الى وزارة الداخلية حيث أودعا غرفة منعزلة جلسا فيها قرابة ساعتين دون أن يفتح الباب أو يوجه إليهما سؤال . . . بجوار نافذة مطلة على الطريق وقف الفتى محملاً فى الشارع بآدى السهوم ، اقترب منه افرايم مرتجفا وهو يسأله لم جاءوا بهما الى الوزارة وليس القسم كما هى العادة ؟ . . . استشعر افرايم المسكين خطراً داهماً فى مصاحبة هذا الفتى الصامت ، راح يلح عليه متسائلاً عما سيفعلونه بهما ، ظل رأفت صامتا لفترة ثم استدار نحو افرايم قائلاً فى صوت خافت :

« اسمعنى كويس ، لوحصل لى أى حاجة ، لازم تعرفوا أنا

مين ! »

وصل افرايم إلى ذروة الاستثارة .

« أنا اسمى ياكوف حنانيا ! »

ساد الصمت بينهما لثوان ، عاد رأفت بعدها يغمغم :

« اسمى ياكوف بنيامين حنانيا ! »

لفهما الصمت مرة أخرى ثم جاء صوت الفتى :

« أنا مولود هنا أنا وأختى ، أبويا قبل الحرب هاجر بينا على المغرب

لكن الألمان اصطادونا هناك ! »

التمعت عيناه الآن ببريق مخيف وهو يقول من بين أسنانه :

« لكن يا احنا يا هم . . . يا احنا يا هم ! »

ثم لم يقل الفتى شيئا بعد هذا ، عاد الى صمته ، كما كان افرايم هو الآخر قد غرق في الصمت لكن صدره كان يغلي بالتساؤلات عمن يكون « ياكوف بنيامين حنانيا » هذا ، وما الذى يفعله أو سيفعله ، صفق قلبه طربا وزايله الخوف فهو الآن في صحبة بطل لا يستهان به . . . انتصف الليل فطلب الإثنان للمثول بين يدي ضابط شرطة كان في انتظارهما يقرب أمامه فى الأوراق ، ألقى على كل منها أسئلة تبدو تقليدية ، لكنه توقف عن السؤال وهو يرفع عينيه نحو الفتى ساخرا :

« قلت لى بقى اسمك إيه ؟ ! »

« ليثى كوهين ياسعادة البيه ! »

نهض إليه الضابط مستفزا وهو يصيح :

« ليثى كوهين والا جون دارلنج ؟ ! »

نطق الضابط باسم « جون دارلنج » فكاد افرايم سلومون يسقط مغشيا عليه ، كان فى هذا الاسم الإجابة على تساؤلات افرايم وغيره من اليهود ممن كانوا يتساءلون بينهم وبين انفسهم عمن يكون ليثى كوهين ؟ !

.
.

فى تلك السنوات كان « جون دارلنج » هذا قد تحول وسط يهود مصر إلى اسطورة من الأساطير . . . كان اسمه الحقيقى - الذى لم يعرفه

أحد إلا بعد سنوات - هو « ابراهام دار » ، وهو واحد من عملاء اسرائيل الشديدي الخطر ، تخصص وبرع في أعمال التجنيد والتخريب والتجسس وتهريب الأموال وتهجير اليهود الى اسرائيل .

جاء ابراهام دار - أو جون دارلنج - الى مصر لأول مرة في عام ١٩٥٢ ، وكان كل هم اسرائيل هو استجلاب أكبر عدد من يهود العالم ، وتجنيد الشبان منهم في البلاد التي يرتعون في خيرها وينتمون اليها لأعمال التخريب أو التجسس . . . في مصر إلتقى ابراهام دار بفتاة يهودية هي « مارسيل نينو » ، ووقع كل منهما في حب الآخر ، واستطاعا معا القيام بعدد لا بأس به من العمليات السرية ، وتهريب جزء كبير من ثروات اليهود المصريين إلى الخارج ، بل . . . وتجنيد بعض شباب اليهود الذين يتمتعون بالجنسية المصرية ، وإرسالهم سرا إلى إسرائيل كي يتدربوا فيها على أعمال التخريب بالذات ، ثم إعادتهم الى مصر مرة أخرى . . . وكان من ضمن الشبان الذين جندهم إبراهام دار الجاسوس الاسرائيلي الشهير « ايلي كوهين » الذي ولد في مصر ، وزرع في أمريكا الجنوبية واعدم في ميدان عام في دمشق ، بعد ذلك بعشر سنوات بالضبط !

ويلا لف أو دوران دوخ « جون دارلنج » الشرطة المصرية وشرطة بعض بلدان أوروبا دون أن يتمكنوا من القبض عليه . . . لم يكن أحد يعرف وقتها من هو ، ماشكله ، وما اسمه الحقيقي ، وكيف يبدو؟ . . . لكن قصصه كانت تملأ آذان اليهود ورؤوسهم !

.
.

في تلك الليلة أفرج عن « افرائيم سلومون » واستبقى رأفت الهجان -
أوليقي كوهين - في الحبس !

غادر افرائيم مبنى وزارة الداخلية ، ليصبح لبقى كوهين قبل أن
يطلع النهار ، أسطورة الجالية اليهودية كلها ، وشهد مبنى وزارة
الداخلية أسرابا من الفتيات اليهوديات وهن يحملن الطعام والملابس
والحلوى لرأفت الهجان ، أوليقي كوهين ، أو ياكوف بنيامين
حنانيا . . . الذي ربما يكون هونفسه « جون دارلنج » !!

ونحن لانستطيع الجزم بأن ضابط الشرطة عندما نطق باسم « جون
دارلنج » أمام افرائيم سلومون قد نطقه عفوا - كما يؤكد عزيز الجبالي في
أوراقه نقلا عن محسن ممتاز - أو أنه قد لقن - بشكل ما وربما بأسلوب
غير مباشر ! - أن يذكر الاسم منسوباً إلى الفتى . . . وعلى كل
الأحوال ، وإذا كان الأمر مصادفة أم أنه كان مدبرا ، فلقد انفجر هذا
الذي حدث في أوساط اليهود في مصر انفجارا مدويا ، وأصبح الفتى
بين يوم وليلة ، بطلا يهوديا قوميا !

وتحققت الخطوة الثالثة في خطة محسن ممتاز !

.
.

عندما خرج رأفت من الحجز بعد بضعة أيام ، كان يبدو منهكا
مجهدا ، لكنه استقبل من الجالية اليهودية بالقاهرة استقبالا فاق كل
التوقعات ، وفتحت له كل الأبواب ، ووجد ترحيبا من الجميع ،
وعروضا سخية ، لكنه بصرامة المناضل ، رفض الارتكان إلى
الأخرين ، وعاد يمارس عمله كقمسيونجي رغم أنه قدم - مثله مثل كل

اليهود المصريين الذين يقبض عليهم - طلبا للهجرة ، ولكن الطلب رفض ، وأحدث رفض الطلب دويا آخر وسط الجالية ، وارتفعت أسهم رأفت أكثر !

في تلك الأيام كم ضحك محسن ممتاز مع حسن صقر وهما يتحدثان عن الحسان اللواتى التفنن حول الفتى في تهافت وتهالك جعلاه يشعر بالامتلاء ، فلقد كانت نقطة ضعف الفتى هى النساء !

في أواخر عام ١٩٥٤ انتحر واحد من افراد مجموعة العمل الخاصة الذين قبض عليهم في عملية لاثون ، وفي مستهل عام ١٩٥٥ نفذ حكم الاعدام في الاثنين الآخرين . . . فارتفعت أسهم الفتى وذاع اسمه في كل مكان وتخطى هذا الاسم - بالتأكيد - الحدود الى الخارج ، وتكرر إلقاء القبض عليه ، وتكرر تقديمه لطلبات الهجرة وتكرر الرفض !

. حتى كان يوم دخل فيه رأفت إلى إحدى الوكالات الكبيرة في شارع الأزهر ، كان صاحب الوكالة واحدا من أثرياء اليهود الذين يشار اليهم بالبنان ، وكان رأفت ذاهبا لعمله عندما قيل له إن « الخواجة » يريد أن يراه !

كان الفتى قد تعود ألا يطلب أحد من كبار اليهود مهما كان الأمر ، هو يذهب الى الوكالة أو المحل فيحاسب ويحاسب وينهى عمله مع الموظفين ويعقد معهم الصداقات ثم يغادرهم حاملا حقيبتة المكدسة بالعينات والبضائع . . . ولم يكن قد التقى بهذا الخواجة من قبل سوى مرة واحدة وكانت مصادفة ، ورغم صيته المدوى فلقد تجاهله الخواجة فتجاهل هو الخواجة بدوره . . . في ذلك اليوم تظاهر أمام الموظفين

بالدهشة وإن كان قلبه يزغرد بالفرحة ، كان محسن يقول له إن « واحد من الكبار » لابد أن يطلب مقابلته ذات يوم ، وها هو ذا الواحد يطلبه فيتبع الموظف وسط بالات الاقمشة وصناديق البضائع المكدسة في الممرات والحوش الخلفى للوكالة ، حتى نفذ من باب الى ممر شبه مظلم في نهايته باب نقر عليه الموظف في رفق ، ثم دلف الى الداخل وانتظر الفتى في الخارج ، سمع همهمة جاء بعدها صوت رفيع حاد ثاقب يقول :

« خليه يدخل ! »

ظهر الموظف عند الباب مفسحا الطريق لرأفت الذى خطا إلى غرفة واسعة قد امتلأت - رغم قدم الجدران البادى - بكل ماهو ثمين سمع صوت الباب يغلق من خلفه في رفق ، وقعت عيناه على رجل صغير الحجم حتى لكأنه يتلاشى غارقا في المقعد الهائل خلف مكتب كبير المساحة ، ثقب صوت الرجل الحاد أذنه :

« تعالى يياكوث اقعده قدامى هنا علشان اشوفك كويس ! »

اضطرب قلب الفتى فها هو اسمه الحقيقى المزعوم يكرس عند قمة المجتمع اليهودى في مصر ، وهامى كل توقعات محسن ممتاز تتحقق فى تؤدة من يعرف قدر نفسه خطأ الفتى نحو مقعد مواجه للمكتب وهم بالجلوس عليه ، لكن الصوت الحاد عاد يثقب أذنه :

« لأمش هنا تعال على الكرسى ده علشان أشوفك كويس ! »

على المقعد الذى أشار اليه الرجل جلس رأفت فى مواجهة مصباح كهربائى كبير فوق المكتب ، غمر الضوء وجهه والتفت نحو الرجل

الذى كان وجهه يقع عند أطراف دائرة الضوء فإذا به عجوز تجاوز
الستين ، وإذا عيناه زرقاوان باردتان كالثلج ، راح الفتى يتملاه كما كان
الرجل يحمق في وجهه في صمت . . . إذن فهذا هو الخواجه صروف «
ثعلب التجارة في الأزهر والموسكى المشهود له بالكفاءة من الجميع ...
عاد الصوت يثقب سكون الغرفة :

« أنت مين ؟ ! »

ركض قلب الفتى بين ضلوعه ، فها هو يواجه امتحانا عسيراً ،
ابتسم ساخراً وهو يقول :

« ما انت ناديتنى باسمى ياخواجه ! »

انغrust نظرات الرجل الثلجية في لحمه ولم ينطق ، فعاد الفتى
يقول :

« ياكوف بنيامين حنانيا ! »

إزداد بريق العينين الثلجيتين ولزم الرجل صمتاً ثقيلاً جثم على صدر
الفتى فاخرج سيجارة واشعلها وراح يتلهى بها في الغرفة من اثاث
وتحف ، طال الصمت لدقيقة وبعض دقيقة حتى داخل الفتى قلق
غامض ، أحس - لسبب ما - وكأن الأرض تنفتح تحت قدميه إلى هوة
بلا قرار ، لمعت في ذهنه حقيقة غابت عنه ، فهل غابت عن محسن
أيضا ؟ ! . . . إذا كان أبوه المزعوم الخواجه « بنيامين حنانيا » تاجرا
متجولا في ريف مصر ، فانه بالقطع كان يشتري بضائعه من أمثال هذه
الوكالة وهذا الخواجه صروف المحمق فيه المتمعن في ملامحه ، الدارس
لوجهه . . . فهل كان الخواجه يعرف أباه المزعوم ؟ !

« أنا قلت لأبوك يقعد هنا أحسن له ، مارضيش يسمع الكلام ! »

دق قلب الفتى في عنف أوجع ضلوعه ، اجتاحتته سعادة بالغة

عقدت لسانه تماما ، كان يعلم علم اليقين أن جملة الخواجة صروف
هى جواز سفره إلى عالم اليهود المجهول والغامض . . . وعندما كان
يغادر الوكالة إلى شارع الأزهر بكل ضجيجيه وأصواته ، كان يشعر
بالزهو يملؤه . . . كان يعرف الآن ، أنه اجتاز الامتحان الصعب ،
بتفوق لاشك فيه !



وهكذا . . . عندما التقى الفتى بمحسن فى ذلك المساء من
أمسيات الأيام الأخيرة من يناير عام ١٩٥٥ ، فى تلك السيارة السوداء -
الأمريكية الصنع ذات الماركة التى اشتهرت فى مصر فى تلك الأيام -
كان يحمل معه هذا النبأ وهو يكاد يرقص طرباً وفرحاً وفخراً . . . وكان
أيضاً يحمل طلباً محدداً !

ولقد فشلت كل المحاولات لمعرفة الأماكن التى كان محسن يلتقى
بالفتى فيها غير السيارة . . . لكن الأمر المؤكد أن محسن - فى نفس تلك
الليلة - كان يحمل هو الآخر إلى الفتى خبراً هاماً . . . وكان الخبر فى
حاجة إلى حوار قد يطول ، ومواجهة قد تلزم ، لذلك . . . فلقد قاد
محسن السيارة فى دورة مركبة ، حتى إذا أصبح فى ميدان «سانت فاتيما»
الشهير بمصر الجديدة ، انحرف يمينا واتخذت السيارة فى الشارع
المرصوف - الخالى إلا من بضع عمارات متناثرة تفصل بينها مساحات
خالية من الأرض الصحراوية - مسارها فى سرعة راحت تتباطأ تدريجاً
حتى وصلت إلى بيت فى آخر الشارع مكون من طابقين فقط . . .
فى الطابق العلوى من هذا البيت استقبلها «عم عبدة» بحرارة
ناعسة ، فلقد كان الرجل نائماً عندما وصلا ، صنع لهما كوبين من

الشاي ثم استأذن لمشوار يشترى فيه بعض اللوازم ، وانصرف .
كان رأفت قد تعود أن يحمل معه ، كلما كان على موعد مع محسن ،
تقريباً عما فعله وعما حدث طوال الأيام التي انقضت منذ لقائه الأخير
به... وكان محسن في كل مرة ، يضع التقرير في جيبه ثم يطلب إلى
رأفت أن يقص عليه ما حدث بالتفصيل... كانا طوال الطريق
صامتين ، وبينما كان الفتى يبدو قلقاً متعجلاً يريد أن يفضي بها لديه
من أبناء عن لقائه بالخواجه صروف ، كان محسن يبدو صامتا جامدا
كتمثال... وعندما انصرف « عم عبده » أخرج رأفت التقرير وقدمه
إلى محسن قائلاً :

« دلوقت اقدر أقول لك أنى جاهز !! »

دس محسن التقرير استعداداً لجولة طويلة من حوار كان يعلم مدى
مشقته :

« جاهز لاية ؟ ! »

في زهو صاح الفتى :

« جاهز انى أجيب لك أخبار اليهود اللى فى مصر واحد واحد ! »
انتظر الفتى أن يدهش محسن ، أن يسأله عما حدث وماذا
يقصد... وكان محسن الآن يجد نفسه مدفوعاً نحو الهدف دون
تمهيد ، بل لقد رأى الفرصة تسنح وكان لا بد من انتهازها فقال :

« مش ده اللى أنا عاوزه منك ! »

لم يخف الفتى دهشته :

« مش فاهم ! »

« أنا مش عاوز منك أخبار اليهود اللى فى مصر ! »

هبط السكون ثقيلًا على الغرفة ، كانت عينا محسن مسددتين الى
عيني الفتى ، وكان هذا يقدهح ذهنه بعنف في محاولة يائسة للفهم ،
عاوده ذلك الاحساس بأن ثمة هوة تفغر فاها تحت قدميه :
« برضه مش فاهم ! »

« انا عازو منك أخبار اليهود اللي في اسرائيل يارأفت ! »

.....
.....

قال الفتى فيما بعد إنه أحس في تلك اللحظة أن يدا تعتصر قلبه
اعتصارا . فلقد كانت هذه هي المرة الأولى - منذ أن التقى بمحسن
ممتاز في قسم الزيتون - التي يسمع فيها اسمه الحقيقي من فم محسن ،
كان قلبه يركض الآن بعنف ، وكان لسانه معقودا ، ورأسه خاليا من
كل شيء وأي شيء . . . فقط ، وجه محسن المنحوت في صخر من
مسئولية جسيمة والذي أشعل سيجارة في هدوء وهو ينهض سائرا في
الغرفة جيئة وذهابا ، لم تكن هذه عادة محسن مع الفتى لكنه الآن كان
يفكر في عمق ويتحسس الطريق في حذر :

« أنا مش عاوزك ترد على طول ، انا عاوزك تفكر كويس ! »

لم يرد الفتى ، تعلقت عيناه بمحسن وهو يشعر بوزنه يخف ويخف
وكأنه يسبح في فضاء :

« اذا لقيت نفسك - بعد التفكير - مش حاتقدر ، مايمكش ، انت

ممكن تخدم مصر وانت فيها برضه ! »

في لوعة من لا يصدق هتف الفتى باسمها :

« مصر ؟ ! »

« ايوه يارأفت . . . بس اللي أحب أقول لك عليه ، ان مصر

« محتاجه لك ! »

« وانا رقبتي سداة ! »

قالها الفتى فى بساطة تجرح القلب . . . هتف محسن متقدما اليه :

« لأ . . . أنا عاوزك تفكر ! »

« باقول لك رقبتي سداة !! »

« يارأفت . . . »

انتفض الفتى واقفا مواجهها إياه :

« انا اسمى ليقى كوهين يامحسن بيه ، واسمى الحقيقى اللى نادانى

بيه النهارده الخواجة صروف صاحب وكالة صروف وشركاه اللى فى

الأزهر هو ياكوف بنيامين حانيا !!! »

حملق محسن فى وجه الفتى ، كان الخبر الذى زفه اليه الآن مهولا ،

جهد لثوان فهو يعرف الخواجة صروف جيدا ويعرف مقداره وسط أفراد

الجالية ، تقدم من مقعده وجلس فى مواجهة الفتى قائلا :

« اقعد يارأفت وقول لى إيه اللى حصل ! »

« طلع إنه يعرف أبويا !! »

من المستحيل أن تصل دقة التخطيط الى هذا الحد . . . عا درأفت

يقول :

« وقبل أبويا الخواجة بنيامين حانيا ميسافر ، صروف نصحه انه

ميسافرش وانه يفضل فى مصر لكن هو اللى ركب راسه ! »

كانت كلمات الفتى ثمينه كاللؤلؤ !

« انا أصلى النهاردة الصبح رحى الوكالة أورد قرشين واستلم طلبية

وشوية عينات ، لقيتهم بيقلوا لى أن الخواجة صروف عاوزنى !! »

و . . . وراح الفتى يقص على محسن ممتاز نتيجة جهد تواصل بالليل

والنهار لسته أشهر كاملة !

كان الفتى شامخا لدرجة أعجرت محسن - فيما بعد - عن التعبير عما كان يراه ... كان وهو عائد إلى بيته - في تلك الليلة المشهودة - يفكر في هذا الفتى الذى لم يجد من أهله ووطنه الا الأذى ، ورغم هذا فما إن سمع أنهم - الأهل والوطن - فى حاجة اليه ، حتى وضع رأسه على كفه !
يا لهذا الوطن الذى ينتمى اليه ...

فى بعض الاحيان كان يشعر بأنه يعمل حتى الموت ، وأنه شارك فى صنع ثورة ، وأنه يشارك الآن فى صنع مستقبل لأمة ... وإذا بفتى أفاق أهتصره الزمن والعمر القليل السنوات اهتصارا ... يعطى للوطنية والفداء قيما أكبر بكثير مما كان يظن أو يفكر أو يحس !

ولقد أوى محسن إلى فراشه لكنه لم يستطع النوم ... كان جسده مكدودا ، وعظامه تؤلمه بعد عمل يوم شاق ، لكن عقله كان صاحيا ! ..
نهض من الفراش وغادر غرفة النوم إلى غرفة المكتب ففاجأه رنين جرس التليفون ، نظر الى الساعة وكانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل ولا بد أن المتحدث هو زميله ورئيسه وصديقه حسن صقر ، ولا بد أن فكرة طرأت له ، أو أن هناك عملا يريد منه أن يؤديه فى الصباح الباكر وبشكل عاجل ... رفع سماعه التليفون فانقطع الرنين وعاد السكون يلف البيت من جديد :

« ألو... !! »

« سعادة اللواء محسن ممتاز ؟ ! »

جاء الصوت جادا كل الجد فانتفض ، لم يكن محسن ممتاز لواء فى ذلك الوقت وهو لم يصل إلى رتبة اللواء فى حياته أبدا ... استشعر الخطر وفى نفس الوقت استشعر الحذر فقال :

« انا محسن . . . مين بيتكلم ؟ ! »
« لامؤاخذة يا أفندم . لحظة سعادتك معايا ! »
ثوان وجاءه صوت رأفت عبر الساعة :
« مساء الخير يا أبيه محسن ! »

« مين بيتكلم ؟ ! »
« أنا رأفت الهجان ! ! »
صرخ صوت في داخل محسن ان كارثة توشك أن تهدم كل شىء ،
فيكف يذكر الفتى اسمه الحقيقي في التليفون ؟ ! . . . طال الصمت
لثوان عاد بعدها الفتى يقول :

« انا رأفت الهجان يا أبيه ! »

« انت بتتكلم مين ؟ ! »

« من نقطة كوتسكا ! »

كانت نقطة شرطة كوتسكا لاتبعد عن مقهى استانبيلوس سوى
بضع عشرات من الخطوات ، وكان معنى تواجد الفتى في نقطة الشرطة
القريبة من مركز انطلاق الفتى أن كارثة قد وقعت .

« ايه اللى وداك النقطة ! »

وكان الذى حدث شيئاً بسيطاً ، لكن كان كفيلاً بهدم كل شىء !

الفصل العاشر

**ديفيد شارل سمسون
يعود إلى الحياة**

عندما افترق الفتى عن محسن في تلك الليلة ، كان مفعما بأحاسيس
لاقبل له بها . . . بدا له الأمر كنوع من الهلوسة . . . كان معنى
ماسمعه من محسن ممتاز ان عليه أن يسافر الى اسرائيل ، وأن يعيش في
قلبها يهوديا اسرائيليا مؤمنا بالصهيونية ، أن يقطع كل صلة له
بمصريته ، بل أن يجارها في الظاهر ! . . . فهل يستطيع ؟ !
كانت دهشته بالغة عندما وجد محسن يقف أمام موافقته السريعة
على السفر موقف المعارض ، وهو لايدري - في الحقيقة - كيف وافق ،
وكيف - حتى وهو وحيد في جوف الليل يستمع الى عجلات المترو
الرتيبة وهي تحمله من أطراف المدينة الى وسطها - أنه لايزال موافقا رغم
كل مايكتنف الأمر من مخاطر مؤكدة وليست محتملة !

وهو لايدري لم الحماس المتأجج في صدره للسفر وحتى . . . حتى
عندما سأل محسن في لحظة أثناء الحوار ، عما يمكن أن يحدث له في

اسرائيل لو أنهم اكتشفوا أمره وعندما ابتسم محسن وهو يقول
إنهم لا يمكن أن يكتشفوا أمره لو أنه اتبع التعليمات بدقة ولم يتمرد عليها
وكان حريصا في تصرفاته مفتوح العينين في علاقاته عاد الفتى يلح:
« يا محسن بيه جل من لا يخطيء افرض افرض إنى
غلطت وانكشفت حايعملوا في ايه ؟ ! »

في صرامة واستقامة قال محسن :

« ممكن يعدموك ! ! ! »

قال الفتى فيما بعد إنه عندما سمع ماسمع لم يفكر كثيرا في الأمر ،
بل إنه حاول أن يفكر ، بل حاول - في بعض اللحظات وأمام محسن
شخصيا - ان يتراجع ، لكنه لم يستطع ، كان يشعر وكأن قدرا مجهولا
يدفعه دفعا الى الذهاب الى هناك لم يكن الفتى سياسيا ولم يكن
بالتالى مهتما بالسياسة وربما كان ايضا لا يفهم في السياسة ولا يريد ،
لكن الذى قرأه وسمعه عما فعله اليهود بالعرب في فلسطين ، كان
يستفز - على حد قوله - الحجر الأصم ! ! ثمة شىء آخر كان يحز
في نفس الفتى ، هو ذلك العدااء الغريب الذى كان يستشعره من
بعض يهود مصر ، رغم أنهم مصريون ، نحو المصريين كان قد
عاش حياته منذ أن ولد ووعى وعرف وتعلم في المدرسة ولعب في
الشارع ومع أقرانه ، لا يفرق بين مسلم ومسيحى أو يهودى كان
اليهود في مصر مثلهم مثل الآخرين ، يعملون ويكسبون المئات أو
الألوف وبعضهم يكسب ملايين الملايين كانوا شطارا وكان -
كالجميع - يتندر بشطارتهم كانوا حريصين ، وكان حرص اليهود
مشار تندر العالم كله لا المصريين أو العرب وحدهم ! ولكنه ،
وعندما بدأ خطواته الأولى في عمليته هذه ، وتسلسل الى صفوفهم كواحد

منهم ، راح يكتشف كل يوم ذلك الحقد الدفين على كل ما هو مصرى
وتلك الكراهية المتأصلة لكل ما هو عربى !

ولقد استفزه هذا ، وربما استشعر مما رآه منهم خطرا عظيما على بنى
وطنه ، فلم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة ، قال لمحسن :
« اذا كانوا بيكرهونا بالشكل ده وهم هنا . . . آمال لما يروحوا هناك
حايكرهونا ازاي ؟ ! »

كان يحاول الهروب من المناقشة مع محسن الذى عاد يلح :
« برضه أنا مش عاوزك تاخد قرار دلوقت يارأفت ! »
كان سعيدا سعادة غامرة وهو يسمع اسم « رأفت » من محسن
بالذات !

« يا محسن بيه أنا أخذت القرار وخلاص ! »
« اذا كنت فاكرا ان عدم موافقتك ممكن ترجعك السجن تانى تبقى
غلطان ! »

حاول أن يرد لكن محسن اوقفه بإشارة من يده وهو يميل نحوه :
« لازم تفهم إن اعتبارك حايتردلك سواء وافقت على السفر لاسرائيل
أولاً ! »

تقدم منه خطوة ، وضع يده فوق كتفه فى حنان واستطرد :
« كل اللى حصل قبل كده حايتنسى تماما وكأنه مكانش ، واذا
حببت تبدأ فى مصر ، حاتبدأ وصحيفة سوابقك نظيفة تمام ! »
كان الفتى يشعر بسعادة حقيقية ورياضة وهو يستشعر ذلك التحرر
من جرائم ظلت تطارده بذنب وبدون ذنب ، وهاهى الفرصة تأتيه على
طبق من فضة كى يبدأ من جديد ، ولكن . . . ولكنه كان قد اتخذ
قراره وانتهى الأمر !

وعلى كل . . .

فلقد تركه محسن كى يفكر على مهل ومازال هناك متسع من الوقت إن هو اراد أن يتراجع . . . ولقد كان محسن يعلم أن الصاق اسم « جون دارلنج » بالفتى ، قد صنع له وسط اليهود مكانة لم يحلم هو نفسه بأن يصل اليها بهذه السرعة . . . راح يضع معه خطة لما هو قادم من أيام . . . عليه أن يتغلغل أكثر ، يتغلغل لما هو أبعد وأعمق . . . إن العصابات اليهودية منتشرة دوليا وهى تستعمل كل الأساليب الشريفة وغير الشريفة كى تنهب تلك الأموال ، إن تهريب أموال اليهود من مصر محاولة لهدم الاقتصاد المصرى . . . وما « جون دارلنج » هذا ، الا مغامر صهيونى تخصص فى تهريب اليهود والاموال معا ، لا أحد يعرف اسمه الحقيقى ولا جنسيته ولا كيف يبدو . . . تضاربت الاقوال من حوله ولكن يحميه أن اليهود فى كل مكان يشكلون له سواتر تقيه المطاردة الحقيقية أو انكشاف أمره فى أية دولة كانت . . . لم تكن الشرطة المصرية وحدها هى التى تسعى خلف « جون دارلنج » ، بل الشرطة فى عديد من بلدان أوروبا أصبحت تطلبه وتطارده . . . وعلى ذلك ، فمطلوب من رأفت ألايتهدى فى انتحال شخصية « جون دارلنج » ، بل لا بد له ان ينفى هذا بعنف ، إن نفيه ، سوف يزيد إيمانهم بأنه هو !!!

المهم الآن ، وفى الأيام القادمة ، أن يكون الفتى شجاعا معهم ، مخلصا لقضيتهم ، وأن يشترك فى تهريب أموالهم إلى الخارج . . . سوف يضع له محسن خططا تساعد فى تهريب كميات بسيطة من المال كى يتحول بعدها الى موضع ثقة بلا حدود . . . ثم يصبح عليه بعد هذا أن يشارك فى الصفقات الكبيرة ، التى تطمح الدولة فى ضبطها

حتى لا تخرب في اقتصادنا وتزيدنا فقرا على فقر ولسوف يسجن
مرة أخرى وثالثة ورابعة وعليه أن يحتمل مهما بلغت المضايقات ، فلقد
اختفى اسم « رأفت على سليمان الهجان » من سجلات الشرطة تماما
، ولكن هناك - في تلك السجلات - ملفا مكتظا لشخص أصبح
شديد الخطر في عرف رجال الأمن ، هذا الشخص هو : « ياكوف
بنيامين حنانيا »

« يا نهار اسود »

« ايه مالك ؟ ! »

« هم عرفوا الاسم ده ؟ ! »

« طبعا ، انت فاكرهم بيلعبوا ؟ ! »

عليه أن يترك نفسه لقدره فيما بين اليهود ، وأن يستسلم لهذا القدر
استسلاما كاملا ، ثم . . . عليه أن يحذر وأن يحرص أشد ما يكون
الحرص من علاقاته التي تعددت وتشعبت مع فتياتهم !!!
« يا سعادة البيه »

قاطعته محسن في صرامة :

« تقدر تنكر ده ؟ ! »

ابتسم رأفت في حياء :

« لأما انكرش بس »

قال الفتى هذا لكنه لم يكمل حديثه ، كانت نظرات محسن الآن تعريه
من ملابسه . . .

« لازم تعرف يا رأفت ، ان دي نقطة ضعف ممكن توديك في داهية ! »

اتسعت ابتسامته الثقة على وجه الفتى هاتفا :

« ماتخافش علىّ يا محسن بيه ، انا برضه »

« انت انسان أولا وأخيرا ، والمغريات كثير حواليك ، ويمكن تقع في الحب !! »

صاح رأفت :

« أهوده اللى مش ممكن يحصل ! »

« ازى ؟ ! »

« لانى لو فرض وحببت واحدة ، حاحبها هى فلانة بنت الخواجة فلان ، حاحبها هى... لكن هى حاتحب واحد تانى غيرى ، حاتحب ياكوف أوليغى مش رأفت ... ازاي أحب واحدة بتحب واحد تانى ؟ ! »

مرة أخرى يجد محسن نفسه أمام منطق حكيم لا يتناسب مع سن الفتى وإن كان يتناسب مع خبرته الأليمة بالحياة ، فلاذ بالصمت لثوان ، ثم غير مجرى الحديث !!



صدر عن « فراوسمخون » فى جلستها أمام عزيز الجبالى فى تلك الغرفة المتواضعة الأثاث فى مبنى المخبرات العامة المصرية ، صدر عنها أنين أوقف عزيز عن الاسترسال فى الحديث ، رفع رأسه نحوها وكانت عيناها تلتمعان بدمع حائر... بدت نظرة عزيز متسائلة ، فابتسمت هيلين وهى تخرج منديلا رقيقا من حقيبة يدها جففت به الدمع وهى تقول :

« هر جبالى... إن ماتقصه على الآن يفسر لى الكثير مما كان يبدو لى غامضا ! »

قال عزيز :

« أرجو الا أكون قد نكأت جراحا كادت تندمل ؟ ! »

« عندما أنجبنا طفلنا الأول ، كان ديثيد ، أقصد رأفت ، سعيدا
سعادة بعثت بالدهشة الى نفسى . . . لكنه فى نفس الوقت كان يبدو
قلقا بصورة أزعجتنى ، ولقد سألته عن سر قلقة فلم يجب بشىء . . .
لكنه كان يردد بين الحين والحين سؤالا بدا لى غريبا ، وكان يردده فى
حيرة ، وأحيانا فى توسل . . . كان يسألنى إن كنت أحبه حقا
؟ ! . . . فى الوقت الذى كنت أذوب فيه حبا اذا مالمستنى أطراف
أصابعه ! ! »

اختنق صوتها بدمع كان يتدافع الى عينيها ، وطال بينهما الصمت
للدقائق حتى استردت هيلين نفسها ، فقالت :
« لنعد الى ما كنا فيه ، فلست راغبة فى أن آخذ من وقتك أكثر مما
تعطينى ! »

ولم يرد عزيز احتراماً لذكرياتها ، وعاد الى الحديث مرة أخرى .



قال الفتى فيما بعد يصف حالته بعد أن ترك محسن فى تلك الليلة ،
إنه كان يشعر بثقة لا حدود لها ، أحس أن الدنيا تصالحه أخيرا ، وكان
. . . ولأول مرة فى حياته يشعر بهذا الفخر الزاهى يغمره . . . بدت
له شوارع القاهرة وكأنها جديدة تلمع . . . ازداد إحساسه بهذه الجدة
وهو يغادر قطار المترو فى وسط المدينة ويقطع الطريق من شارع عماد
الدين الى شارع سليمان باشا حيث مقهى وبار استانبيلوس سيرا على
الاقدام . . . أخيرا ، هاهو ذا يجد لنفسه مكانا وسط هذا المجتمع ،
حتى ولو كان هذا المكان بيتا فى أرض الأعداء ! !

التقى فى المقهى بافرايم سلومون الذى كان يراه فيلتصق به ولا

يغادره حتى ينتزع الفتى نفسه منه انتزاعا . . . ثرثر معه لساعة وبعض الساعة ، ثم استشعر رغبة عارمة في الانفراد بنفسه ، لم يكن يعرف متى يأذن له محسن بالسفر ، لكنه يعرف يقينا - الآن - انه سيذهب الى اسرائيل ذات يوم ليس ببعيد !

منذ اللحظات الأولى لوصول الفتى الى المقهى ، أحس « افرايم سلومون » أن بطله مشغول الليلة بأمر هام وبالقطع غامض . . . حاول هذا الفضولي أن يحترم صمت الفتى لكنه لم يستطع ، فسأله عما به وهل هو مريض أو يشعر بوعكة ، زفر رأفت وهو يقول في صوت خافت :

« أنا ماليش عيش هنا يا افرايم ! »

في لهفة استعداد افرايم للسمع .

« انا لازم أهاجر بقى ، لازم أسافر اسرائيل ! »

هم واقفا مستعدا للانصراف :

« مش أنا بس . . . اليهود كلهم لازم يمشوا من البلد دى ! »

استأذن من افرايم ، فتركه هذا لحاله مقدرًا لما يشغل باله من هموم

قومية ! !

.

.

في شارع سليمان كان يخطو مبتعدا عن المقهى وذهنه مشغول بما حدث ، كان في طريقه الى البيت الذى عاش فيه شهورا وألف الطريق اليه فاستغرق في التفكير وترك لساقيه حرية قيادته الى هناك . . . اصطدم أثناء سيره بشابين كانا يهرولان هربا من صقيع الليل ، التفت نحوهما ، كما التفتا هما نحوه . . . بادرهما على الفور :

« انا متأسف ! »

قالها . ثم سقط قلبه بين ضلوعه .
فلقد جمد الشابان في مكانها الذي تصادف أن كان تحت أحد أعمدة
النور ، هتف احدهما في صاحبه :
« شايف ده مين يا دكتور ؟ ! »
لكن الدكتور كان الآن قد أطبق بكلتا يديه في خناق رأفت صائحا
من بين أسنانه :
« والله وقعت يارأفت ياهجان ! »

ارتد بصر الفتى من حيث جاء ، ارتد بصره الى حيث مقهى
استانيلوس الذى لا يبعد سوى خطوات . . . لم يكن يعنيه شىء في
الدنيا - الآن - إلا أن يتعد عن هذا المقهى وأى من رواده الذين يعرفونه
ويعجبون به ويحبه بعضهم كبطل قومى يلقي العذاب من أجلهم . . .
كان الطريق خاليا حقا ، لكن أصوات الشابين راحت تتصايح في
سكون الليل متهمة إياه بالنصب والاحتيال عليها وإعطائها شيكا بلا
رصيد !

حدث هذا في باريس !

تذكر رأفت الشابين فور رؤيته لهما ، كيف ينسى تلك الأيام السوداء
التي دفعتها الى الهرب من الولايات المتحدة الى كندا ، ثم الهرب من
كندا الى باريس . . . كانت الدنيا تدفعه نحو الجريمة دفعا ، ولقد
قاوم طويلا ثم قرر أن يواجهها . . . فهل كان كل هذا الذى حدث
طريقا مرسوما بقدر غامض ومثير كى يوصله في النهاية الى يدي محسن
ممتاز ؟ ! . . . نعم احتال عليها وأعطاهما شيكا بلا رصيد في مقابل
بضع مئات من الفرنكات ساعدته على الهرب الى انجلترا من

جديد كان لا بد له من التخلص - بسرعة - من تلك الوقفة في عرض الطريق وتصايح الشابين الذي أوقف عددا من المارة كانوا يتكاثرون مع كل دقيقة تمر وهم يشاهدون نوعا من الصراع غير المتكافئ بين شابين أمسكا بتلابيب ثالث عقدت الدهشة لسانه ! لكن رأفت وجد الحل عندما ظهر أحد رجال الشرطة صائحا من بعيد :

« ايه الحكاية يا بهوات ! »

هكذا سأل الشرطي ، فصاح رأفت :

« أنا عاوز اروح القسم يا شاويش ! »

كانت نقطه كوتسكا التابعة لقسم قصر النيل لا تبعد أكثر من بضعة عشرات من الخطوات ، هذا كل ما كان يهم رأفت في تلك اللحظة لم يكن يبغى الا أن يبتعد عن شارع سليمان باشا وأن يختفى عن الأنظار في أحد الأزقة أو السجون سيان !! على البعد لمح في الضوء الخافت للطريق بعضا من رواد استانبيلوس يغادرون المقهى وكانت الأصوات بالقطع تصل إليهم وكان بعضهم يتقدم من الجمع والصياح ، هذا البعض لا بد يعرفه ، فالجميع هناك الآن يعرفونه معرفة وثيقة ، وليس بعيدا أن يكون افرام سلومون من بينهم فهذا هو طريقه في المساء عند العودة الى البيت كان لا بد من التصرف بسرعة فهاهى الاخطوات وينكشف أمره ويهدم هذان الشبان كل ماراحا - محسن وهو - بينيانه في شهور اكتظت بالأحداث .

انقض الفتى على أحد الشابين بكلتا يديه وأنشب أصابعه في خناقه دافعا به نحو زميله في عنف مفاجيء :

« انتوا عاوزين منى ايه ؟ ! »



كان لا بد من تصعيد الموقف حتى لاتطول الوقفة ، احتدم اشتباكهم وصاح أحدهما :

« وكم إن لك عين يا حرامى ؟ ! »

« انا حرامى ؟ ! ... أنا أعرفك منين ! ؟ »

أحس الشرطى بأن وجوده لا بد أن يثبت كما ينبغى فامسك بيد الفتى - لأنه كان يبدو أضعفهم ، ولأنه كان المتهم أيضا ، ولأنه بادر بالعنف قبل الآخرين - فى عنف جاذبا إياه نحوه :

« كل واحد يلزم حده !! »

« مش سامع بيقولوا علىّ ايه يا شاويش ؟ ! »

« اللى عنده كلمة يقولها فى القسم ! »

همّ أحد الشابين بالصياح فنهزه الشرطى :

« انتو مش بتقولوا انه نصب عليكم ؟ ! »

« وكان عامل ثرى أمثل فى باريس وشايل لى دفتر شيكات ! »

« يبقى تقول الكلام ده لحضرة الضابط فى القسم !! »

قال هذا وهو يلتفت الى الذين تجمعوا من حولهم صائحا بصوت مלא

فراغ الليل :

« وبلاش تجمهر فى ساعة زى دى ، وكل واحد يروح لحاله أحسن

له ! »

مرة أخرى يلعب الحظ لعبته مع رأفت على سليمان الهجان الذى

أصبح الآن ياكوف بنيامين حنانيا الشهير بليقى كوهين . . . كانت

الأحداث السياسية فى مصر فى تلك الأيام عنيفة ، كانت هناك

اعتقالات ومحاكمات وصراع سياسى دفع حكومة الثورة الى تطبيق قانون

الأحكام العرفية ، ومنع التجمهر فى الطريق العام . . . ولذلك ، ما

أن سمع الذين توقفوا « للفرجة » مقاله الشرطى حتى انصرفوا طالبين
السلامة ، أراد الجندى أن يؤكد سلطانه على هؤلاء الأفندية فقال ما قال
وهو يعرف أنه ينفذ القانون فى صرامة . . . وعلى الفور ، وافق الشابان
على الذهاب إلى القسم ، بل لقد رحبا بتنفيذ هذا فوراً ، فلقد كان
ما حدث تجمهراً وكانا هما السبب فيه . . . وبدأ الركب يتحرك نحو
زقاق جانبى كان يوصل إلى نقطة كوتسكا . . . وما ان ابتعدت رأفت
خطوات عن الشارع ، حتى تنفس الصعداء !

فى القسم واجهه الشابان بالتهمة أمام ضابط صغير السن والرتبة ،
كان الموقف بالنسبة إليه محيراً ، انتهى الشابان من سرد حكاية الشيك
الذى اعطاهما الفتى إياه بعد أن أخذ منها مبلغاً لا بأس به من
الفرنكات الفرنسية ، ثم عندما ذهباً لصرف الشيك اكتشفاً أنه بلا
رصيد . . . بحثاً عنه فى طول باريس وعرضها ، لكنه كان كفص ملح
ذاب فى محيط . . . التقيا به منذ دقائق مصادفة ، وهما الآن يريدان
للنانون أن يأخذ مجراه !

التفت الضابط نحو الفتى متسائلاً :

« انت اديتهم شيك بدون رصيد ؟ ! »

لم يكن رأفت يسمع ما كان الشابان يقولانه ، كان يعرفه . . .
ولذلك ، فى الدقائق التى مضت ، كان هو يقدر ذهنه قدحاً باحثاً
عن مخرج . . . لم يكن الأمر يحتمل انتظاراً ولا تأجيلاً . . . تذكر
رقمى تليفونى محسن فى البيت والمكتب ، لم يكن - قبل هذه الليلة - قد
احتاج إلى أن يطلبه فى التليفون فلم يفعل ، كان يستشعر لذه فائقة فى
الالتزام بتعليمات محسن . . . وهامى ذى لحظة رعناء ، ومصادفة
عشواء ، يبعثها الماضى بكل مافيه . . . فهل تعاوده نوبات من سوء

الحظ مرة أخرى ؟ ! جاءه صوت الضابط سائلا :
« يااستاذ ! »

أفاق رأفت مما كان فيه ، التفت نحو الضابط مبتسما :

« أفندم ! »

« أنت اسم حضرتك ايه ؟ ! »

« رأفت على سليمان الهجان يا فندم ! »

لو أن مصادفة حمقاء أخرى دفعت بيهودي الى نقطة كوتسكا في تلك اللحظة ، لانهدم كل شيء ، وضاع الأمل في إثبات انه قادر ، وأنه يستحق أن يعيش بين قومه محترما كان الضابط يتحدث إليه لكنه لا يسمع مايقول ، عليه أن ينتبه ، وعندما انتبه ، كان الضابط ينهى حديثه :

« ده اللي هم بيقلوه ، أنت ادبتهم فعلا شيك

بدون رصيد ! »

« ممكن أطلب من سعادتك خدمة ؟ ! »

في تأفف قال الضابط :

« أفندم ! »

« ممكن سعادتك ترفع سماعه التليفون وتكلم اللواء محسن ممتاز في

بيته ! »

« مين اللواء محسن ده في الداخلية ؟ ! »

« لأيا فندم ده ضابط جيش ! »

« وظيفته ايه ؟ ! »

« أنا ما أعرفش ، اتما اللي أعرفه أنه ابن خالتي ! »

كانت الثورة ثورة جيش ، وكل قوادها من الضباط الشبان ، وكان قائدها بكباشى فقط - مقدم - فمن يكون سعادة اللواء محسن ممتاز هذا ؟ ! . . . وقع الضابط في حرج ، فاذا كان الفتى محتالا كما يقول الشابان اللذان أحدهما طبيب والآخر مهندس وكانا في بعثة دراسية للخارج فسوف ينكشف أمره . . . أما إذا كان هذا اللواء موجودا ، وكان ابن خالته بالفعل ، فكفى الله المؤمنين شر ثورة الجيش !

رفع الضابط سماعه التليفون متسائلا في تحد أدركه الفتى :

«نمرته كام ؟ ! »

« ٩٧٩٣٥ »

نطق رأفت الرقم بسرعة وثقة من يعرف أين تخطو قدماه ، أدار الضابط قرص التليفون ، وانتظر مستمعا إلى الجرس على الطرف الآخر . . . انقطع الرنين فاعتدل الضابط في جلسته عندما أتاه صوت محسن ممتاز ، ثم سأل :

« سعادة اللواء محسن ممتاز ؟ ! »

« انا محسن . . . مين بيتكلم ؟ ! »

« لامؤاخذ يافندم . لحظة سعادتك معايا ! »

عندما سمع الضابط صوت محسن يقول : « انا محسن » ، اطمأن

قلبه تماما . . . في احترام مديده بالسماعة الى رأفت الذى قال متصنعا

الوجل أمام الجميع :

« مساء الخير ياابيه محسن ! »

كان الضابط والشابان يرقبان ما يحدث ، فلقد انفجر صوت محسن

عبر السماعة عاليا غاضبا ، وكان رأفت يحاول الرد لكن سيل الكلمات

المتدفق عن اخلاقه الفاسدة وحياته الممزقة ألزمه الصمت ، ثم توقف
الصوت وعاد محسن يسأل :
« هو ايه الى حصل ؟ ! »

في كلمات مترددة ، وفي اختصار شديد ، قال رأفت إن ثمة شاين
يدعيان أنه أعطاهما شيكا بلا رصيد وكان هذا في باريس ، ثم التقيا
به الآن وهو في طريقه الى البيت فأمسكا بخناقه ورفضاً أن يتركاه الا
في نقطة الشرطة هذه . . . قال الفتى هذا فانفجر الصوت عبر
الساعة التي زفعتها رأفت عن أذنه حتى يسمع الجميع هدير الرجل على
الطرف الآخر وهو يهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ثم مالبت أن
جاءهم الصوت صائحا :

« اديني حضرة الضابط ! »

مد الضابط يده الى الساعة قبل أن يحملها إليه رأفت . . . وفي
حقيقة الأمر لقد كان محسن - عندما قال ما قال - يعتمد على ذكاء الفتى
وإمكان وصول صوته الى الضابط بالذات ، ثم . . . ثم انه كان - على
الوجه الآخر - يعطى نفسه الفرصة كي يفكر فيما يمكن أن
يفعله . . . قال الضابط في احترام شديد :

« افندم ياسعادة الباشا !! »

كان ضباط الجيش - قبل الثورة - إذا مارقي أحدهم الى رتبة اللواء ،
منح معها لقب « الباشوية » ، ولقد كانت الألقاب قد ألغيت حقا في
مصر ، لكنها ظلت تجرى على السنة الناس . . . ولقد كان محسن
منطقيا في حديثه مع الضابط . . . قال إنه لا يفهم في طبيعة أعمال
الشرطة وواجباتها كما يفهمها هو بالطبع ، لكنه يرى أنه امام حالة
واضحة ، فهناك اتهام من شاين لشاب ثالث بأنه أعطاهما شيكا بلا

رصيد . . . اذن ، فالأمر موكول الى النيابة ، والضابط لا يستطيع حجز الفتى لتهمة غير ثابتة ، لكنه يستطيع الافراج عنه بعد التأكيد من محل سكنه ، على أن يثبت هذا كله في محضر رسمي كى يخلى مسئوليته ، ثم إن على الشابين أن يرفعا دعوى بعد ذلك كى يأخذ العدل مجراه .

كانت المفاجأة بالنسبة الى الضباط ، أن محسن اختط له الطريق باسلوب قانونى محكم ، وكان محسن - كضابط كبير - يعرف الأسلوب الذى يتحدث به من كان مثله مع ضابط صغير الرتبة ، وهكذا قال الضباط مؤمنا وموافقا :

« تمام ياسعادة الباشا ! »

« طب إدينى الولد ده تانى من فضلك ! »

راح الفتى يستمع الى محسن وهو يحكى له مقاله للضابط ، وأن عليه أن يطيع هذا تماما وأن يذهب بهم إلى البيت كى يعرفوا مكان سكنه . . فهتف رأفت محذرا :

« حاضر ياآبيه . . . وطبعا البواب عارفنى كويس ! »

كان البواب يعرف أن الفتى هو « ليثى كوهين » ، ولقد قال رأفت ما قال كى ينبه محسن إلى هذه الحقيقة حتى يخطا للأمر إن استطاع . . . ولقد أنهى محسن المكالمة بسرعة ، كان عليه أن يجرى بعض المكالمات العاجلة حتى يستطيع تدارك الأمر قبل أن ينكشف الفتى بمصادفة بلا معنى . . . الوقت أمامه الآن أثمن من الماس ، وبحسبة بسيطة قرر أن المحضر الذى أوعز الى الضابط أن يحرره لن يأخذ أكثر من خمس وأربعين دقيقة ، والمسافة من نقطة كوتسكا حتى

بيت الفتى لن تأخذ اكثر من خمس عشرة دقيقة . . . إذن ، فلا بد أن يكون المسرح جاهزا قبل انقضاء ساعة ، لاستقبال رأفت الهجان !

.
.

في الطريق الى ميدان سليمان باشا كان الركب يتحرك مكونا من الشابين ورأفت ثم أحد رجال الشرطة الذي اصطحب الجميع للتأكد من عنوان إقامة المتهم .

قبل أن يصلوا الى ميدان سليمان باشا يبضع خطوات لمح الفتى سيارة محسن العتيبة تقف في ظلال الليل الكثيفة وبدخلها محسن . . . وصل الجميع إلى باب العمارة الذي كان مغلقا . . .

دق الشرطى عليه بعنف من يملك سلطة ، جاءه من الداخل صوت البواب النائم يصيح بأنه فادم . . . فتح الباب عن رجل يرتدى جلبابا وقد دثر نفسه ببطانية تقيه البرد وحول رأسه « لاسه » هائلة تخفى ملامحه في الظلام ، ولم يكن رأفت في حاجة الى ذكاء كى يكتشف أن هذا الرجل ليس هو البواب . . . صاح الشرطى :
« أنت مين ؟ ! »

« أنا عبد المحسن البواب ياشاويش . . . خير ؟ ! »
« تعرف الافندى ده ! »

« مين ؟ ! . . . رأفت بيه ؟ ! . . . خير ياسعادة البيه ؟ ! »
قال الشرطى زاجرا إياه :
« تعرفه ؟ ! »

« إلا اعرفه . . . ده سى رأفت بيه الهجان اللى ساكن فى شقة

التفت الجندى نحو الشابين :

«تحبوا تطلعوا الشقة يابهوات والاكفاية لحد كده ؟ ! »

كان البرد قارسا وكان الشرطى متذمرا . . . ثم لم يكن هناك ما يبعث على الشك ، فتبادل الشابان النظرات ، ثم قال أحدهما :
« لأ . . . كفاية كده ! »

وهكذا انصرفا وانصرف الشرطى بعد أن نبه على البواب أنه سيكون مسئولاً أمام الحكومة عن المعلومات التى أدلى بها . . . ودلف رأفت الى العمارة واستقل المصعد الذى حمله إلى الطابق الأخير . . . كان الفتى يفكر فيما فعله محسن ، وفيما يمكن أن يفعله فى الغد . . . لكنه ما إن اقترب من باب مسكنه ، وما كاد يضع المفتاح فى ثقب الباب حتى جاءه صوت من الخلف :

« انت لوحدك ياأستاذ رأفت ؟ ! »

التفت فاذا رجلان يقفان متواريين فى الظلام .

« مين ؟ ! »

« أنت لوحدك ؟ ! »

« ايوه ! »

«اتفضل معانا . . . محسن بيه فى انتظارك ! »

لم يكن أمام رأفت سوى الاستسلام ، كان أحدهما يحمل حقيبة ملابس كبيرة ، اكتشف رأفت بعد أقل من ساعة ، وعندما دخل مسكنه الجديد فى منطقة أخرى بعيدة عن وسط المدينة ، أن بها كل ملابسها وكل ما يخصه فى ذلك المسكن القائم فوق سطح إحدى العمارات المطلة على ميدان سليمان باشا .



اقتحم رأفت ميدان التهريب ، وتعامل مع الذين أرادوا إخراج أموالهم من مصر بجرأة وفروسية جعلت منه بطلا شعبيا وسط يهود مصر ، في أسابيع قليلة نجح عدد لا بأس به من العمليات الصغيرة التي كان يستعمل في بعضها ذكائه الخاص ، فذاع اسمه واشتهر وأصبح على لسان كل يهودى . . . من الخارج جاء مندوبو المنظمات الصهيونية المختلفة ليتفقوا معه ويعقدوا الصفقات . . . كان جريئا في تعامله معهم ، شجاعا ، يخطط بذكاء ويحكم تخطيطه ثم يبلغ محسن بكل شىء ويترك له الباقي . . . أطلقه محسن وترك ملكاته تعلن عن نفسها في مواجهة الشرطة المصرية التي أصبحت - بالفعل - تطارده بلا رحمة . . . كان محسن يترب تلك الصفقات المهولة التي تستنزف دم مصر ، حتى اذا عقد رأفت إحداها مع واحد من كبار الأثرياء اليهود ، وماكادت الصفقة تتم بالفعل حتى أطبق رجال البوليس على المهربين ، لكن رأفت استطاع الفرار بأعجوبة من أعاجيبه . . . وهكذا أصبح رأفت الهجان - أو ياكوف بنيامين حنانيا - هاربا من وجه العدالة وإن كان لا يزال يعيش باسم « ليثى كوهين » !

في صفقة أخرى لم يستطع الإفلات فقبضوا عليه لكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا شيئا ضده وكان محاميه بارعا بعد أن أوكله عنه أحد أثرياء اليهود !!

ولم يكن ممكنا - والحال هكذا - أن يترك اليهود بطلا من أبطالهم بلا مأوى بعد أن عرفت الشرطة محل إقامته الجديد ووضعت تحت حراسة صارمة . . . لم يكن ممكنا أن يتركوه لسطوة رجال الشرطة الذين كانوا يضربون في كل اتجاه مصادرين ملايين الجنيهات وهى فى طريقها الى خارج مصر . . . وهكذا راحت الأسر اليهودية تستضيف الفتى

وتتنافس في استضافته خاصة تلك الأسر الشديدة الثراء التي كانت
تطمع في تهريب أموالها الى الخارج عن طريق رأفت . . . وتمضى
الأسابيع فاذا الفتى جزء لا يتجزأ من المجتمع اليهودى . . . اخترق
هذا المجتمع حتى نخاعه وهو يعيش في بيوتهم وقصورهم كواحد
منهم . . . رغم مسئولياته والصفقات التي كان يعقدها والخطط التي
كان يضعها وتلك التي كان يعدل فيها والناس الذين كان يلتقى بهم ،
لم ينس أن يتعلم العبرية . . . أمام الجميع كان يلعن الشتات الذى
جعل اليهودى يتقن عدة لغات وينبغ في كل فروع الحياة وينسى لغة
الأجداد . . . في تلك الفترة كانت حياة الفتى حافلة بكل ما هو مثير ،
ولم يكن يكف عن العمل أو اجراء الاتصالات السرية أو التخطيط
الذى برع فيه براءة جعلت له مكانه خاصة وسط عصابات المهربين
والأثرياء على السواء !

وكان محسن - في تلك الأيام - سعيدا سعادة غامرة ، ولولا ذلك
الضعف الشديد عند الفتى تجاه فتيات اليهود اللواتى رحن يرتمين بين
ذراعيه فيقاوم حيناً ويستسلم أحياناً ، لاكتملت سعادته وبلغت ذراها
المنشودة ، راح مندوبو المنظمات اليهودية يطلبون لقاءه كلما زار احدهم
مصر كى يستأنسوا برأيه . . . وكان هو ، فى حماس بالغ ، يساعدهم
ويشترك فى وضع خططهم ويوجه خطواتهم . وهكذا . . . وقبل أن
ينقضى الثلث الأول من عام ١٩٥٥ ، كان كل هم المنظمات اليهودية
والصهيونية ، هو إخراج « ياكوف بنيامين حنانيا » من مصر ، بعد أن
أصبح واضحاً أشد ما يكون الواضح أن الشرطة المصرية ترفض السماح
له بالهجرة ، وترفض أن تتركه يفلت من يدها !!

حتى كان يوم من أيام ربيع ذلك العام !

.

.

وصلت الى رأفت - مع ما يصل اليه من دعوات - دعوة من المليونير
السكندري « شارل سمحون »

كان شارل سمحون رجلا من رجال الأعمال الذين سيطروا لزمن
طويل على سوق المال في بورصة الاسكندرية . . . وكان ثريا ذلك
النوع من الثراء الذي يتحدث به الناس في انبهار وكأنه شىء خارق
للعادة . . . ولذلك ، لم يكن من السهل أولا أن يرفض رأفت الدعوة
أو يعتذر عنها - كما تعود أن يفعل مع العديد من الدعوات التي كانت
تصله - بل على العكس ، تلهف على تلبيتها ، خاصة أن بيوت الأثرياء
الذين كانوا يأوونهم في القاهرة قد انكشفت ووضعت تحت المراقبة . . .
وكانت تلك المراقبة تحد من حركته كثيرا ، كما كانت تجعل الاتصال به
أمرا شديدا الصعوبة ، وهكذا . . . وعندما وصلت تلك الدعوة من
الاسكندرية ، كان على رأفت أن يليها .

تحت جناح الظلام ، وبافتعال مشاجرة جذبت أنظار رجال الشرطة
المحيطين بالبيت ، تسلل رأفت من حيث كان . . . تسلل وحده فلقد
كان يرفض ، وبإصرار ، أن يصحبه أحد من اليهود للحماية أو حتى
للتمويه ، كان يقول إنه وحده يصبح أكثر تحمرا وأخف حركة . . .
وكانوا يحترمون رغبته فيتركونه كي يسعى للقاء محسن على شوق أكيد
بعد أن تباعدت مواعيد اللقاء . . . وهكذا ، وعندما دخل رأفت
الهجان قصر المسيو شارل سمحون لأول مرة ، ذلك القصر المطل من
فوق رابية من روابى الشاطيء على البحر المتوسط ، كان يتطلع - ومن
حوله عائلة الرجل الذي قدر للفتى أن يحمل اسمه حتى الموت - عبر
البحر - نحو المجهول ، الى حيث كان يسعى الآن ، الى فلسطين ، الى
أرض المعاد !!!!

في هذا القصر عاش رأفت حياة أسطورية ، كان مطلوباً إخفاؤه تماماً عن أعين الناس حتى خدّم البيت . . . وقد وضعت لذلك خطة تولت تنفيذها ابنتا شارل سمحون الباهرتا الجمال ، واللذان كانتا - في تلك الأيام - حديث الأوساط الأرستقراطية في العاصمة الثانية لمصر !

قبل أن يغادر الفتى القاهرة إلى الإسكندرية حذره محسن - في لقاء كانت خطته شديدة التعقيد - من ابنتي الخواجه شارل ، حاول الفتى أن يتخلص من المناقشة لكن محسن نهره محذراً إياه من مغبة التورط في علاقة قد لا يستطيع التخلص منها حتى إن أراد . . . كان محسن يعلم أن الفتى مشوق إلى الحنان عطشان للحب . . . ورغم كل تحذير فقد وقع المحذور ، وأحبته كبرى ابنتي مسيو شارل ، فلقد كانت هي المكلفة ، وقت وجود الخدم في البيت ، بالسهر على راحته وتلبية كل رغباته !

وفي حقيقة الأمر ، ليست الابنة الكبرى هي التي أحبت رأفت الهجان وحدها . . . كانت دماثة الفتى الطبيعية ، وقدرته الفذة على النفاذ إلى قلوب الناس ، قد جعلته يحتل مكانه رفيعة في قلوب العائلة كلها ، الأب ، والأم والابنتين معا !!!

ولقد انقضت أسابيع قليلة ورأفت يعيش حياة أقرب إلى الأحلام . . . كان قد أحيط بكل ما يحتاج إليه من حنان وحب ورعاية وعناية . . . وحتى تلك النزوات التي كانت تنتابه أحياناً ، والتي كانت تجعل العائلة وكأن أفرادها جميعاً يقفون على أطراف أظفارهم ، عندما يعلن عن رغبته في الخروج إلى الشوارع وحده ، تلك الرغبة التي كانت تبكى « ماجي » - الابنة الكبرى لمسيو شارل - كلما أعلنها . . . لكنهم في النهاية كانوا يخضعون ويحترمون رغبته في الشعور

بالحرية !!

في رحلاته الليلية هذه كان يلتقى بمحسن لقاءات مركبة ومعقدة ، لكنها لم يكونا يمكثان معا الا لدقائق محسوبة ، كى يعود الفتى مرة أخرى الى مخبئه في القصر العتيد !
حتى كانت ليلة انصرف فيها الخدم مبكرين ، وتناولت الأسرة عشاء خفيفا ، واستعدت للاستماع لبعض المقطوعات الموسيقية من « بيك أب » أنيق وحديث . . . وكان غرام « ماجى » بالفتى قد أصبح واضحا للجميع لا يخفى على أحد ، كما كان واضحا أنهم يباركون هذا الحب الذى كان يزداد اشتعالا يوما بعد يوم . . . وقبل أن تكتمل الجلسة حول « البيك أب » طلب مسيو شارل إلى رأفت ، أن يلحق به في غرفة مكتبه لحديث خاص !

.
.

كان من عادة المليونير اليهودى شارل سمحون أن يدخن مرة واحدة في اليوم ، بعد أن يتناول طعام العشاء مع أسرته ، ثم يحمل كأس البراندى الفاخر إلى غرفة مكتبه ، كى يدخن «سيجارا » من نوع خاص كان يستورد باسمه من الخارج . . . ثم يجلس إلى كتاب أو حسابات يريد أن يراجعها وحده . . . ويظل هناك حتى العاشرة ، ثم يأوى الى فراشه !

في بعض الأحيان - منذ جاء رأفت الى القصر هاربا من وجه الشرطة المصرية - كان الرجل يدعو ضيفه الى تدخين سيجار وتبادل الحديث معه . . . وكان هذا يعنى - أمام أفراد الأسرة وفي محيط الأصدقاء -

نوعا غير عادى من التكريم لشخصية المناضل ياكوف بنيامين حنانيا !
وكان رأفت يلبي الدعوة مهما كانت مغريات « ماجى » أو
إلحاحها كان يشعر أن الرجل الذى تجاوز الستين ، ينظر إليه
نظرة غريبة وصامته فى نفس الوقت ، أكثر حنانا من الأخرى وأعمق
حبا منهن جميعا كان رأفت يلبي دعوته تلك الى غرفة المكتب
استجابة لهذا الحنان الغامض ، ومحاولة لاستجلاء سره الغريب ،
والذى كان ، يوما بعد يوم ، يفصح عن نفسه بأسلوب بدا للفتى
أسراً!

فى تلك الليلة ، جلس رأفت على المقعد الوثير المواجه لمقعد مسيو
شارل سمحون ، وراح ينظر الى الرجل فى عجب كان
العجوز يبدو مضطربا بعض الشيء ، أشعل السيجار ورشف من
كأسه رشفة ، وبدا أنه يبذل محاولة عنيفة للسيطرة على أعصابه !
أحس رأفت أن ثمة شيئا فى الطريق اليه فلم ينطق حرفا ، راح يرقب
الرجل فى إمعان شديد لعله يستشف ما يدور بخلده ، حتى اذا ما سأله
الرجل - وكان الحديث عادة ما يدور بينهما بالفرنسية - عما يتتوى أن
يفعل فى الأيام القادمة اعتدل رأفت فى جلسته متحسسا
مواطىء كلماته :

« لم يعد أمامى سوى محاولة الهجرة الى اسرائيل ! »

رماه الرجل بنظرة حانية فعاد رأفت يقول :

« إن حياتى فى مصر أصبحت مستحيلة ، فهم يطاردوننى فى كل
مكان ، ويقينى أنهم أيضا أصبحوا يعرفون أن اسمى الحقيقى هو
ياكوف بنيامين حنانيا وعلى ذلك ، فإن أى نشاط لى سوف يصبح

عديم الجدوى فأنا الآن لست سوى عالة عليكم جميعا ! «
رغم تلك الجملة الأخيرة التي اراد بها رأفت أن يستنفر عواطف
الرجل ، فإن خلجة في وجه الشيخ لم تهتز . . . بل عاد يسأل :

« وكيف ستهاجر اذن ؟ ! »

« هذا ماأبحث عن وسيلة له في هذه الأيام ! »

« لقد وجدت لك الوسيلة ! »

همّ رأفت في جلسته وقد فاجأته الجملة . . . ظن الرجل أن حركة
الفتى نوع من الترحيب والتلهف ولكن الحقيقة كانت غير هذا . . .
فلقد تذكر على الفور وفي لمح البصر ، مقال محسن ممتاز ذات ليلة عندما
سأله الفتى متى يسمح له بالهجرة الى اسرائيل ، فطلب إليه ألا يتعجل
الأمور ، فإن الجالية اليهودية هي التي ستتولى الأمر عنه ، وهم عندما
يفعلون ذلك ، ستكون هذه هي علامة السلامة الكاملة لرأفت في
موطنه الجديد !

قال رأفت وهو يميل نحو الثرى الشيخ :

« كيف بالله عليك وجدت هذه الوسيلة ؟ ! »

رشف الشيخ رشفة من كأسه ، ونفث دخان السيجار الكثيف في
هواء الغرفة ثم نهض إلى حيث كانت نافذة تطل على البحر . . . لزم
رأفت الصمت تماما وهو يرقب الرجل الذي كان يستعد الآن للإفضاء
بسر بدا للفتى زهيبا . . . ساد الصمت في الغرفة وجاء صوت هدير
الأمواج ليملاه ، ومالبث الرجل أن قال دون أن يلتفت نحو رأفت :

« كان لي ابن في مثل عمرك . . . وكان اسمه ديقيد »

وضع رأفت السيجار جانبا ، نهض واقفا وقد غاضت الدماء من
وجهه وتثلجت أطرافه ، التفت الشيخ نحوه وكانت ملامحه تقطر

حزنا . . . خطا مبتعدا عن النافذة وهو يحملق في الكأس التي يحملها
في يمينه :

« عندما ولد استخرجنا له شهادة ميلاد . . . لكننا لم نستخرج له
شهادة وفاة عندما مات وهو في الثالثة من عمره ! »
حاول رأفت أن يقول شيئا لكن الدهشة كانت قد عقدت لسانه ،
تبدت له حقيقة ماكان الرجل يدبره فهاله الأمر . . . عاد الشيخ يخطو
نحوه الآن في بطء ، حتى اذا أصبح قريبا منه توقف ، راح يتأمل
ملامح الفتى بعينين يسيل منها حزن غامر ، لكنه مالبت أن استطرده :
« لقد مات ديفيد بالتيفود منذ اربع وعشرين سنة . . . لكنه في نظر
الحكومة المصرية لا يزال حيا !!! »

أدرك رأفت الآن ماالذى كان يقصد اليه الرجل تماما !
« سأعطيك اسم ولدى . . . ومنذ الغد سيصبح اسمك « ديفيد
شارل سمحون » ، ولن نقدم لك طلبا للهجرة ، بل سنقدم طلبا
للسفرالى الخارج ، فإذا ماخرجت من مصر أصبحت فى مأمّن ! »
هتف رأفت فى إشفاق :

« لكنهم سيعلمون أنى خرجت . . . فماذا أنت صانع ؟ ! »
« لاعليك . . . اترك لى هذا الأمر ! »

قال الشيخ هذا وهو يعود الى مقعده ، رشف من كأسه رشفة ، ومد
يده الى كتاب كان موضوعا فوق مائدة قريبة . . . فتح الكتاب وهو
يقول :

« اذهب الى الفتاتين فانهما فى انتظارك . . . ولا بد انك ستفتقدهما
فى المستقبل القريب ! »



قال رأفت الهجان فيها بعد ، انه كان - وهو يغادر الغرفة - يكاد
ينفجر من الدهشة . . . ولم يكن يتمنى في تلك اللحظات شيئاً في
الوجود ، الا أن يرى محسن ممتاز . . . فقط ، كي يرفع يده
بالتحية !!!

الفصل الحادي عشر

الرهيب

أدرك الفتى فى تلك الليلة أن أيامه فى مصر أصبحت معدودة ، وأن رحيله الى اسرائيل لم يعد مرهونا بإرادته ، أو ارادة محسن المطلقة ! . . . وإذا كان يهود مصر هم الذين قرروا تهريبه الى أرض معادهم ، فلقد كان عليه أن يجارهم حتى لا يثير أى نوع من أنواع الشكوك !

كان أول من خطر بباله بعد أن غادر مكتب السيد ستمحون ، هو أخته . . . شريفة !

كان لابد أن يراها قبل أن يرحل مهما كان الثمن . . . فمن أين له أن يعرف إن كان سيرها بعد ذلك مرة أخرى ! !

عندما طلب إليه محسن أن يؤجل زيارته لها حتى يذهب إليها وهو

« ملو هدومه » استراح لهذا حتى يرحم نفسه من التسلل الى بيتها في غيبة زوجها الذى كان يرى فيه إنسانا ضائعا وعارا يجب على العائلة أن تتجنبه ، وحتى يرحمها من مشاحنة هى فى غنى عنها لو ان الزوج ، الذى كان قد أصبح ضابطا كبيرا ، علم بزيارته لها !

هو لم ينس شريفة طوال تلك الأسابيع والشهور ... وكم اشتاق إليها كما اشتاق إلى صغيرها طارق الذى أصبح - بالنسبة إليه - قطعة من الحياة تصبو إليها نفسه ... لكنه منذ أن عرف حقيقة مهمته ، داخله إحساس غامر بالمسئولية ، بل داخله إحساس بأنه أكبر من الآخرين ... الا يجب إذن ان ترتفع أحاسيسه إلى مستوى مكانته ؟ !!!

عندما صعد الى غرفته كى ينام لاحقته « ماجى سمحون » بلهفتها المتقدة لكنه صدها برفق ، كان فى حاجة الى الانفراد بنفسه ، عاوده ذلك الإحساس الغريب بأنه يعيش حلما طال ، وقف خلف النافذة يرقب الأمواج ويستمتع إلى هديرها فى استغراق ملك عليه حواسه ... عندما - غادر مصر - من قبل - كان يعلم أنه لابد عائد إليها مهما طال غيبته ... لكنه هذه المرة راح يتساءل فى إلحاح : متى يعود مرة أخرى ؟ ! ... وهل يعود أصلا أم يكون نصيبه حبل مشنقة يتدلى منه جسده فى قلب بيت العدو ؟ !

فى اليوم التالى كان حريصا على أن يلتقى بالخواجه شارل على مائدة الإفطار التى كان عادة ما يتخلف عنها ، كان لابد أن يتبادلا حديثا مافتباده ... بدا رأفت ساهما فأدرك العجوز أن فى صدر الفتى ما يريد أن يبوح به فطلب إلى زوجته أن تأمر السائق بتجهيز السيارة .

أيقنت السيدة سمحون أن ثمة حديثا يريد الرجلان أن يتبادلاه
فنهضت على الفور مغادرة المكان . . . رفع رأفت رأسه نحو مسيو
سمحون ، وكان هذا ينظر إليه نظرات شديدة الثبات . . . قال رأفت
في صوت هادىء وكلمات واضحة :

« لست أريد أن أشكرك على ماقدمته لى بالأمس ، ولكنى فقط أريد

أن أقول إنى لن أنساه ! »

تشاغل العجوز بطعامه مغمغما :

« هذا كل ما أرجوه ! »

رشف الفتى من فنجان الشاى رشفة ثم قال :

« أعتقد أنه لا بد لى من السفر إلى القاهرة لتصفية بعض الأعمال

المعلقة ! »

توقف العجوز عن الطعام ملتفتا إليه . . . ساد الصمت لبرهة قال

بعدها :

« إنى أفهم هذا جيدا ! »

بدت إجابته لرأفت غير شافية وكأنها لم تكتمل فلزم الصمت حتى

استطرد العجوز :

« أعتقد أنى لست فى حاجة الى تحذيرك ! »

« مم ؟ ! »

هكذا تساءل رأفت فجاءه الجواب :

« يجب ألا يعرف أحد ما اتفقنا عليه بالأمس ! »

نظر إليه الفتى نظرة ساخرة ولاحت على شفثيه تلك الابتسامة التى

تنبىء عن قدر صاحبها ، فمال مسيو سمحون نحوه مؤكدا فى همس :

« حتى من اليهود ! »

لمعت عينا الفتى بنظرة دهشة مستفسرة فعاد الرجل يقول :
« إني حتى لم أخبر عائلتي ، ولن أخبرها حتى تصبح أنت في
مأمن ! »

خطا رأفت بالحوار الى نهايته :

« لن أغيب في القاهرة أكثر من أسبوع ! »

« أريد أربع صور لاستخراج جواز السفر ! »

ضحك رأفت ساخرا وهو يدس يده في جيبه قائلا :

« إني أملك من هذه الصور عددا لا بأس به ! »

قدم له الصور الأربع مستطردا :

« أرجو أن يكون حظ هذه الصور أحسن من سابقتها ! »

قال رأفت هذا وهو يناول الصور للرجل . . . فانهى الحديث !!



استمع محسن الى ما حمله إليه الفتى من أنباء صامتا . . . لا أحد يعرف ما الذى كان يدور فى صدر ورأس هذا الضابط الشاب فى ذلك الوقت ، فلقد اختار طريقا يجعل حتى التنبؤ بها كان يجول بخاطره ضربا من الرجم بالغيب . . . غير أن الذى لاشك فيه هو أن تفكيره كان يدور فى أرض الواقع المليئة بالألغام القابلة للانفجار فى أية لحظة ، والتى كان محسن يتحرك فيها بحذر بالغ . . . كان على علم كامل بما يجرى هناك ، على الحدود المصرية الفلسطينية . . . ذلك أن اسرائيل بعد انتصارها المريب على العرب فى عام ١٩٤٨ ، وبعد أن حققت بالشائعات والإعلام المدسوس - الذى وقع العرب والمصريون منهم فى حباله - كما هائلا من الأساطير والحكايات حول قسوتهم وقوتهم وقدراتهم ، ثم ارتكنت على ضعف النظم العربية ، وكاد اسم

« اسرائيل المزعومة » يُختفى تدريجيا من صفحات الصحف ، بعد أن غرقت مصر في مشاكلها الداخلية التي راحت تتفجر مشكلة وراء مشكلة وسط مبادل حكم هش الأركان ، ثم . . . ثم عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، كان لا بد للاسرائيليين من جس نبض هؤلاء الشبان الذين كان يتزعمهم ذلك البكباشى العنيد المسمى «جمال عبد الناصر» ، وعندما قامت اسرائيل ، كانت مصر محتلة بثمانين ألف جندي من جنود الامبراطورية ، الذين استقروا بعتادهم وعدتهم بطول قناة السويس ، وكان جيش الاحتلال هذا يشكل حاجزا بينها وبين المصريين . . . غير أنه الآن ، وفي تلك الظروف التي جددت بعد توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا العظمى ، ومهما كان ماتحويه هذه الاتفاقية من بنود ، فلسوف تصبح المواجهة بين الاسرائيليين والمصريين صريحة بلا عائق في القريب العاجل لا الأجل ! . . . وبعيدا عن آعيب السياسة وهي مشروعة ومتنوعة ، كان لا بد من جس النبض عمليا عند الحدود . . . وبدلا من ذلك الهدوء الذي كانت تقابل به بعض العمليات الاسرائيلية من حكومات ما قبل الثورة ، فوجيء الاسرائيليون بردود فعل كان لا بد من عمل حسابات دقيقة لها . . . خاصة أن الأنباء كانت قد جاءت من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وايطاليا وألمانيا وهولاندا ، بأن هذا البكباشى يبحث عن السلاح في كل مكان لجيشه الذي جاءتها الأنباء من الداخل - داخل مصر - تقول إنه أصبح يعده إعدادا حديثا وخاصة !

ولا بد أن محسن ممتاز وهو يجلس في ذلك اليوم إلى رأفت الهجان ، الذي كان يستعد في حماس للقفز الى حلقة النار والبقاء فيها لسنوات لا يعلم عددها إلا الله . . . لا بد أنه كان يعرف كل هذا ، ويحسبه

بدقة ، وليس هنال أدنى شك ، في أنه كان - على الوجه الآخر - سعيدا
كل السعادة ، فلقد تحققت خطته ليس بأسرع مما تصور فقط ، بل
وعلى الوجه الأكمل أيضا . . . وكان - وهو يتلقى آخر الأخبار من
الفتى حول الحوار الذى دار بينه وبين مسيو سمحون - يريد أن يعطى
نفسه الفرصة كى يرتب أفكاره . . . وهكذا ، ما إن انتهى رأفت من
حديثه حتى فوجئ بمحسن يقول له :

« انت مش ناوى تزور شريفة ؟ ! »

خفق قلب رأفت خفقانا شديدا ، وابتسم ابتسامة عرفان للرجل
الذى كان يدفعه نحو مخاطر بلا حدود ، لكنه فى نفس الوقت ، لم ينس
عواطفه نحو شقيقته فقال صادقا :

« أنا خايف من المقابلة دى ! »

« مش ممكن تسافر من غير ماتشوفها ! »

« أنا عارف ! »

« ولازم تاخذ هدية معاك لطارق ! »

لزم رأفت الصمت فسأله محسن :

« مالك ؟ ؟ ! »

« مش عارف حاقول لها ايه ؟ ! »

« قول لها إنك لقيت شغل فى دولة عربية ! »

كان الرد جاهزا بالطبع ، وبالطبع أيضا كان محسن قد فكر فى الأمر
وبحث عن مخرج ، غير أن الفتى هب واقفا فى تدمر وهو يقول :

« البلاد العربية ما بيروحهاش غير المدرسين ! »

« مين اللى قال ؟ ! »

« كل الدنيا عارفه ده ! ! »

« البلاد العربية فيها بترول دلوقت ، وانت لك خبرة في شركات البترول ! »

اذن فهذا هو ساتر سفره امام أخته وعائلته إن فكر أحدهم في السؤال عنه . . . كان مقاله محسن طوق نجاة له فسرعان ما انفرجت اساريه . . . دس محسن يده في جيب سترته الداخلى وأخرج حافظة نقوده قائلا :

« أنا ماكنتش عامل حسابى ، انما دول خمسين جنية تحت الحساب علشان تشتري هدية لطارق وهدية لشريفة كمان ! »

وضع الخمسين جنيها أمام الفتى وهو ينهض :

« مش لازم خد يشوفك دلوقت غير شريفة يارأفت ! »

اختفى اسم « ليقى كوهين » من حديث محسن كما اختفى اسم « ياكوف بنيامين حنانيا » ، ولكن صوته اتخذ تلك السمة الصارمة غير القابلة لنقاش وهو يقول :

« كلمها فى التليفون بكره الصبح وروح لها بس ماتقعدش عندها كتير ! »

مضى محسن تاركا الفتى وحده فى ذلك المسكن الجديد الذى كان قد انتقل اليه منذ أن قابل الشابين اللذين التقيا به فى باريس . . . هرب من افكاره المحتمدة الى ذلك الاحساس الغامر بالسعادة لأنه سوف يرى شريفة أخيرا ، راح يرتب فى ذهنه ما الذى سيقوله لها وكيف سيقنعها بحجته الجديدة ، لاحت منه نظرة نحو الخمسين جنيها فاكشف أنها لم تعد تعنى بالنسبة إليه شيئا ، تساءل فى عجب وهو يتناولها : كم تقلص قيمة المال وتصغر كلما اقترب الانسان من أهداف نبيلة !

أما محسن فلقد كان ذهنه - في ذلك الوقت - يعمل بسرعة وهو يقود سيارته الى حيث كان يعلم أنه قد يقضى الليل بطوله دون نوم ، كانت العجلة قد بدأت الدوران بسرعة. وكان عليه أن يوجهها نحو الهدف بدقة لا تخطيء . . . هو موقن أن حوارا سوف يدور بينه وبين حسن صقر ، وأن قرارات هامة لا بد أن تتخذ ، وكان عليه أن يستعد لكل هذا !



جاء صوتها ملتاغا عبر ساعة التليفون :

« رأفت ! »

« ازيك يا شريفة ! »

« انت فين ؟ ! »

« أنا »

« وكنت فين طول المدة دي ؟ »

« أصل الشغف »

« وبتكلم منين ؟ ! »

« من شارع قصص »

« شغلتنى عليك ! »

« ياشر »

« يعنى مش حاشوفك ؟ ! »

« امال انا باتكلم ليه ؟ ! »

اختنق صوتها ثم انفجر مغموسا في دمع فياض :

« طب ماتيجى يارأفت دانت وحشتنى قوى ! »

« مسافة السكة حاكون عندك ! »

إعادة السجدة إلى مكانها وانصرف مهرولا قبل أن يغلبه الدمع أمام
الناس !

.....
شريفة ، بجواره بضعة صناديق تحوى لعبا لطارق وفستانا لأخته
شريفة . . . شقيقته الصغرى ، صدره الحنون بعد موت أمه ثم أبيه ،
ذات مرة - وهى رضيجة - كان يلاعبها عندما صفعته بكفها الدقيق وهى
تضحك ، أمسك بيدها وقبلها ، وكان لفرط حبه لتلك اليد التى
صفعته ، يود لو أنه أكلها أكلا ! . . . عندما ماتت أمه لم تكن فى سن
تسمح لها بمعرفة ماهية الموت ، فراحت تبكى وتصرخ وقد أنشبت
أظفارها فى لحم عنقه صائحة :

« ماما . . . فأفت . . فأفت . . ماما ! »

ظلت تنادية باسم « فأفت » سنوات وسنوات ، وحتى عندما كبرت
وتزوجت ، كانت إذا ما أرادت أن تداعبه أو تدلله نادته
« فأفت » . . . طوته الذكريات طيا حتى انتبه والسيارة تقف أمام
الباب . . . نقد السائق أجره وطلب إليه أن ينتظره ، غادر السيارة
فارتفعت رأسه الى أعلى وكانت شريفة هناك تطل عليه من شرفة بيتها ،
لوح لها بيده باسمها وحمل صناديق الهدايا وراح يصعد الدرج قفزا . . .
كانت تقف بالباب وكان هو يرتجف بشوق عنيف ، تفجر الحنان فى قلبه
كبراكين تنفث حمما من اللهفة ، اشتم فيها رائحة الأب وحنان الأم ،
انحنى مسلما لها عنقه فغمرت وجهه بالقبلات ، تحت قدميه كان طارق
يجذب سرواله صائحا فى سعادة :

« خاله فأفت . . خاله فأفت ! »

أى قدر هذا الذى يمزق الأخ بعيدا عن أخته؟! . . . أجلسته فى الصالون وجلست إلى جواره تمطره بالأسئلة ولا تعطيه فرصة لإجابة واحدة ، تذكرت انها لم تقدم إليه شيئا فهرولت لتأتى له بزجاجة مثلجة ، مد يده الى الزجاجة ثم رفعها الى شفثيه كى يرطب بها فمه الذى جف لعابه وهو يهرب من نظراتها الفاحصة :

« إحكى لى ايه أخبارك وعملت ايه فى المدة اللي فاتت وانت دلوقت فى وايه الحكاية بالضبط ، مبسوط والا لأ، وازاي تغيب المدة دى كلها من غير ماتكلمنى ولا حتى تبعت لى جواب؟! ! »
هم بالنطق لكنها لاحقته وكأنها تذكرت شيئا :

« وايه حكاية تذكرة الطائرة اللي بعت تطلبها من المانيا دى؟! ! »
هم بالإجابة فصاحت مختنقة بدمع لم يجف :

« وايه اللي وداك المانيا يارأفت؟! ! »
لم يكن أمامه سوى الصمت فلزمه . . . التقطت أنفاسها بصعوبة وجففت الدمع وارتفعت يدها تتحسس ذراعه فى رفق ثم جاء صوتها وسط صيحات طارق وهو يعالج لعبته الجديدة :

« ازيك يارأفت؟! ! »
حاول أن يرد لكنه لم يستطع ، حاول أن يقول شيئا لكنه لم يجد مايقوله .

« مالك ساكت ليه؟! ! »

« مش عارف أقول لك انتى واحشانى قد ايه؟! ! »

قال هذا فانفجر الدمع من عينيها مدرارا ، غص حلقه وهو يتساءل بينه وبين نفسه : ماذا هى صانعة فيها هو قادم من سنين؟! !
« شريفة؟! ! »



بیریشته رضا عید السلام

من خلال الدمع ترقرق صوتها :

« أنا ماليش غيرك يارأفت !! »

« وأنا لى مين ؟ ! »

« طب مش تهدى بالله بقى وتقعّد جنبى وتريح قلبى ؟ ! »

« خلاص يا ستى . . فرجت ! »

قال هذا وراح يحكى لها عن وظيفته الجديدة ، وكيف أن أحد مهندسى البترول الأمريكين الذين عمل معهم فى البحر الأحمر انتقل الى إحدى البلاد العربية فطلب إليه أن يصحبه . . . ورغم مشقة العمل فى الصحارى فلقد وافق . . . مازالت الشركة الجديدة تحت التأسيس ، وحتى المناطق التى سيعملون فيها لن تكون ثابتة فهم ينقبون عن البترول فى الصحارى الشاسعة . . . لكنه - ومهما كانت المشقة - عمل ثابت ، والمرتب كبير !

« يعنى مش حاقدّر ابعت لك جوابات ؟ ! »

سراسلها هو كلما كانت هناك فرصة ، لكنه يعد - عندما يستقر به الامر - أن يرسل لها عنوانه . . . راح الماضى ياشريفة الى غير رجعة ، ولن يعود مهما كان ومهما حدث ومهما كانت الظروف ، لقد تغير بالفعل وأصبح إنسانا آخر ولا بد لها أن تصدقه ، وما سبب غيابه عنها طوال هذه المدة إلا انه اتخذ قرارا بالاتراه إلا وقد تغير بالفعل ، ولقد طلب أن يراها اليوم حتى يطمئنها ويطلب إليها أن تثق به . . . المرتب المعروض عليه مجزولن يمر عامان أو ثلاثة حتى يكون قد اقتصد مبلغا من المال سوف يعود به كى يفتح مشروعا يبقيه الى جوارها الى الابد !

« يعنى انت مسافر تانى ؟ ! »

صوتها يصرخ بعتاب مر !

« في خلال اسبوع ان شاء الله »

نظرت اليه طويلا وراحت تتأمله فترك لها نفسه وقلبه يتمزق ، كم سيفتقد هذا الوجه في السنوات القادمة . . . ترى : هل قدر له أن يراها مرة اخرى أم ان هذه هي آخر مرة يرى فيها شريفة ؟ . . . تمنى لو أنه ضمها إلى صدره لكنه خشى أن تشك في الأمر ، في الماضي كانت الشهور تمضي دون أن يراها لكنها كانت في متناول يده ، فكيف سيراهما في المستقبل وبينه وبينها آلاف الحواجز والموانع ؟ !

« يعنى انا مش حشوفك قبل سنتين ثلاثة ؟ ! »

« لأطبعا حاتبقى فيه أجازات ! »

« رأفت ! »

« نعم يا شريفة ! »

« أنت محبى عنى إيه ؟ ! »

سقط قلبه بين ضلوعه ، فهذه هي شريفة تعريه حتى من اسراره الدفينة ! . . . لم يكن امامه سوى الابتسام وتطيب خاطرها والتشاغل بملاعبة طارق ، ولم يكن امامه سوى الانصراف قبل عودة زوجها . . . ولقد تحاشى تماما - وهو ينصرف - النظر اليها ! ! !
جاءه صوتها نائحا وهو يخطف الدرج خطفا :

« مع السلامة يارأفت ! »

« الله يسلمك ! »

« خلى بالك من نفسك ! »

« ربنا يستر ! »

« ابقى طمنى عليك ! »

« حاضر يا شريفة ! »

« رأفت !! »

كان قد وصل الى نهاية السلم ، أوقفه نداؤها ، رفع رأسه اليها . . .
كان نصفها الأعلى مدلى من فوق حاجز السلم ، رأى وجهها ساقطا
فوق وجهه ، قالت بصوت مختنق متهدج :

« مع السلامة ! »

فانفلت يعدو الى السيارة التي كانت لاتزال فى انتظاره ، وقد غلبه
الدمع هذه المرة !!!



يقينا سهر محسن ممتاز مع رئيسه وزميله حسن صقر فى تلك الليلة
حتى مطلع النهار . . . واذا كنا نفتقد شهود عيان أو أدلة مادية تؤكد
هذا الزعم ، فلقد كان لابد لنا من اللجوء الى التحليل واستقراء منطق
الأشياء !

قبل بداية المناقشة ، وحسب مكانة الأولويات ، فلقد أجرى محسن
ممتاز أمام حسن صقر ومن مكتبه الذى اجتمعا فيه ، مكالمة تليفونية
عاجلة مع شخص يدعى « عبد الرحيم » فى مدينة الاسكندرية . . .
كان واضحا أنه أحد رجاله فى مصلحة الجوازات والجنسية التى كان له
فيها باع طويل ، لقد طلب إليه فى كلمات ملغزة الا توضع أية عراقيل
مهما كانت أمام طلب استخراج جواز سفر باسم شخص يهودى
يدعى : « ديفيد شارل سمحون » ، وأن تتم الموافقة فورا ، وبشكل
روتينى وطبيعى للغاية ، على الطلب المقدم من هذا الشخص للسفر
الى الخارج !

لم يكن هناك وقت ، وكان لابد من تجهيز رأفت بأسرع ما يمكن . . . وعلى سبيل المثال ، فلقد كان على محسن أن يعلمه كيف يكتب خطابات سرية ، كان عليه أن يلقنه اسلوب الاتصال سواء بالبرق أو البريد اذا ما كان في اسرائيل ، ثم هناك اسلوب آخر لتحديد المواعيد ، تلك الشفرة اللفظية التي كانت جاهزة منذ فترة ، واسلوب الاتصال في المدن الأوروبية التي يقع عليها الاختيار لمقابلته عندما يتقرر هذا أو عندما يحتاج رأفت الى هذا . . . ثم ، وقبل كل شىء عليه أن يلتقى - قبل أن يرحل - بمصطفى عبد العظيم !

كانا قليلى الخبرة . . . حقا ان حصيلتهما من « العلم » كانت تتزايد يوما بعد يوم وقراءتهما تتشعب وتتوسع ، وسيل الكتب والتجارب والتقارير السرية والمعلومات ينهال عليهما من الخارج بعد أن انفتحت أمام الرجال - بالمران والمراس والاحتكاك وتعدد المعارف - أبواب لم تكن تخطر ببال احدهم ! . . . ولقد وصل الأمر - فى منتصف هذا العام ١٩٥٥ - إلى أن مجموعة من الأساتذة المتخصصين كانوا قد بدأوا فى وضع برنامج تدريبى للضباط الشبان الذين كانوا ينتقون بعناية فائقة ! راحا يناقشان الموضوع من كل جوانبه ، ويقتلانه بحثا وتمحيصا . . . لكن المناقشة التي أخذت وقتا أطول من غيرها - هكذا قال محسن لعزيز الجبالى فيما بعد - كانت تدور حول طبيعة الساتر الذى سوف يعيش الفتى خلفه فى تل أبيب !

لم يكن الموضوع وليد الساعة بطبيعة الحال ، لكن المناقشات السابقة لم توصلها إلى قرار حاسم بشأن هذا الموضوع . . . ذلك أن الساتر المثالى الذى ارتأياه ، بدا لهما باعثا على الشك !

وإذا كان لابد لهذا الساتر أو الوظيفة أو العمل الذي كان على الفتى أن يمارسه هناك حتى تكون حياته طبيعية للغاية ، فلا بد ان تكون فيه اجزاء من الواقع ومن حياة الفتى نفسه . . . فلقد وجدنا نفسيهما امام اربع حقائق هي : ان رأفت على سليمان الهجان الذي سيصبح اسمه من الآن فصاعدا «ديفيد شارل سمحون» ، قد عمل كممثل لادوار صغيرة في السينما ، وعمل كموظف ادارى في شركات البترول ، ثم عمل بعد ذلك في السياحة ، كما مارس التجارة في الشهور الأخيرة !

استبعدنا العمل في السينما لأن اسرائيل في ذلك الوقت لم تكن فيها صناعة للسينما . . . كما استبعدت فكرة العمل في مجال البترول لأن اراضى فلسطين ليست فيها حقول بترول . . . ومن ثم فلقد أصبح الاختيار محصورا بين العمل في مجال السياحة من ناحية ، ومجالات التجارة من ناحية أخرى !

ولقد تبدى لهما أن العمل في السياحة هو انسب السواتر اليه ، ذلك أن هذا المجال يسهل له الخروج من اسرائيل في أى وقت يشاء فيصبح الاتصال به غير محفوف بالشكوك ، فوق أن هذا المجال بالذات يعطيه الحق في التجوال داخل البلاد كيفما يشاء مع افواج السياح أو حتى وحده ، وبذلك تتاح له فرصة تسقط المعلومات والأخبار من أى مكان . . .

بدت لهما السياحة أكثر السواتر مناسبة لرأفت الهجان أو « ديفيد شارل سمحون » ، لكن السياحة كانت تستلزم مالا يبدأ به الفتى مشروعه ، فمن أين لليقى كوهين ، أو ياكوف بنيامين حناينا ، بالمال ؟ !

كانت هذه عقبة ، وكان عليها أن يجدا مخرجا ، فراحا يقدهان ذهنيهما بحثا عن هذا المخرج !

بدا لهما الوقت ضيقا ، بل خانقا . . .

وضعا شفرة مكونة من كلمات قليلة تفى بالغرض في أضيق الحدود ، كان على رأفت - على سبيل المثال - اذا ماوصلته برقية تضرب له موعدا في روما في الساعة السادسة من مساء اليوم الثامن والعشرين ، ان يترجم هذا بتغيير روما الى باريس ، والسادسة الى الرابعة ، واليوم الثامن والعشرين الى اليوم الثلاثين .

كان على محسن ان يدرجه على الكتابة السرية بواسطة شديدة البدائية ، لم تكن الأحبار السرية - التي برعت فيها المخابرات المصرية والاسرائيلية معا فيما بعد ، وتفوقتا فيها على كل دول العالم - معروفة . . . وكان على الفتى أن يكتب خطاباته فوق ورق « زبدة » على أن يضع تحته ورقة بيضاء ، ذلك ان المادة الشحمية في ورق الزبدة سوف تلتصق بالورقة البيضاء دون أن تظهر ، فاذا ما كتب فوق هذه الورقة البيضاء خطابا يحوى أى كلام بالحبر العادى . . . ثم وصل الخطاب اليها عبر مسالك بالقطع مركبة ، كان عليها أن يسكبا فوق ورقة الخطاب البيضاء زجاجة حبر كى تتشربه فيما عدا تلك الكلمات المكتوبة بشحم ورق الزبدة . . . وهكذا يقرآن الخطاب !

كانت الأساليب التي يتبعانها بدائية ، بل ودون مبالغة ، ساذجة ! ! . . . ولكن ، أى طريق آخر كان باستطاعتها أن يسلكاه ؟ !

الشيء الهام الذى استقر عليه رأياهما والصبحا يقترب ، هو ألا

يكلف الفتى ، في الفترة الأولى لذهابه ، بأى نوع من أنواع النشاط السرى ، بل ان يحظر عليه هذا حظرا تاما . . . وان يكرس كل جهده ، وكل امكانياته ، في بناء ذلك الساتر الذى كان عليه ان يعيش خلفه ، وان يتعرف على المجتمع والناس . . . وان يتأقلم ويبنى علاقاته بحذر بالغ . . . ثم ، ثم إذا ما استقر له الأمر تماما ، اعطياه الضوء الاخضر كى يبدأ نشاطه !



ارتد الفتى الى الخلف عندما رأى محسن يقف بالباب - فى الموعد تماما - ذلك أن محسن لم يكن وحده !

لم يخف رأفت دهشته وهو يصافح محسن وضيغه . . . استقر بهم المجلس فسأله محسن :

« رحت لشريفة ! »

« وياريتنى مارحت ! »

« أكيد تعبت يارأفت ! »

« ولسه تعبان لحد دلوقت ! »

ادرك الفتى ان هذا الوافد الجديد مع محسن على علم بكل شىء . . . كان شابا نحىلا أسمر الوجه لامع البشرة ذا شعر ناعم فاحم وشارب رقيق يجعله اقرب الى اثرياء الهنود منه الى المصريين ، رأى ملامحه تشع ابتسامة دائمة حتى ولو لم تبسّم شفتاه ، بدا أنيق الملبس حتى ليبدو وكأنه لوحة مرسومة لا انسانا يتحرك ويحيا . . . سألهما الفتى عما يشربان فطلب اليه محسن شايا مركزا على الطريقة الريفية ، فلقد كان فى حاجة الى تنبيه كل حواسه بعد ليلة شاقة ، ويوم كان اكثر مشقة . . . ما إن وضع الشاى بينهم حتى قال محسن باسلوبه

المستقيم :

« الأخ مصطفى عبد العظيم ! »

« أهلا وسهلا ! »

« الاخ مصطفى هو اللي حايبقى يقابلك بره ! »

في لهفة هتف رأفت :

« وانت يا محسن بيه ؟ ! »

ضحك محسن صائحا :

« وهو انا فاضى لك يا أخينا ؟ ! »

تضحك الثلاثة ثم ساد الصمت لثوان عاد محسن بعدها الى

الحديث :

« طبعا انا حاجى علشان اشوفك ، لانك بالتأكيد حاتوحشنى ! »

عاد هذا الثعلب يعزف على اوتار عواطفه وكان لا بد أن يلين .

« فيه شوية حاجات عاوزين نتفق عليها ونتعلمها ، وببتهيالى إن

ما فيش وقت !! »

.....

.....

كان الليل قد انتصف منذ ساعة وبعض الساعة عندما قاطع رأفت

محسن وهو يهتف :

« كل ده حلو يا محسن بيه بس شركة السياحة دى محتاجة لفلوس ! »

« طبعا ! »

« وانت قلت لى ان اليهودى الفقير المهاجر لاسرائيل ، بيوزعوه على

الموشاف أو الكيبوتز ! »

« ده صحيح ! »

«وانا بقى المفروض انى على الحديدية ، ياكوف بنيامين حنانيا كان بيدور على شغل هنا ومكانش لاقى ياكل ! »

« تمام ! »

« يبقى حايزوعونى على الموشاف أو الكيبوتز ! »

« ده لو مكانش معاك فلوس تبدأ بيها !! »

« وليقى كوهين والا ياكوف حنانيا حايجيب فلوس منين ؟ ! »

« حاندبر الحكاية دى ! »

هم رأفت بالحديث فارتطم بكلمات محسن :

« قلنا حاندبر الحكاية دى ! ! »

فلزم الصمت ! !

.
.

فى اليوم التالى ، كانت هناك جلسة أخرى . . . امتدت الجلسة خمس ساعات متوالية ، قال رأفت بعدها :

«تفتكر الاسرائيليين مايعرفوش حكاية ورق الزبدة دى ؟ ! »

« طبعا عارفينها ! »

« ياخبر اسود ! »

« مالك ؟ ! »

« دول ممكن يكشفونى بالشكل ده ! »

« هم ممكن يكشفوك لو الجواب رايح لك . . . إنها حايكشفوك ازاي

والجواب طالع من عندهم . . . دول لازم يراقبوا الكام مليون اللى

عايشين فى اسرائيل علشان يوصلوا لك ! »

« معنى كده انكم مش حاتبعتوا لى جوابات أبدا ! »

ونبت لك جوابات ليه ؟ ! . . . كل ماتوحشنا نبعت لك تلغراف
عادي بيحدد لك ميعاد في لندن يوم ١٨ الساعة ٩ صباحاً ! «
« يبقى معناها ان الميعاد في بون يوم ١٦ الساعة حداشر الصبح ! «
« ولو كان الميعاد في روما يوم ستة الساعة ٤ بعد الظهر ؟ ! «
« يبقى معناها ان الميعاد في أثينا يوم أربعة الساعة ستة مساء ! «

.
.

لم يكن محسن ممتاز من هؤلاء الذين يدفنون رءوسهم في الرمال هرباً
من الحقيقة ، كان يعرف ان تلك الأساليب التي لقنها لرأفت وعلمه
اياها اساليب شديدة البساطة ، بل البدائية ، لذلك لم يكن له هم
سوى :

« خليك حريص مهما كانت المغريات ، وفتح عينيك كويس ،
ولا تعملش اى حاجة غير انك تأسس الشركة وتشغلها وتعمل علاقات
مع الناس وبس ! «

« واذا »

« مفيش اذا يارأفت ، سلامتك أهم من أى حاجة تانية ! ! «
كانا الآن يقفان كل منهما قبالة الآخر ومحسن يستعد للانصراف ،
سرى بينهما تيار عاطفى غامض ، فقال محسن :
« وما تنساش لما تنزل من المركب في نابولى ، إنك تدور على مكتب
الوكالة اليهودية وتروح لهم وتقول لهم إنك عاوز تروح اسرائيل . . . «
همّ الفتى بالحديث فقال محسن :
« أنا ممكن اديك عنوان الوكالة ، لكن أنا عاوزك تدور عليه وتسال

عنه فعلا ! ! «

« أكيد حايبقوا مزحومين قوى ! »

« بيتها لك ! »

في دهشة سأل رأفت :

« هم اليهود مش بيطلعوا من هنا على اسرائيل ؟ ! »

« أكيد فيه كام يهودى حايطلعوا معاك على نفس المركب ، إبقى

شوف كام واحد فيهم حايروح اسرائيل ، ولما نتقابل ابقى احكى لى ! »

ابتسم رأفت قائلاً :

« أنا حاشوفك فى اوربا ؟ ! »

« بالتاكيد لازم أجى أشوفك مع الأخ مصطفى ! »

ساد الصمت بينهما وكانا لا يزالان فى مكانها بالقرب من باب

المسكن ، أحس رأفت بالحنين إلى محسن قبل أن يغيب هذا عنه !

« على العموم احنا حانتقابل فى اسكندرية قبل ما تسافر زى ما

اتفقنا ! »

« بس حكاية فلوس شركة السياحة دى مخليانى قلقان حبتين ! »

« ماتقلقش . . . سيب الحاجات دى على ، ونخلى بالك انت من

نفسك »

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقال ، مد محسن يده إلى رأفت فتصافحا

فى حرارة . . . وكانا على موعد فى الاسكندرية بعد يومين فقط ، فلقد

كانا يعلمان أن الوقت يجرى بسرعة !



عندما عاد الفتى الى الاسكندرية كانت ستة أيام قد انقضت فى

عمل متصل وتدريب شاق ، لكنه - وهو يركب قطار الاكسبريس الذى

راح ينهب الطريق بين حقول الدلتا - كان يشعر بأنه تغير كثيراً ، وأن ثمة أشياء جديدة وهائلة قد أضيفت إليه . . . هرب من التفكير في شريفة وطارق وراح يصبو بذهنه إلى ماهو قادم من أيام . . . شيء غريب لفت نظر الفتى ، فلقد كان يعلم علم اليقين أنه ذاهب إلى حيث قد لا يعود ، ورغم هذا ، فهو لم يكن خائفاً !! . . . قد يكون ، في أعماقه ، عصبياً بعض الشيء ، لكنه ليس خائفاً !

الأغرب من هذا ، أنه كان سعيداً بذلك الإحساس الغامر بأنه ذاهب إليهم كي ينازلهم في عقر دارهم ! . . . كان الآن بعد أن عرفهم وخبرهم يعلم أنهم يستعملون كل أسلحتهم وأمضاها ضد وطنه ، وكان سعيداً لأنه سوف يستعمل أسلحته وملكاته كلها ضدهم ، ولسوف ينتصر !! !



كانت « ماجى » نائرة عندما وصل رأفت الى بيت « مسيو سمحون » بعد ظهر ذلك اليوم من أيام يونيو عام ١٩٥٥ ، كان الفتى قد غادر البيت - يوم غادره - دون أن يودعها ، ولقد ظنت في البداية أنه في نزهة أو جولة من جولاته ، لكنها عندما علمت بسفره الى القاهرة ثارت ثورة عارمة وقررت اللحاق به . . . لكنها تراجعت عن قرارها عندما صوب إليها أبوها تلك النظرة الباردة وهو يطلب إليها أن تكف عن هذا العبث . . . فرجل مثل « ياكوف » يحمل على كتفيه مسئولية جسيمة ، وكان عليها - ان كانت تحبه حقاً - أن تحترم هذه المسئولية !

عندما وصل استقبلته العائلة استقبالاً حافلاً ، قضى معهم فترة ما بعد الظهر حتى حان موعد العشاء . . . بعد العشاء حمل مسيو سمحون كأسه ثم دعاه الى غرفة المكتب . . . طوال الساعات التي

مضت كان الثرى العجوز يتجنب الحديث معه فى أى شىء ، ورغم
أن الفتى كان مشوقاً لأن يعرف نتائج سعى الرجل فى استخراج جواز
السفر والحصول على تأشيرة خروج باسم « ديفيد شارل
سمحون » . . . فإنه لزم الصمت هو الآخر ولم يسأل !

أغلق الفتى باب غرفة المكتب وسار العجوز إلى مكتبه ، تقدم
الفتى من المقعد الذى تعود الجلوس فيه أمام الرجل فى الوقت الذى كان
السيد سمحون يفتح درج مكتبه ، هم رأفت بالجلوس عندما سقط
أمامه ، فوق المكتب ، جواز سفر ! . . . لاحت على وجهه دهشة
صادقة وهو يمد يده نحو الجواز ملتقطاً إياه فى لهفة قائلاً :

« بهذه السرعة ؟ ! »

« إنى دائماً ما أنجز أعمالى بدقة ودون تأخير ! »

صاح الفتى وهو يقلب فى صفحات الجواز :

« لقد حصلت على تأشيرة الخروج ! »

قال الرجل وهو يسير الى مقعده المفضل حاملاً كأسه :

« لم يعد باقيا سوى أن تحدد موعد السفر قبل مضى أسبوعين ، والا

اضطررنا إلى طلب تأشيرة خروج جديدة ! »

« سأذهب اذن فى الصباح للسؤال عن السفن التى ستقلع إلى اوربا

فى الأيام القادمة ! »

« لا تجشم نفسك عناء هذا ! »

قال العجوز هذا وهو يمد يده الى ورقة مطوية فوق المكتب ، قدمها

إلى الفتى مستطرداً :

«هاهو جدول بمواعيد كل السفن المقلعة الى أوربا خلال

الاسبوعين القادمين ! »

ساد الصمت فلقد كان العجوز يشعل الآن سيجاراً . . . نفث
الدخان في هواء الغرفة وراح يتبعه ثم قال فجأة :

« إن ماجى متيمة بك ! »

كان ماقاله الرجل مفاجأة لم يتوقعها الفتى لكنه هتف :

« أعرف هذا ! »

صمت لثوان عاد بعدها إلى الحديث :

« أعرف هذا وإن كنت لا أستطيع أن أصنع شيئاً ! »

أطال العجوز النظر إليه كمن يطلب تفسيراً ، فاستطرد الفتى :

« إن حياتى غير مستقرة كما تعلم . . . ثم انى ذاهب الى مجهول

لا أعرفه . . . قد يكون الأمر حسناً فى اسرائيل وقد لا يكون ، فكيف

أربطها بعجلة غير مستقرة الدوران ؟ ! ! ! »

التمعت فى عينى العجوز نظرة رضا لم تخطئها عين الفتى .

« إننا لم نتحدث عما ستفعل ! »

« كنت أظن أنه معروف تماماً أنى ذاهب الى اسرائيل ! »

« ليس هذا ما أقصده . . . انى أسألك عما ستفعل هناك ! »

« لست أدرى على وجه اليقين وإن كانت هناك أفكار تراودنى ! »

« مثل ؟ ! »

« إن لى خبرة لا بأس بها فى السياحة ! »

« هل تريد العمل فى إحدى شركات السياحة ؟ ! »

« لم أعود أن أكون مرءوساً لأحد ! ! »

« اذن فلسوف تفتح مكتباً أو تنشئ شركة ! »

« هذه هى العقبة ! »

دس العجوز يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج مظروفاً قدمه إلى

الفتى قائلاً :

« هذا شيك بخمسة عشر الف دولار ، وهى كافية تماماً لانشاء شركة محترمة فى تل أبيب ! »

حمد رأفت فى جلسته ذاهلاً ، كانت المفاجأة أقوى من كل توقعاته . . . لاح له وجه محسن ممتاز وهو يقول فى إصرار : « حاندبر الحكاية دى » . . . ولطالما ألح عليه بالحديث حول أمر التمويل لكنه كان يرجئه لسبب بدا له غامضاً ، فهل كان يتوقع ما فعله الخواجة سمحون ؟ !

« ألا تريد النقود ؟ ! »

كانت يد الرجل ممدودة بينما ظل رأفت جامداً فى مكانه . . . وجد نفسه أخيراً فقال دون أن تمتد يده الى المال :

« لقد فعلت من أجلى الكثير ! »

« لكل شىء ثمن ! »

انتبهت حواس الفتى :

« وما هو الثمن ؟ ! »

« ألا تغير اسمك . . . أن تظل ديفيد شارل سمحون ! »

ولم يردد الفتى ، قال :

« هذا وعد !! »



مالت الشمس نحو الغروب واصطبغت مياه البحر بلون قان ، وكان محسن يجلس مع الفتى فى الشرفة الخشبية لحدى كبائن شاطيء سيدى بشر رقم واحد . . . كان عدد المصطافين قليلاً ، فامتحانات

المدارس لم تكن قد بدأت بعد وكان باقيا على موسم الاجازة الصيفية
شهر أو بعض الشهر !

قال محسن في بساطة إنه أخطر مسألة تمويل شركة السياحة لأنه كان
يتوقع - وإن لم يكن واثقاً - أن يفعل الثرى العجوز ما فعله ، لا
لشيء ، إلا لأن الأمر الآن سيصبح أكثر طبيعية ولن يبعث على أدنى
درجة من الشكوك أو الخطورة . . . لقد كان جاهزاً بالمال وكانت الحجة
صلبة وسليمة ومأمونة في نفس الوقت . . . وإذا كان الفتى قد عمل
على تهريب أموال بعض اليهود من مصر فلقد كان يتقاضى منهم عمولة
لما كان يفعله ، وبإحصائية بسيطة ، كان من الممكن للفتى أن يقتصد
في الشهور الأخير مبلغا يقارب المبلغ الذي أعطاه إياه السيد سمحون !
وقع الاختيار على السفينة الايطالية « اسبريا » كى يرحل عليها
الفتى لأنها كانت تسير على خط ملاحى منتظم فيما بين الاسكندرية
ونابولى . . . وسوف يتيح له موعد إبحار السفينة فرصة أطول كى يبقى
في مصر . . . سيكون هذا هو لقاءهما الأخير فوق أرض الوطن فهذا
أفضل من الناحية الأمنية ، وعليه أن يزداد تأقلاً وسط عائلة السيد
سمحون ، فحياته وسطهم سوف تفصله ، ولو بالخيال عن مصر . . .
حتى إذا ما حان وقت الرحيل ، كان الأمر أقل مشقة ! !
أخرج الفتى مظروفاً مغلقاً من جيبه كتب عليه بخط واضح :
« لا يفتح إلا بعد موتى ! ! » وكان التوقيع « رأفت الهجان » قدم
المظروف المغلق إلى محسن وهو يقول :
« ممكن تخلى الجواب ده عندك ؟ ! »
قرأ محسن ماكتبه الفتى فوق المظروف ، فرفع إليه عينين مليئتين

بالعتاب .. هتف الفتى :

« الأعمار بيد الله يا محسن بيه !! »

أطرق محسن صامتاً وهو يدس المظروف في جيبه ، فقال الفتى
بصوت مغموس في عواطف فياضة :

« انت وعدت إنك حاتجيني مع مصطفى بيه ! »

« وحاو في بوعدى إن شاء الله ! »

« مش عاوز تقول لى حاجة تانية ؟ ! »

« أيوه . . . فيه حاجة مهمة عاوز أقول لك عليها ! »

« ايه هي ؟ ! »

« مصر أمانة فى ايديك يارأفت !! »

« وأنا رقبتي سداة ! »

ولأول مرة

لأول مرة منذ أن التقى الفتى بهذا الضابط الشاب ، يغمره ذلك
الفيض من الانفعالات والعواطف ، وهو يسلم نفسه لذراعى محسن
المفرودين بكل اتساعهما . . . ضم كل منها الآخر فى عنف من يريد
أن يحتفظ بصاحبه داخل صدره . . . استسلم الفتى لتلك اللحظات
فى سعادة قال عنها فيما بعد ، إنها كانت ذروة من ذرا حياته ، قال الفتى
وهو يخطو مغادراً الكابينة ؛
« أشوفك بخير ! »

« خلى بالك من نفسك يارأفت . . . البلد محتاجة لك ! »

وكانت هذه هى آخر الكلمات التى سمعها رأفت على سليمان

الهجان ، من محسن ممتاز قبل الرحيل !!!



قال له محسن كثيرا إنه سوف يشعر بالخوف في البداية ، وإن هذا أمر طبيعي ، وإن عليه ، كي يقاوم الخوف ان يندمج تماماً في حياته الجديدة . . . لكنه ابداً لم يشعر بالخوف حتى وهو يخطو صاعداً سلم السفينة « اسبريا » في طريقه الى مجهول يفغرفاه . . . على الرصيف ، وكما توقع محسن ، التقى بالعديد من يهود مصر الذين سيسافرون معه ، كان من بينهم « سوسوليتشى » تاجر الساعات بالعتبة الخضراء ، والذي كان قد باع دكانه وصفى أعماله . . . بدا الفتى لهم غريباً ، كان أنيقاً يرتدى أفخر الثياب ، كان متورد الوجه وقد اختفى ذلك الشحوب الذى ينبىء عن حياة شاقة ، لكن دهشتهم اختفت وهم يرون عائلة سمحون فى وداعه ، كان هناك المليونير اليهودى وزوجته وابنتاه ، وكانت احدهما تبكى بلا توقف وقد تعلقت بذراعه . . . ثم سرى الهمس بين الجميع بأن « ليثى كوهين » الذى اسمه الحقيقى « ياكوف بنيامين حنانيا » ، يخرج من مصر تحت ستار أنه « ديفيد شارل سمحون » . . . وكان لابد من احترام هذا احتراماً رفيعاً ، وعندما حانت لحظة الوداع تعلقت « ماجى » بعنقه وانفجرت فى النحيب ، قبلته أختها فى وجنتيه كما قبلته أمها ، وصافحه الأب بحرارة ، لكنه مالبت أن ضمه إليه . . . وهاهو يصعد سلم السفينة الى حيث كان أحد ضباطها فى انتظاره ، وقد عرف أن هذا السيد الصاعد من ركاب الدرجة الأولى . . . حمل البحارة حقيبته إلى كابينته فى الطابق الثالث ، لكنه آثر الوقوف بعض الوقت مع مجموعات اليهود التى تناثرت فوق السطح وهم يثرثرون ويضحكون ويتصايحون بالنكات والسخرية من مصر والمصريين . . . كانوا - الآن - يقفون فوق أرض أجنبية ، ولايستطيع أحد من المصريين بهم شيئاً ، حاول أن يجاريهم لكنه لم

يستطع ، تركهم متسللاً إلى الطابق العلوى . . . فى الممر الظليل الذى يطل على رصيف الميناء سار ، ولم يكن يعرف الى أين هو ذاهب ، ولم يكن هناك هدف يسعى إليه الا الابتعاد عن هؤلاء الذين عاشوا فى بلاده وتمرغوا فى خيراتها وخيرات شعبها وطيبة قلبه ، ثم تصبح أولى كلماتهم وهم يغادرونها سباً وهتكاً لعرضها !!
الآن يستطيع القول إن بحوراً وبحوراً أصبحت تفصل بينه وبين شريفة !

أكد له محسن أنه سوف يشعر بالخوف فلم لا يشعر به ؟!
دوت صفارة السفينة معلنة وقت الرحيل ، فنشط البحارة على السطح وفوق الرصيف سواء بسواء ، تعالت الصيحات وشملت السفينة حركت راحت تدب بعنف أخذ يتصاعد حتى تحركت مبتعدة عن الرصيف الذى تشبث به عيناه ، كانت « ماجى » تلوح بمنديل أبيض ودمعها ينهمر بغزارة ، راح يلوح لها وهو يسبح بعينه فوق الوجوه فهى آخر من سوف يراه فوق أرض مصر ، فى لحظة مجنونة ارتج حتى الأعماق وكأن صاعقة قد أصابته ، جحظت عيناه وفغر فاه وهو يحملق فى الرصيف !
كان محسن هناك !!

أمامه مباشرة ، خلف عائلة سمحون تماماً ، هم بأن يلوح له وهو ينتفض لكنه تراجع ، فكيف يصبح وداع الأصدقاء حراماً ؟ !
دوت صفارة السفينة مرة أخرى بنغمة خاصة فرجع كل من فوق الرصيف أيديهم ملوحين مودعين ، كما رفع كل من فوق سطح السفينة أذرعهم ملوحين مودعين ، وكانت عائلة سمحون بكاملها تلوح له ، خلفها كان محسن يلوح هو الآخر ، فرجع يده وأخذ يلوح له . . . لم يكن

يرى سواه ، وكان كل منهما يلوح للآخر . . . حتى أصبح نقطة بعيدة
المنال !

.
.

عندما كانت السفينة اسبريا تعبر بوغاز ميناء الاسكندرية في طريقها
إلى عرض البحر اللانهائى هبت الريح فتمايلت السفينه يمنة ويسرة ،
وحمل الهواء جيوشاً من رذاذ الماء راح يلطم وجه الفتى وكأنها إبر ناعمة
الملمس فارتجف . . . ضم ذراعيه امام صدره وهو يستشعر شيئاً غريباً
في اعماقه ، شيئاً كالثعبان كان يتلوى في لاوعيه بازغاً الى الوعى في
إصرار منكود ، استغرق الفتى في النظر الى مياه البحر الزرقاء وهو
يستسلم لهذا الاحساس الذى ، ما أن انتبه إليه ، حتى سرت في
جسده قشعريرة طاغية . . . فلقد اكتشف انه الآن ، والآن فقط ،
كان يشعر بالخوف عملاقاً مهولاً راح يجتاحه اجتياحاً !



كان الليل قد هبط على القاهرة واضيئت أنوار الشوارع عندما وقفت
« فراو سمحون » بباب المبنى الرئيسى لجهاز المخابرات العامة
المصرية . . . بجوارها كان يقف عزيز الجبالى وقد بدا عليه الإرهاق
الشديد ، قالت قبل أن تدلف الى السيارة السوداء الالمانية الصنع التى
خصصت لها منذ أن هبطت أرض مصر : إنها تشعر وكأنها عاشت في
يومين سنوات بكاملها . . . ثم أبدت دهشتها البالغة من حدة ذاكرة
عزيز الجبالى ، قالت باسمه :
« كان يخيل إلى فى بعض الأحيان انك لا تسترسل فى الحديث

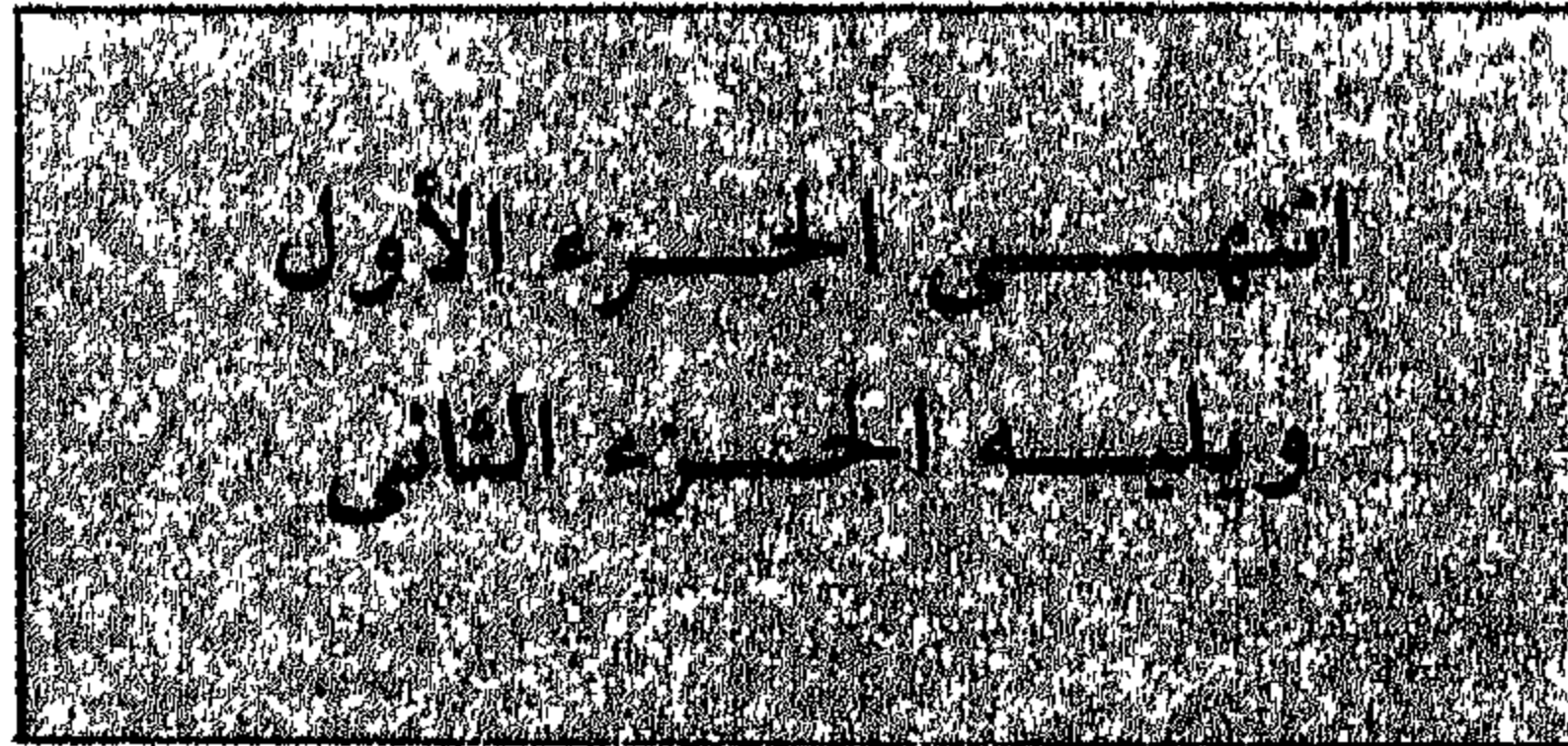
بتلقائية . . لقد كنت تحكى وكأنك تقرأ كتاباً مفتوحاً ! «
ضحك عزيز موضحاً :

« لقد قصصت عليك مالم أعشه ، فلقد كنت فى تلك السنين ملازماً
فى الجيش المصرى ! »

تهدت هيلين سمحون وهى تستعد لركوب السيارة قائلة :
« على كل لقد كانت هذه قصة رأفت الهجان . . . أليس
كذلك ؟ ! »

بدت الدهشة فى عينى عزيز وهو يتساءل :
« ماذا تقصدين فراو سمحون ؟ ! »
« إنى فى انتظار الغد . . . كى أسمع قصة ديفيد شارل
سمحون ! »

قالت هذا وهى تدلف إلى السيارة التى انطلقت بها جوف الليل ،
الى حيث مقرها السرى فى مصر الجديدة !



صدر للمؤلف

- ١ - الخوف - مجموعة قصص - ١٩٦٠
- ٢ - زقاق السيد البلطى - رواية - ١٩٦٣
- ٣ - الكذاب - رواية - ١٩٦٥
- ٤ - خطاب الى رجل ميت - مجموعة قصص - ١٩٦٧
- ٥ - البحر - من ادب الرحلات - ١٩٧٣
- ٦ - السجين - رواية - ١٩٧٦
- ٧ - الصعود الى الهاوية - مجموعة قصص عن التجسس - ١٩٧٦
- ٨ - الحفار - رواية من اعمال المخابرات - ١٩٨٥
- ٩ - المهاجرون - قصه طويله - ١٩٨٦

تحت الطبع

- ١٠ - دموع فى عيون وقحة - رواية من اعمال المخابرات -
- ١١ - قصص من البحر - مجموعة قصص قصيره وطويلة تجرى احداثها فى البحر -
- ١٢ - حب للبيع - مجموعة قصص -
- ١٣ - صور من مصر - مجموعة صور أدبيه -
- ١٤ - قصه زواج عصرى - رواية -

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦/ ٥٧٣٥
الترقيم الدولي X - ٠٠ - ١٥٦٠ - ٩٧٧ - ISBN

الصف والتجهيزات الفنية



طبع بمطابع

المنار العربي للطباعة والنشر

١ - شارع العامل الأول - امبابة - الجيزة

ج ٢٠٠٤

الناشر خارج جمهورية مصر العربية



الصدار المصيرية للنشر والتوزيع
P.O.Box 8559 Nicosia - Cyprus
Tel (02) 498688 - Tlex 5341
نيقوسيا - قبرص ص . ب ٨٥٥٩
ت : ٤٩٨٦٨٨ تليكس ٥٣٤١

الناشر

ابولو للنشر والتوزيع



١٦ شارع البورصة - التوفيقية -
ص . ب : ٢٥١٥ القاهرة ت : ٧٥٢٢٢٤
عمارات أبو الفتوح - عمارة ٣٩
شقة ٤ الهرم ت : ٨٥٩٥٥٦

رأفت الهجان

اثار النجاح الكبير الذي حققته رواية « رأفت الهجان » ، عندما نشرت مسلسله في مجلة المصور القاهرية ، وجريدة الشرق الأوسط اللندنية في نفس الوقت ، الكثير من الجدل في الأوساط الأدبية والثقافية ... فبعيداً عن هذا الكم الهائل من الأسرار التي كشفت عنه الرواية في تلك الحرب الخفيه والمستعرة بين مصر وإسرائيل ، فإن الاسلوب الذي تناول به الاستاذ صالح مرسي احداث هذه القصة الواقعية ، وتلك الاضافات الفنية التي اردا لها أن تمتزج بالواقع امتزاجاً كيميائياً — على حد قوله — ارتفع بالعمل ككله إلى مستوى العمل الفني الخالص ... وكان أن انقسمت الآراء حول « رأفت الهجان » ، كما انقسمت قبل ذلك حول رائعته السابقة « الحفار » !

فمن قائل إن مثل هذه الأعمال لا تندرج تحت راية الأدب بمفهومه التقليدي والمحافظ — إن صح التعبير — ومن قائل إن هذا نوع من الأدب لم نتعود عليه في العالم العربي بعد ، وإن كان في البلدان الأكثر تقدماً أدباً معترفاً به في المحافل الأدبية والثقافية .

وعلى كل ... ففوق كل هذا ، فلقد كان « رأفت الهجان » بطلا من نوع فريد وفذ ... اعطى لوطنه ولأمته العربية ، كل شبابه وكهوه لاقى ربه ، دون أن يشعر به ، أو يعرف عنه أحد شيء ، سوى قلنا هؤلاء الرجال الذين نذروا حياتهم لمصر ، وللأمة العربية !